

الفرقان
بـ

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصائغ

انتشارات فقه هند اسلام



مرکز تحقیقات کتاب و ترویج علوم اسلامی

الفیه و تالیف

۳-۴



الكتاب الفرقان في تفسير القرآن يوم ربي

المؤلف الدكتور الشيخ محمد الصادقي

الجزء الثالث والرابع - سورة آل عمران

الطبعة الثانية

المطبعة مطبعة اسماعيليان - قم

الناشر انتشارات فرهنگ اسلامي

الهاتف ٢٤٢٢٥ قم

سنة الطبع ١٤٠٨ هـ - ق

عدد المطبوع ٣٠٠٠ نسخة

التمسك ١٥٠٠ ريالاً

مطبعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفُرْقَانُ

في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنَّة

الجزء الثالث والرابع
سورة آل عمران

دار الفوائد الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بجدة - مكة

مَعَالِمُ الْمَشْرِقِ الْمَغْرِبِ وَتَمَجُّدُهُ



مركز تحقیقات کتب و ترویج علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کاپیویر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاُنْزَلَ
 التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَاُنْزَلَ
 الْفُرْقَانَ ﴿٣﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِعَايَتِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ
 وَاللّٰهُ عَزِيْزٌ ذُوْ اَنْتِقَامٍ ﴿٤﴾ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ
 فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يَصُوْرُكَرُ
 فِي الْاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿٦﴾
 هُوَ الَّذِي اَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَتٌ
 مِنْ اَمْرِ الْكِتَابِ وَاُخَرُ مُتَشٰبِهَتٌ ۚ فَاَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاُنْزَلَ
 التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَاُنْزَلَ
 الْفُرْقَانَ ﴿٣﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِعَايَتِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ
 وَاللّٰهُ عَزِيْزٌ ذُوْ اَنْتِقَامٍ ﴿٤﴾ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ
 فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يَصُوْرُكَرُ
 فِي الْاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿٦﴾
 هُوَ الَّذِي اَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَتٌ
 مِنْ اَمْرِ الْكِتَابِ وَاُخَرُ مُتَشٰبِهَتٌ ۚ فَاَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا
بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابِ
آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا فَاخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

سميت هذه السورة بـ « آل عمران » لأنهم من أبرز السمات المستعرضة
فيها بين عرض الرسل والرسالات في مختلف المجالات المعرقة عجلتها ، المكدره
أجواءها .

تستحضر هذه السورة صورة وضيفة من روح زماني مدني للحياة الإسلامية
قويت فيها شوكة المسلمين ، وبطبيعة الحال عارضتها الشائكة ضد الإسلامية من

ثالث الإشراف والتهود والتنصر ، فهي تحمل عرضاً للشبكات والإشتباكات والملايسات والعقبات التي أحاطت بهذه الحياة لحدّ كأن قارئها يعيشون الحياة نفسها بحذافيرها وأظافيرها .

وقضية الهيمنة القرآنية - الكاملة - هي مواجهة كل عرقلة وشائكة ليقود المسلمين في خطواتهم بين كل الأشواك والمصائد والأحاييل والعقاييل .

ففي عرض الحالة الحاضرة لنزول القرآن في عهده وما عرضتها من معارضات ضدها ، وحلول ربانية لمسكتها ، عرض لكل الحلول بمعارضاتها في كل مستقبل للحياة الإسلامية ، حيث الدعوة القرآنية خالدة على مر الزمن بمدار الضمانات الوقائية للكتلة المسلمة ما تمسكوا بها .

وقد تكون هذه السورة نازلة كترتيبها الآن ، حيث الرباط الوطيد بين آياتها ينادي بذلك الواقع ، إضافة الى كون الأصل في أي السور كلها نزولها كما رتب إلا بدليل يدل على خلافه ، ولم يرد في الأثر أن آيات عمران نزلت في غير جوها ام غير ما هي الآن من ترتيبها ، فقد توافق وتجاوب تنزيلها وتأليفها .

﴿ اَلَمْ ﴾ ١ .

هي كما في البقرة وعديدة سواها من المفتتحات بها وبأضرابها ، هي من مفاتيح كنوز القرآن ، فصلنا طرفاً طريفاً من فصل القول حولها في البقرة وسواها فلا نعيد .

﴿ اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ ﴾ ٢ .

نجد تفصيل البحث عنها في آية الكرسي هناك فلا نعيده هنا .

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ٣ .

« نزل » بالحق « عليك » بالحق « الكتاب بالحق » « مصدقاً » بالحق « لما بين يديه » بالحق، فهو خمس من الحق تنزيلاً ومُتَزَلّاً ومُتَزَلّاً وتصديقاً ومصدقاً : مصاحباً الحق وبسبب الحق، معان عشرة كلها معنية على درجاتها دونها خليط من باطل ، ولا زوال لحقه خلاف سائر الحق قبله ، فهو الحق المستمر الخالد دونها نسخ أو تحوير خلافاً لكل حق قبله .

والكتاب المنزّل هنا هو القرآن المفصل النازل نجومياً قضية مختلف الحالات المقتضية والحاجيات .

و « مصدقاً » حال أنها حال للكتاب ، كذلك هي حال للرسول المخاطب في « عليك » فكما : « آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم » (٢ : ٤١) كذلك : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » (٢ : ٨٩) .

ف « ما بين يديه » لا تختص - فقط - بكتب الوحي ، بل وتعم رسل الوحي بآياتهم الرسولية والرسالية ، فكما القرآن يصدق ما بين يديه من كتابات الوحي بآياتها الرسالية ، كذلك رسول القرآن مصدقاً لما بين يديه من رسل الوحي بآياتهم الرسولية ، كما وكل من الرسول والقرآن يصدقان كلاً من رسل الوحي وكتابات الوحي .

ودور تصديق القرآن لما بين يديه من كتابات الوحي هو واقع التجاوب بين وحيه ووحيتها ، فلو لم يكن القرآن وحيّاً لم يكن ليصدق سائر الوحي لواقع الاختلاف بين وحي السماء وحي الأرض .

وكيف « ما بين يديه » دون « ما خلفه » ؟ وكل الرسل والكتب هي خلف القرآن ورسوله ! ، لأن قرآن محمد ومحمد القرآن هما استمراران لما قبلهما من رسول وكتاب ، مكملان لهما ومهيمنان عليهما ، فليسا هما خلف القرآن ونبيه في الكيان مهما كانا خلفهما في الزمان ، فحق التعبير - إذاً - كما هو : « ما بين يديه »

كقارىء لها وقال، ومصديق اياهما ، فهما - إذاً - أمامهما في الاتجاه ، مهما كان القرآن ورسوله إمامهما في التوجيه .

ثم التصديق لما بين يديه منحصر بما أنزل بوحى الله ، منحصر عما سواه لمكان سابق الذكر للكتاب، والنبي ليس ليصدق إلا النبي ، ولا كتاب الوحي إلا مثله دون ما يناقضه ام ليس بمحتواه من حيث الوحي ، الا تصديقاً لصديق الواقع ولكنه ليس تصديقاً رسالياً ، و « مصداقاً » هنا تعني الرسالي والرسولي ، فـ « ما بين يديه » رسولاً وكتاباً ليس إلا خالص الوحي مثله ، فان في تصديق المختلق تكذيباً لنفسه وتصديقاً للمتضادين ! ولا يعارض تصديقه لما بين يديه نسخه لقسم من أحكامه حيث النسخ بيان لأمد الحكم السابق وليس تكذيباً لوحيه ، ولا يعني تصديق القرآن لما بين يديه إلا تصديق وحيه دون تطبيقه المطبق المطلق، قضية ضرورة النسخ لقسم من الأحكام السالفة حتى في سرعة واحدة فضلاً عن شرائع عدة .

وقد بين نطاق التصديق في قسم من آياته كـ « قل آمنت بما أنزل الله من كتاب » (٤٢ : ١٥) و « قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » (٢٩ : ٤٦) كما والقرآن بيان لما اختلف فيه أهل الكتاب من الكتاب دساً وتحريفاً وتجديفاً : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه » (١٦ : ٦٤) « ان هذا القرآن يقص على بني إسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون » (٢٧ : ٧٦) .

وكما يصرح في عشرات من آياته أن أهل الكتاب حرفوا من كتبهم قسماً من جهات أشراعها ومن أهمها البشائر الواردة فيها بحق هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجذونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (٧ : ١٥٦) فقد حرفوا بشائره لفظياً ومعنوياً كما حرفوا منها أحكاماً وقصصاً تحمل أحكاماً أخرى : « ... يحرفون الكلم عن

مواضعه . . . (٥ : ١٤) و « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . . . » (١٦) « افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٢ : ٢٦) « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٢ : ٧٤).

وقد يعني تكرار التصديق لما بين يديه أنه ليس بدعاً من الرسل ، ولا أن كتابه يدع من الكتب ، تقريباً وتشويقاً لأهل الكتاب ان يصغروا إلى ذلك الجديد الذي هو استمرار للقديم ، سلسلة موصولة بين الله وخلقته على مر الزمن الرسالي .

ذلك ، ولكي يقارنوا بين الكتابين فيعرفوا ان القرآن وحي - وبأحرى مما عندهم - او ينظروا الى البشارات المودوعة في كتبهم بحق هذه الرسالة الأخيرة ، متحللين عن كل تحريف وتجهيف .

ذلك « ما بين يديه » بوجه يعم كافة الرسل بكتبهم ، ثم « وانزل التوراة والانجيل » خاص بعد عام لاختصاصهما بينها بأهمية خاصة ، وأنها المعروفان منها في الحقل الكتابي دون ما سواهما من كتاب غابر لم يبق له على أثر إلا فيما شذ وندر .

و « الانجيل » مفرداً (١٢) مرة في القرآن لمحة لامة على تحرفه إذ أصبح أناجيل لا تنسب الى السيد المسيح (عليه السلام) اللهم إلا ما لا خبر عنه حيث دفن في مقبرة التاريخ المسيحي .

والقرآن لا يصدق إلا الانجيل النازل على السيد المسيح (عليه السلام) دون الأناجيل التي ألفها جماعة آخرون وهي متعارضة مع بعضها البعض ،

وأخري مع صادق الوحي ، وثالثة مع الفطرة والعقلية والواقعية السليمة (١) .
« ... مصداقاً لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل » كل ذلك رسولاً
ورسالة :

﴿ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

فكل ما انزل من قبل « بما بين يديه » و « التوراة والانجيل » كيانه هدى
للناس ، كما « وأنزل الفرقان » .

والفرقان - ككل - هو الفارق بين الحق والباطل بواقعه المبرهن وأصدق
مصاديقه هو القرآن ، فقد ذكر أولاً بلفظ « الكتاب » وأخيراً « الفرقان » مما يدل
انه هو الأول والأخير ، فكل كتابات السماء تقدمت لذلك الكتاب ، كما أن كل
رسل السماء تقدمت لذلك الرسول .

ومهما كان كل رسول فرقاناً بنفسه وبآيات رسالته ، ولكنه لم يكن فرقاناً
بكتابه ، فهذا الرسول فرقان بكتابه كأفضله ، فإنه آية خالدة رسالية ورسولية
على مدار الزمن الرسالي ، وما هكذا أي كتاب بين يديه ! .

ومهما شمل « الفرقان » المنزل هنا كل فرقان مع الرسل دون كتاباتهم ،
فالمصداق الأعلى والأجل للفرقان هو القرآن ، كما وهو الرسول فانه من المنزل كما
القرآن : « فاتقوا الله يا أولي الألباب قد أنزل الله اليكم ذكراً . رسولاً يتلو
عليكم آيات الله مبينات » (٦٥ : ١١) .

وطالما القرآن المفصل منزل تدريجياً ، ولكن المحكم منه - النازل ليلة

(١) للإطلاع على حال الأنجيل راجع كتابنا (المقارنات) وقد جاء شطر من عديد الأنجيل في الفرقان

القدر - منزل دفعياً فهو : فرقان اول ، ثم المفصل منه فرقان ثانٍ منزل ، لأن كل نازلٍ منه في نجمه فرقان ، فهو - إذا - فرقان جملة وتفصيلاً ، انزالاً وتنزيلاً ، لا مثيل له في كتابات الوحي عن بكرتها .

فذكر الفرقان هنا بعد القرآن تعظيم للقرآن وتعميم للفرقان لكل رسول انه لا يأتي الا بفرقان ، وفرقان القرآن يمتاز عن سائر الفرقان بما يفرق بين أصيل الوحي فيما بين يديه عن دخيله ، وانه برهان لرسوله رسولياً ورسالياً ، خالداً على مر الزمن ، بل لا يزداد إلا ظهوراً وبهوراً ، وأنه المقياس الأصل لما يروى عن المعصومين (عليهم السلام) تصديقاً لما وافقه ورداً لما خالفه .

ذلك ! وما أشبه من ميزاته المنقطعة النظير بين كل فرقان لكل بشير ونذير ، فانه شرعة بأكملها وآية رسالية ورسولية بأكملها ، قضية خلود الشرعة بآيتها « ولا ينبئك مثل خبير » .

إذا فـ « ان الذين كفروا بآيات الله » وهي مجموعة في ذلك الفرقان ، ومنجمة في سائر الفرقان : انفسية وآفاقية : رسلاً ورسالية ورسولية ، كفرة عن تصديقها ، وسترأ مكذباً او متجاهلاً عن دلالاتها الصادقة « لهم عذاب شديد » وفاقاً لشدة الكفر وعدّه وجزره ومدّه « والله عزيز » لا يُغلب « ذو انتقام » ممن يتألب او يتغلب على رسالات الله وفرقانه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

« شيء » هنا في سياق النفي تشمل كل ما يستحق اسم الشيء ، واقعاً - وهو حق الشيء في مثلث الزمان - بإمكان وقوعي ومصلحي ، ام ممكنات ذاتياً لا يستحق التكوين حسب الحكمة العالية ، واما المستحيل فليس شيئاً بأي معنى حتى تشمله « شيء » فانما الله يعلم استحالة حقه ونحن نعلمها على هامش علمه .

ثم « في الأرض ولا في السماء » تعبير مكرور في القرآن عن كل كائن على طول خط التكوين ، ظرفاً لواقع « شيء » ومظروفه ، دون ابقاء لكائن إلا وهو شامله .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٦ .

« في اي صورة ما شاء ركبك » (٨٢ : ٨) « وصوركم فأحسن صوركم » (٦٤ : ٣) ولا انتم الناس فحسب ، بل و« هو الله الخالق الباري المصور » (٥٩ : ٢٤) لكل صورة، ولا يخلو أي خلق من صورة هي منه تعالى كخلقه سواء .

« هو » لا سواء « الذي يصوركم » بالصورة الإنسانية بجزئيتها الروحية والبدنية، روحية عامة هي الروحية الانسانية ككل ، المشتركة بين الكل ، وأخرى خاصة حيث تختلف الأرواح من جهات عدة قابلة وفاعلية واستعداداً أماهيم ، وبدنية عامة مشتركة وهي الهيكل الإنساني المشترك بين الكل ، وأخرى خاصة هي مختلف الصور والشاكلة ظاهرة وباطنة ، وكل هذه الأربع داخلية في نطاق « يصوركم » هنا وفي سواء : « صوركم فأحسن صوركم » حيث « خلقنا الانسان في احسن تقويم » في جزئية فلا افضل منه نوعياً اللهم إلا فضيلاً مثله وهو القليل : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

و أرحام النساء ، مهما كانت خلقية ، ام مصطنعة ان امكنت « كيف يشاء » لا ما يشاءه سواء « يصوركم في الأرحام »

« لا إله الا هو » في أي من اختصاصات الألوهية كالخلق والتصوير والتدبير والتقدير « العزيز » في ألوهيته « الحكيم » فيها ، فلا يُغلب ولا يخطأ او يجهل او يغفل .

هنا « يصوركم في الأرحام » كما هناك « في أي صورة ما شاء ركبك »
تحمل مختلف الصورة الروحية والبدنية للإنسان ، فليست هي بمشيئة الوالدين -
اختياراً أم دون اختيار - أو علم الأجنة ، إنما هي بمشيئة الله وحده لا شريك
له .

هنا نتحدث قليلاً عن الصورة الجسدانية الملموسة ، فقد قضت الحكمة
الربانية في خلقه أن يُركَّب كل شخص إنساناً وسواء بصورة مختلفة عن الآخر
رغم التشابه الواقع بين شخص وآخر .

ولقد بين علماء الوراثة قريباً أن احتمال التشابه التام بين شخصين هو
بنسبة واحد من الرقم عشرة مسبقاً بأربعين صفراً (١ / ١٠٤٠) وهذه حقاً
استحالة حسابية منطقية ! .

ذلك ! لأنه - حسب تقديرنا - عندما ينصهر الحيوان المنوي مع البويضة -
وكل منهما يحمل ربع مليون « ناسلة مورثة » تقريباً - لا يقدر أحد إلا الله أن يتنبأ
بالشكل الذي سيكون عليه مستقبل الجنين البيولوجي ، والتي تحكمها هذه
المورثات ، وقد يرجع الجنين في نسبه - أي ميزاته البيولوجية - إلى أبعد الحدود ،
وربما إلى جدنا الأول وكما في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما
سأل رجلاً « ما ولدك ؟ » : ما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية ،
قال : فمن يشبه ؟ قال الرجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما
عسى أن يشبه إما أباه وإما أمه ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تقولن
هكذا ، ان النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين
آدم ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله « في أي صورة ما شاء ركبك » قال :
شكلك .

ذلك ! ورغم أن علم الوراثة باستطاعته نفي الأبوة عن طفل إذا تعارضت

فئة دمه مع فئة دم والده - وهذه حالات نادرة - كأن تكون فئة دم الوالدين من فئة (A) وفئة دم الطفل من فئة (B) .

رغم ذلك لا يستطيع التأكد بأبوة الوالد لطفله ، فعلم الوراثة لا يستطيع الجزم بذلك أبداً ، ومن هنا نعرف طرفاً من البعد العلمي العظيم في التشريع الإسلامي من خلال قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الولد للفراش وللماهر الحجر » ، حيث يحصر المعول عليه في إثبات نسب الطفل لوالده كما بينه علم الوراثة اليوم .

ذلك ، ولما انصار الانتخاب الطبيعي وتطور المخلوقات الحية بعوامل البيئة والمناخ ، من الذين أرجعوا لإختلاف الألوان في الجنس البشري والمخلوقات الحية للمناخ والطبيعة، أما هؤلاء فسقطت هرطقتهم هذه الخواء أمام اكتشافات المورثات التي تحكم اختلاف الألوان في المخلوقات .

فلماذا سكان الولايات المتحدة الأمريكية من الزنوج لم يتغير ألوان بشراتهم بفعل المناخ وهم في مناخ مختلف عن أفريقيا منذ مئات السنين ؟ وكذلك بالنسبة لسكان جنوب أفريقيا من البيض .

أجل لا ننكر أن للبيئة والمناخ تأثيراً بحول الله وقوته ، ولكننا ننكر أن يكونا هما الأصل الأصيل في اختلاف الصور والألوان ، فائما « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » ، واليكم مثلاً مائلاً بين أعيننا « بصمات الأصابع » كما تبدو في أواخر الشهر الثالث من حياة الجنين « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » حيث لا تتشابه البصمات إلا في التوأم التام الصحيح المتأني من بويضة ملقحة واحدة ، سبحانه الخلاق العظيم ! .

وتلك هي الصورة المختلفة بين الناس ، ثم المتحدة بينهم تشتمل على ثلاثة عشر هي :

الطبائع - الأركان - الأخلاط - الجواهر - الطبقات - الأعمدة - الجبال -
الخزائن - المسالك - الأنهار - الأبواب - الحُرَّاس - العمودان ، فكل شخص من
الإنسان هو بمفرده كمدينة سبحانه الخلاق العظيم ! .

١ فالطبائع هي الحرارة - البرودة - الرطوبة - اليبوسة .

٢ والأركان الأصلية أيضاً أربعة هي النار والهواء والماء والأرض ، والعلم
الآن جعلها مركبات من عناصر تبلغ زهاء (٧٥) أم وتزيد .

٣ والأخلاط أربعة هي : الصفراء والدم والبلغم والسوداء ، مهما زاد
عليها العلم ما زاد .

٤ والجواهر تسعة هي : عظم - مخ - عصب - عرق - دم - لحم - جلد -
ظفر - شعر .

والطبقات عشر هي : رأس - رقبة - صدر - بطن - جوف - جف -
وَرِكَان - فخدان - ساقان - قدمان .

٦ والأعمدة هي (٢٤٨) وهي العظام .

٧ والجبال : (٧٥٠) حبلاً هي الرباطات الممتدة المشدودة على العظام
وهي الأعصاب .

٨ والخزائن الإحدى عشر هي : الدماغ - النخاع - الرئة - القلب -
الكبد - الطحال - المرارة - المعدة - الأمعاء - الكليتان - الأنثيان .

٩ والمسالك والشوارع والطرق في العروق الضوَّارب (٣٦٠) .

١٠ والأنهار هي : الأوردة (٣٩٠) .

١١ والأبواب الإثني عشر هي : العينان - الأذنان - المنخران - السبيلان -
الثديان - الفم - السرة .

١٢ والحراس هي الحواس الخمس : السمع - البصر - الشم - الذوق -
اللمس .

١٣ والعمودان هما الرجلان .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْهُ أَمْ الْكِتَابِ وَأُخَرُ
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ ﴾ ٧ .

آية فريدة في القرآن تقسم آياته إلى محكمات ومتشابهات ، تنديداً بالذين
يتبعون ما تشابه منه ، وتمجيذاً بمبغني محكماته ، والمستفسر لمتشابهاته بها ،
وتجهيلاً لتأويله ككلٍ وعلمه لكلٍ ، فيحق لنا ان نسبر أغوارها لنحصل على
صراط مستقيم في تفسير آي الذكر الحكيم .

هنا اثني عشر سؤالاً تطرح حول آية التقسيم هذه ، للإطاحة بكل تقولة
عليها على ضوء اجوبتها الصالحة .

١ هل هذه الآية محكمة يصح التمسك بها في ذلك التقسيم ومعرفة كل
قسم ، أم متشابهة ؟ .

٢ ثم ذلك التقسيم الثنائي حاصر ، أم هناك قسم أو أقسام آخر من
الآيات ؟ كالمجملات ! .

٣ كيف التوفيق بين آية التقسيم ، وثانية تدل على أن القرآن كله محكم :
« كتاب أحكمت آياته » (١١ : ٢) وثالثة تدل على أنه كله متشابه : « الله نزل

احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني .. (٣٩ : ٢٣).

٤ كيف جمع فيها بين « هن » ضمير الجمع ، وبين « ام الكتاب » مفردة ، فجعل الواحد صفة للجمع ؟ وهذا فت في عضد البلاغة وثلم جانب الفصاحة ! .

٥ ما هو المحكم والمتشابه والفرق بينهما بصورة محكمة غير متشابهة ؟ .

٦ كيف تكون المحكمات أما للكتاب ؟ .

٧ ما هو اتباع المتشابه المنهي عنه ؟ .

٨ بماذا تفسر المتشابهات وكيف تفسر ؟ .

٩ ما هو الوجه في اشمال الكتاب على المتشابهات وهي مسرب الشبهات ؟ .

١٠ من هم الراسخون في العلم ؟ وهل هم يعلمون تأويله أم لا يعلمون ؟ .

١١ هل التأويل يخص المتشابهات ام يعم المحكمات ؟ .

١٢ ما هو الفرق بين التأويل وتفسير المتشابه ؟ .

١ قضية الوحدة في هذه الآية من حيث التقسيم اذ لا ثانية لها ، والتأمل فيها حقها ، أنها محكمة ، وإلا لفسد التقسيم واصبح القرآن كله متشابهاً حيث لا يفهم الفرق بينهما على ضوء آية التقسيم ، فهي قطعاً في مقام بيان التقسيم ، فلو كانت متشابهة - ولا محكمة غيرها تفسر هي بها - لعاد القرآن كله متشابهاً ، وبطل علاج التشابه المدلول عليه لها ، ولم يصدق : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » (٣٢ : ٤) وسقط الاحتجاج بواجب التدبير فيه : « افلا

يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (٤ : ٨٢)
وليست الحاجة الى التدبر مما تجعل الآية متشابهة وإلا أصبح كل النظريات
متشابهة .

هذا وواقع الاختلاف في أي القرآن إحكاماً في بعض وتشابهاً في أخرى ،
مما يصدق حق التقسيم وانه بيان لواقع ملموس .

٢ « منه » قسيم أول « وآخر » قسيم منه ثانٍ فهما - إذاً - قسيما اثنان ،
ولو كان فيه ثالث لكان حق التقسيم في هذه اليتيمة أن يذكر كما ذكرنا ، فان في
تركه اجمالاً في التقسيم وابهاماً لكل قسيم .

ثم التقسيم الى قسيمي السلب والايجاب هو حاصر على أية حال ،
والتشابه والإحكام راجعان الى وصفي المدلول باللائح والخفي ولا ثالث بينهما أياً
كان .

وقيلة القائل ان المجمل ثالث لا هو محكم ولا متشابه - لانها المقصود
دلالتها على معنى ، ولا يقصد من المجمل مجمل المعنى - إنها غيلة وحيلة على
الذكر الحكيم ، إذ لا مجمل في القرآن بهذا المعنى ، فكل لفظة فيه تعني ما يصح
أدبياً من المعنى المراد ، إن عاماً فعام وإن مطلقاً فمطلق او نصاً او ظاهراً فهما لا
سواهما ، محكمة او متشابهة .

فقد يعني المجمل ما أجمل فيه المعنى دون بيان رغم كونه معنياً ، فهذا فت
في عضد الفصاحة وثلم في صرح البلاغة ، تُنخى عنه ساحة الذكر الحكيم لانه
أبلغ بليغ وافصح فصيح ، فكيف يليق به هكذا تعبير فضيح ! .

او يعني ما لم يُعْن منه أي معنى ؟ وذلك لغو في الذكر الحكيم ! ، او عني
منه معنى ولم يُعْن معنى آخر، فغير المعنى - إذاً - خارج عن مقسم التقسيم وهو
الدلالة ، ومن ثم فان كان لائح المعنى وإن بتأمل وتعمُّل فهو من المحكم ، وان
كان عميق المدلول على وضوح الدلالة فهو من المتشابه الذي يفسره المحكم ،

وان لم يُعن منه ما تعنيه فهو خارج عن المقسم ، وقد تجمع الاقسام الثلاثة « ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة ايام وما مسنا من لغوب » فهي محكمة من حيث عدد الأيام والمخلوق فيها ، ومتشابهة من حيث معنى الأيام ، وبجملة من حيث عدد السماوات .

٣ إحكام الآيات كلها يعني الحكمة العالية الربانية المعمقة فيها دلالة ومدلولاً وتوفيقاً مع الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة ، وتطبيقاً لها محققاً على كل متطلبات الحياة الإنسانية والإيمانية ، فلا مدخل فيها لباطل ، وهذا إحكام للقرآن في كل مراحله .

ولكنه محكمة الآيات وجاه تفصيلها كما في الآية نفسها وهو إحكام قبل تفصيل ، أنها احكمت في نزولها الأول على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ليلة القدر ، فالمحكمات والمتشابهات في مرحلة التفصيل كلها محكمات في مرحلة الإحكام

واما « كتاباً متشابهاً » فقد يعني تشابهاً لا يقابل هذا الإحكام ، فهو تشابه آياته كلها للمعنى من المحكم النازل ليلة القدر ، وتشابهها مع بعض البعض في قوامة التعبير لأعلى قسم الفصاحة والبلاغة ، وتشابهها بتلائمها مع بعض البعض حيث يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض ، ورابع هو تشابهها مع بعض في التبدليل على وحيها آيات بينات من عند الله العزيز الحكيم ، وخامس تشابه فيه مع قضية الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة على مدار الزمن ، وكذلك كل تشابه هو قضية كونها من عند الله ذا نسق واحد في جزالة النظم واتقان الأسلوب في كل حقول الهداية الى الصراط المستقيم : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

فهذه وتلك تقرر ان إحكاماً وتشابهاً يخلقان على القرآن كله ، وآية

التقسيم تقسم تفصيل الكتاب المتشابه إلى محكم ومتشابه ، عنايةً منها غير ما يُعنى فيها ، ومنها إحكام المدلول حيث يتضح لبساطته ، ثم تشابهه - على وضوح الدلالة - لعلو المعنى وتشابه اللفظ مع ما يُعنى منه غير ذلك المعنى ، لا قصوراً في الدلالة ، إنما لعلو المعنى .

^٤ لو قال « هن أمهات الكتاب » لذهب البال والخيال إلى أن كل واحدة منها هي أم لكل الكتاب ، رغم أن كلاً أم لمتشابهها الخاص ، أم جملة منها لجملة أخرى ، دون أن تكون كل واحدة أمّاً للكتاب ، فلا أن كل محكمة أم لكل المتشابهات ، ولا لأي متشابهة لا تناسبها ، وإنما لكل متشابهة أم ، واحدة أم زائدة في كل من المحكمة والمتشابهة ، فصالح العبارة عن القبيلين في مختصر التعبير ومختصرة : « هن أم الكتاب » توحيداً للأم المحكمات وسائر الكتاب المتشابهات ، فقد قوبل جمع المتشابهات بجمع المحكمات فعبّر عن كل بصيغة الإفراد « أم الكتاب » فكما الأم واحدة كذلك الكتاب المعنى منه كل المتشابهات .

إذاً فمجموعة الأمهات هي كأم واحدة لمجموعة المتشابهات ، فهي أصل للمتشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها ويستثار دفينها ، وبذلك سميت أم الإنسان أمّاً لأنها أصله الذي منه طلع وعنه تفرع وهي - بعد - المرجع في كل سؤال وحاجة .

وقد تشابه هذه الآية آية ابن مريم وأمه : « وجعلنا ابن مريم وامه آية » فإن المعجز فيها آية واحدة على عديد ظرفها ، فانها ولدت من غير بعل وهو ولد دون أب ولا فصال بينها في تكون هذه الآية ، إذ ليس كل واحد دون هذه الصلة الولادية آية خارقة .

كذلك « هن أم الكتاب » فلإنها ككل أم للكتاب كله ، فليست كل

واحدة منها أمّا للكل ، ولا أن كل واحدة من التشابهات وليدة لكل من المحكمات فانما ذلك من تقابل الجمع بالجمع .

ولأن الكتاب يعم محكمه الى متشابهه ، فهن - إذا - أم لأصراها المحكمات كما هي ام للمتشابهات حيث المحكمات تفسر بعضها بعضاً كما تفسر المتشابهات .

وانما عبّر عن المحكمات بضمير جمع العاقل « هن » لأنها بتفسيرها المتشابهات كأنها عاقلة حكيمة ، وهي حقاً هي لأنها صادرة من خالق العقل والحكمة لتعقلنا فنعقلها ، ورغم ان المتشابهات كما المحكمات حكيمة عاقلة ، ولكن علو المعنى وقصور العاني في مداليلها يجعلها بحاجة الى محكماتها ، فكانها ليست بذلك العقل الحكيم وهي من خالق العقل الحكيم ، وليس السلب إلا من القاصرين في تفهمها ، دون قصور في دلالاتها ، فأبي الذكر الحكيم كلها حكيمة ولا يعني التقسيم إلا مختلف الافهام في تفهمها .

° هل المحكمات هي الدالات على معانيها المقصودة دونما تكلف او تخلف عن نصوصها او ظواهرها ؟ فالتشابهات هي غير الدالات نصاً او ظاهراً ، حيث يشته المرادات فيها بغيرها فيتخير الناظر إليها حتى يستفسرها بمحكماتها ؟ .

وهذا قصور في دلالة التشابهات ، فهو - إذا - فت في عضد الفصاحة ، وثلم في جانب البلاغة ، وتختلف عن واضح البيان وناصع البرهان ، والقرآن هو أبين بيان وأوضح برهان ! .

في الحق إن التشابه هنا ليس تشابهاً دلالياً بل هو تشابه مدلولي يختلف علو المعنى عقلياً او علمياً او معرفياً رغم واضح الدلالة لغوياً وادبياً ، وآخر هو من مخلفات لفظية التشابه لغوياً والمعنى مختلف كما تشابه صفات إلهية بصفات خلقية باختلاف المعاني خلقياً وخالقياً ، فلا تشابه إلا قضية قصور المستدل الخاوي عن

همة معرفية دون الدال البالغ أعلى القمم الدلالية ، فلا تجد في القرآن ، ولا مرة يتيمة ، يراد من نص خلاف نصّه ، او من ظاهر مستقر خلاف ظاهره ، فإنما هو تشابه في الفاظ هي حكمة المعاني ومحكماتها لأهلها ، وعلو في المعاني لا بد لتفهمها من علو يناسبه في المعرفة .

وحين نقسم محتملات الأقسام للتشابه - أي كان - في القرآن ، نجد اثنين وأربعين محتملاً بضرب سبع في سبع .

فقد يتشابه المعنى من آية بغير المعنى منها لقصور في التعبير ، اجمالاً او ابهاماً ام قصداً لخلاف النص او الظاهر ، وهذا خارج عن المعنى من « آخر متشابهات » فتسقط سبع من المحتملات .

أم ان الدلالة واضحة نصاً أم ظهوراً مستقراً ولكن اللفظ يتشابه مع مثله خلقياً وخالقياً ، وهذا تشابه مدلولي لفظياً وليس دلالياً لغوياً .

وفي ذلك التشابه قد يكون تشابه معنوي في المعنى من الآية ، عقلياً او علمياً او معرفياً او حسياً او واقعياً ، وهي مضافة الى الأول ست تضرب في ست فالمحتملات الصحيحة - اذاً - ست وثلاثون ، تترك مكرراتها والبقية الباقية صالحة .

ومن التشابه الواقعي ان المحكمة المنسوخة تتشابه المحكمة غير المنسوخة ، فيزول تشابهها بالناسخة ، كما التشابه علمياً وعقلياً ومعرفياً وحسياً يزول سناداً الى المحكم في هذه الأربع دلالة من نفس الآية وسائر المحكمات التي هي في مغزاها ومرماها .

فالمحور الاصيل في « آخر متشابهات » هي المتشابهات لفظياً اذ ترجع الى محكمات فيزول بذلك تشابهاتها ، واما سائر التشابه فهو زائل بنفس الآية

الصريحة او الظاهرة في خلافها علمياً او عقلياً او حسياً ، اللهم إلا تشابه النسخ
فلا يزول الا بالرجوع الى الآيات التي بالامكان نسخها اياها فيؤكد انها محكمة
او منسوخة .

فهنا صفات وافعال تختص بالله فلا تشابه فيها على اية حال ، وهناك
أخرى تختص بمن سوى الله فكذلك الأمر .

ثم هنالك ثالثة هي مشتركة لفظياً بين الله وخلقه ، متباينة معنوياً
وواقعياً ، كالشيئية والوجود والعلم والقدرة والسمع والبصر واليد والقدم
والمجيء وما أشبه ، ففيها وفي اضرابها يشبه المعنى على الجاهل به ، استجراراً
لمعانيها في المخلوقين الى الخالق سبحانه ، او استجراراً لمعانيها في الخالق الى
المخلوقين .

ومن أسهل السبل في تفسيرها إرجاعها الى محكمات قرآنية كـ « ليس
كمثله شيء » و « هو بكل شيء محيط » و « لا تدركه الأبصار وهو يدرك
الأبصار » واضرابها من محكمات... أو محكمات عقلية او علمية ام معرفية متزودة
من محكمات قرآنية أماميها ، يزول بها ذلك التشابه العارم الناتج عن قصور
العقلية الإيمانية او العلمية دون أي قصور دلالي في لغة القرآن^(١) .

فالمتشابهات القرآنية في الأكثرية الساحقة هي في أسماء الله وصفاته وأفعاله

(١) مثلاً على التشابه العلمي آيات حركات الأرض كآيات الكفات والرافعة والذلول والجبال الأوتاد
واضرابها ، حيث الألفاظ لا تشابه فيها ، وإنما العلم غير البالغ زمن نزولها يعمل في تشابه بين حق
المعنى وباطله ، فالعلم يرجح باطله وهو سكوت الأرض ، والنص يرجح حقه وهو حركات
الأرض ، فيحمل النص - قضية العلم أو الحس الخاطيء - على غير النص ، وهكذا العقل غير
الناضج ، حيث يعقل أمراً بقصوره فيعتقد ثم الآية الصريحة او الظاهرة في خلافه يُظن أنها
متشابهة قد يرجح حكم العقل عليها فتزول على خلافها .

حيث يؤتى بها في لغات مشتركة الاستعمال بينه وبين خلقه ، فلا بد من تجريدها عن المعاني الخلقية عن بكرتها ، والإبقاء على المعاني الخالقية ، وذلك هو المعنى من تسبيحه سبحانه بحمده ، ان نزهه فيها بحمده بألفاظ متشابهة عما لا يليق بساحته ، ولا سبيل للتعريف بصفاته سبحانه - المشتركة لفظياً بصفات خلقه - إلا استعمال نفس الالفاظ المشتركة ، ثم علينا تجريدها عن معانيها في الخلق .

ومهما كان القرآن كله فرقاناً لأهله ، ولكن المحكمات البينات في أنفسها هي فرقان للمتشابهات^(١) تفرق المعنيات الإلهية بمشتركات الالفاظ ، عن المعنيات الخلقية ام أية تشابهات في سائر الحقول العقلية والعلمية أماهيه، ومما لا ريب فيه ان الآيات الأحكامية - كقدر معلوم من القرآن - هي من الفرقان المحكم^(٢) .

ولا يعني إحكامها عدم الحاجة الى التدبر فيها وتفسير بعضها ببعض ، بل يعني عدم التشابه مدلولياً إذ لا تشابه فيها لفظياً ، مهما كانت عميقة المعاني ، غالية المعالي .

إذا فـ « المحكم ما يعمل به والمتشابه الذي شبه بعضه بعضاً »^(٣)

(١) في الكافي عن ابن سنان عن ذكره قال سألت أبا عبد الله (ع) عن القرآن والفرقان أمهما شيئان أو شيء واحد ؟ قال : القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به ، وفيه عن القمي بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) : الفرقان كل امر محكم ، وروى العياشي عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله (ع) عن القرآن الفرقان ؟ قال : القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون والفرقان المحكم الذي يعمل به وكل محكم فهو الفرقان .

(٢) الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج البخاري في تاريخ بغداد بسند أن النبي (ص) قال في خطبته : أيها الناس قد بين الله لكم في محكم كتابه ما أحل لكم وما حرم عليكم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وآمنوا بمتشابهه وأعملوا بمحكمه واعتبروا بأمثاله .

(٣) العياشي عن أبي محمد الهمداني عن رجل عن أبي عبد الله (ع) .

فـ « المتشابه ما اشتبه على جاهله »^(١) وكون المنسوخات من التشابهات كما في مستفيضة تعميم للمتشابه المدلولي الى التشابه تكليفيًا ، حيث الجاهل بالمنسوخ يحسبه - على الدلالة المحكمة - أنه حكم ثابت لا جَوَل عنه .

وحق القول في التشابه - هو ككل - تشابه غير المراد بالمراد ، تشابهًا عقليًا او علميًا او معنويًا او واقعيًا ، والآخر هو تشابه المنسوخ ، وقبله تشابه الاسماء والصفات الالهية ، والأولان هما في حقول القصور في العلوم والعقول وكما يروى « إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن »^(٢) مهما فسرهما محكماتها ، او هي محكمات مدلوليًا ، إلا ان قاصر العقل والعلم قد يهيم تأويلها الى ما يوافقهما كالأيات الصريحة في حركات الأرض ودورانها أما شابهها من آيات تحمل معارف غامضة عقليًا او علميًا .

فالمحكمات - إذاً - هي غير المنسوخات ، ولا التشابهات معنويًا ولا علميًا ولا عقليًا ولا معرفيًا ولا حسيًا ، فهما مختلفان حسب الاستعدادات والقدرات العقلية والإيمانية والعقيدية ، دون ان تكون آيات محكمات في خمسة الجهات لكل ، وما سواها متشابهات لهم .

فكم من آية هي محكمة لمفسر عنها متشابهة لآخر ، أم هي محكمة في بعض ألفاظها متشابهة في الأخرى ، كما ومنها ما هي محكمة واقعيًا اذ لم تنسخ ، ولكنها متشابهة لفظيًا ، أو محكمة لفظيًا ومتشابهة عقليًا أو علميًا أو معرفيًا ، وهكذا الأمر في اضرابها من إحكامات وتشابهات في أربعة الجهات .

(١) العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه (ع) وفي الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله (ص) قال - إلى أن قال - : فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فأمنوا به .

(٢) كما في الدر المنثور عن أبي عباس رحمه الله .

ذلك ما تهدي له آية التقسيم وروايات تفسيرها كما هي ، فسائر التعاريف - إذا - بين قاصرة ومقصرة ، مفرطة أو مفرطة ، أو أنها من التفاسير الجانبية غير المحلقة على مربعة الجهات في المحكمات والمتشابهات .

ومن أغربها ان المحكمات هي الحروف المقطعة وغيرها متشابهات ! معاكسة صريحة للدلول آية التقسيم ، فإنها احق ان تكون من المتشابهات ، بل هي من أعضائها ، وهي اوفق الظروف الملتوية للتأويلات : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

وإذا كانت غير الحروف المقطعة متشابهات ككل ، والمقطعة هي من اغمض المتشابهات ، إذا فإين القرآن البيان ، وكيف واجب التدبر في القرآن ؟ .

هذا ! وقد يصح القول ان الحروف المقطعة لا هي من المحكمات ولا المتشابهات ، فانها لا تدل وضوحاً على معنى ، فلا مداليل لها فضلاً عن كونها محكمات .

ولئن أدخلناها في المتشابهات فهي من أوغلها في التشابه حيث لا تفسر بمحكمات في القرآن ، فقد يصبح القرآن محكماً كله - كما عند أهله الذين يعيشونه معرفياً علمياً وعملياً حياتهم - يصبح محكماً في حقل التفسير - ككل - مهما بقي متشابهاً في ساحة التأويل ، ولكن الحروف المقطعة لا تفسر لها ولا تأويل إلا لأهله الخصوص وهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذووه المعصومون (عليهم السلام) فالمتدبرون في القرآن حقّه ، الراجعون في تفسير متشابهاته الى محكماته سلباً ناصعاً ، وفوقهم الرافعون ستار التشابه بالقمة العقلية والعلمية والإيمانية ، هم لا متشابه لهم في أي القرآن في ساحة التفسير ، مهما تعاضل عليهم أمر التأويل ، فلإن أهله الخصوص ايضاً لا تحليق لهم في

تأويله كله ، فضلاً عما دونهم ١ .

٦ وكيف تكون المحكمات أم الكتاب دون أمهات الكتاب ؟ .

حيث الأم هنا هي الأصل الذي يرجع إليه ويعتمد عليه في حاجيات الطفولة ، فالمتشابهات بحاجة إليها في تبين معضلاتها وإزاحة التشابهات عنها وليست كل واحدة من المحكمات بانفرادها أمّا لكل المتشابهات ، بل هي باجمعهما أمّ لها بأجمعها ، جمعاً أمام جمع ، فهي - إذاً - أم واحدة للمتشابهات مهما كانت كلّ من المحكمات أمّا لما تناسبها من متشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها وتستثير دفينها ، كما وهي أم لمحكمات من اضربها حيث الكتاب تعمه كلّ ما يحتاج المستفسر في تبيانه الى بيان يفسر .

وهكذا تكون الفاتحة أم الكتاب ككل ، لأنها إجمالة بجملتها عن تفصيل الكتاب ، مهما كانت كل من سبعا المثاني أمّا لفصيل من التفصيل .

كما وان « ابن مريم وأمة آية » دون آيتين ، لأن آية كلّ لزام آية الأخرى خارقة في الولادة ، فابن مريم آية ولادة عنها دون والد ، ومريم آية توليداً له دون والد ، فهما - إذاً - آية واحدة وهكذا : « جعلنا ابن مريم وأمة آية . . » تتلاقى منهما في فاقد الصلب المتعود في الولادة ، وهما فيه مشتركان .

٧ إتباع المتشابه - المذموم الضائق - هو اتباعه على تشابهه دون إرجاع صالح إلى محكمة تحميلاً وانما لتهوسات الآراء على المتشابه دون رجوع إلى ركن وثيق ، ولا لجوء إلى برهان رفيق دقيق ، فان اتباعه على تشابهه دون تفسير صالح ولا طالع غير ممكن ، وانما يتبع المعنى الثابت صالحاً وغير صالح ، وهذا هو الذي يثير الفتنة علمياً وعملياً وعقيدياً ، واما اتباع المتشابه بعد إرجاعه الى محكمه فليس اتباعاً للمتشابه حتى يحظر عليه ، ثم وفي اتباع المتشابه هكذا واقع رائع زائف في بعدين اثنين هما :

١ ابتغاء الفتنة و٢ ابتغاء تأويله ، هما ظاهرتان من زيغ القلب وتقلبه عن ناصع الحق وناصحه الى ناعق الباطل وفاضحه ، وفي ثالث : الزيغ وابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل ، يبرز في المسرح كل ادغال وتدجيل ، استدلالاً بالكتاب ضده لصالح الأهواء والأباطيل .

ففي اتباع المتشابه على تشابهه فتنة في كل الحقول ، وفي ابتغاء تأويله إلى ما تهواه الأنفس فتنة على فتنة ، فان ذلك التأويل عليل حيث الأصل الذي يتبناه - وهو اتباع المتشابه - عليل ، فلا يروّي الغليل ولا يبصر الكليل ، رغم ان القرآن شفاء لما في الصدور ورحمة لذات الصدور : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » ومنهم - كأنحسهم - هم الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

ذلك هو الإتياع المرفوض لما تشابه منه ، دون تفسيره بحكمه ام اياً كان من صالح التفسير استنطاقاً للآيات بنظائرها ، ودخولاً في حقولها وحفظائرها من ابوابها دون ظهورها .

اجل و« من رد متشابه القرآن إلى محكمه هذي إلى صراط مستقيم .. وإن في اخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا » (١) ، ودون ان يؤمن بها على تشابهها لمن لا يستطيع على رجوعها الى محكمها .

و« ما تشابه منه » قد يعم المتشابه في نفسه ، الى ما جعل متشابهها رغم إحكامه ، ثم تحميل ما يتحمل عليه ، وهو من انحس الإتياع لما تشابه منه

(١) عيون الاخبار حدثني أبي قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي حمزة مولى الرضا (ع) عنه (ع) قال : ..

ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وليس ضرب القرآن بعضه ببعض - المنذد به في المأثور - إلا ضرب التضارب ، دون ذلك التفسير التقارب ، فكل تفسير ينتج تضارباً بين الآيات هو من ضرب القرآن بعضه ببعض ضرب الدّقل ، وكل ما ينتج تقارباً بينها دون تحميل عليها إلا ما تتحمّله ، فهو من صالح التفسير ، وهو تفسير القرآن بعضه ببعض « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »

فهنا تفسير لفظي للقرآن متشابهاً وغير متشابه ، ثم تفسير باطني لهما ، ومن ثم تأويل ، ولا بد لكلّ من دليل ، فمفسر المتشابه لفظياً دون دليل ، ثم تأويلياً دون دليل ، انه جامع زيغاً على زيغ وفتنة على فتنة ، حيث التأويل كله في نفسه متشابه لانه غير مسنود الى لفظ متشابه أو محكم ، بل هو الأول معنوياً الى مبدء او نتيجة ، فهو مخصوص بمن يحيط علماً بمبادئ القرآن ونتائجه .

فكل اتباع للمتشابه - على تشابهه - هو من زيغ القلب ، ثم اتباع المحكم ذاتياً ام بعد الرجوع الى المحكم هو من استقامة القلب ، شرط عدم تحميل الآراء الجارفة عليها على إحكامها .

فقد يُجعل المحكم متشابهاً ثم يُحمل عليه رأي مزيف ، وذلك من اتباع المتشابه رغم إحكامه ، او يُجعل المتشابه متبّعاً على تشابهه بنفس التحميل ، فذلك الأمر .

وأما ان يُتبع المحكم على إحكامه ، او يتبع المتشابه بعد قلبه محكماً - إتباعاً في مثلث العلم والعقيدة والعمل - يتبع المتشابه إيماناً دون تفسير : « آمنا به كل من عند ربنا » فذلك هو الرسوخ في العلم على درجاته .

إن تأويل المتشابه - إيضاحاً لمعناه - يختص بالله ، حيث المحكمات تفسر المتشابهات ، كما ان تأويل القرآن - ككل - يختص بالله فانه الذي يعلم من

التأويل من هو اهله كالراسخين في العلم بمختلف درجاتهم .

وعلى أية حال فكل تأويل - لانه خارج عن مدلول اللفظ وراجع الى غامض المعنى - إنه يحتاج إلى دليل من صاحب المعنى ، قد يبينه في سائر كلامه كالمحكّمات بالنسبة للمتشابهات ، فهو عام لأهل القرآن الخصوص ككل .

أم يبيّنه بإلهام أو وحي وهما يختصان بأصحابها الخصوص ، أم لا يبيّنه إلّا يوم القيامة ، أم ليس ليبيّنه اطلاقاً وهو التأويل المخصوص بعلم الله تعالى شأنه .

ففي مربع التأويل نجده واقعاً غيبياً مرتبطاً بالمعنى المفهوم من القرآن ، لا يعلمه إلا الله ، أم والراسخون في العلم بتعليم الله .

وبالنظر الدقيق الى آيات التأويل نعرف مدى صدق هذا البيان ، فلا نجد فيها ولا أية إشارة الى تأويل الألفاظ كما يعرفون بما لا يعرفون ، بل هو مثلث التأويل في النشآت الثلاث الأولى والبرزخ والوسطى ، تأويلاً علمياً او واقعياً .

فتأويل كل ما فعله خضر لم يكن تأويلاً لكلام إذ لم يكن منه فيما اختلفا إلّا العمل ، إرجاعاً له الى ماخذ او نتيجة لا يظهران في مظهر الأعمال .

وتأويل الرؤيا ليوسف هو ارجاعها الى واقعات لا تظهر من هذه الرؤي إلا لمن علم علم التأويل .

وتأويل القرآن ، بروزاً له في حقوله يوم القيامة ليس إلا للحاضر يوم القيامة « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » (١٠ : ٢٩) - « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأت تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ... » (٧ : ٥٢) .

إذا فعلم التأويل ككل هو من علم الغيب المخصوص بتعليمه بالله ،

وليس ليُعلم من نص الدلالة اللفظية او ظاهرها ، وانما يتبنى المعنى تدليلاً من الله وهو يهدي السبيل .

والتأويل - في قول فصل - من الأول ، فهو الإرجاع ، ارجاع معنى الآية الى واقع مجهول اياً كان ، تخطياً عن المعلوم ، وليس تفسير النص او الظاهر الى خلافهما تأويلاً إلا في اصطلاح مستحدث لا أصل له لغوياً ولا قرآنياً .

وللتأويل مآلات ثلاث لا يعول - فيما يؤل اليها - إلا بدليل قاطع ، فانه من اوصاف المعنى - الخفية - دون اللفظ ، فلا يُرجع اللفظ إلا إلى معناه المنصوص او الظاهر ، ثم ليس لتأويل المعنى إلى واحدة من الثلاثة أي دليل من اللفظ او المعنى

إذاً فكل متشابه له تأويلان اثنان ، تأويل للمعنى الى واقع المراد ، وتأويل له الى واحدة من الثلاثة ، فالأول ميسور لاهله ارجاعاً للمتشابه الى محكمه ام تدبراً في نفس المتشابه ليزول عنه تشابهه ، والثاني غير ميسور إلا لمن علمه الله .

وللمحكم تأويل واحد هو الثاني ، وما يعلم تأويله ، راجع الى الثاني لكل محكم او متشابه .

ومن اقرب التأويلات لمحكمات او متشابهات هو واقع الأثر لمثلث العلم والعقيدة والعمل بالقرآن في حياة التكليف وقد كشفت عنه النقاب آيات انعكاس الأعمال علمياً وللمتقين عينياً .

ثم التأويل المأخذ ربانياً ، والمآل في الأخرى ربانياً ، هما مجهولان إلا لمن عرفه الله وعلمه .

فما يعلمه الله صالح عباده المرسلين تأويل الأحكام ، قدر ما يُقدرهم على استنباط جزئيات الأحكام من مصادرها الربانية .

ومما لا يعلمه تأويل الحقائق المحكية عنها بالقرآن ، قدر ما عند الله ، فانه مخصوص بالله ، ولا يخص تأويل القرآن بمتشابهه بل ويعم محكمه ، مهما كان الأول أعضل .

وزيغ القلب هنا لا يعني زيغه في كل الحقول لمكان « زيغ » منكراً ، الشاملة لكل زيغ ، فقد يزيغ علماً دون زيغ في ايمان ، ام يزيغ ايماناً وليس له علم حتى يزيغ ، او يزيغ علماً وايماناً فواويلاه ، وثالث هذا الثالث هو رأس الزاوية في الزيغ الذي يسبب كل فتنة في اتباع المتشابه والتأويل .

٩ وجه اشتغال الكتاب على متشابهات بجانب المحكمات موجه في معنى التشابه والإحكام كما بيناه ، فليس التشابه امراً قاصداً في قصور دلالي واجمال متعمد حتى ينافي بيان القرآن ، بل هو كاصل مما لا بد منه في عرض المعارف الإلهية ذاتاً وصفات وافعالاً، وفي عرض المنسوخ كما الناسخ ، وهو كهامش على ذلك الاصل طبيعة الحال في مختلف الإدراكات والاستعدادات لحد تصبغ آية محكمة عند جماعة متشابهة عند آخرين ، حيث التشابه - في أوضح تعريف به - ما اشتهه علمه على جاهله ، والتشابه في كل حقوله هو لزام الكتب العلمية على الإطلاق ، فضلاً عن القرآن الذي يحمل كل ما تحتاجه البشرية الى يوم القيامة - إلا ما بالامكان ان يحصل عليه - ففي حقل التشريع الكافل لكافة الحاجات يستحيل عدم التشابه لكافة المكلفين قضية اختلاف الفاعليات والقاليات والاستعدادات في تفهم الكلام .

والمشكلة العويصة انما هي المتشابهات التي لا تفسير لها حكياً صالحاً ولا نجد هكذا التشابه في القرآن عن بكرته ، فان لكل متشابهة من آياته محكماً قد تكون هي نفس المتشابهات بامعان النظر وإجالة الفكر ، اللهم إلا المتشابهات التأويلية التي ليس على اهل القرآن تأويلها ، لانه راجع الى الراسخين في

العلم ، أم لا يعلمه إلا الله حيث يختص علمه بالله .

١٠ وأما الراسخون في العلم وموقفهم من علم التأويل ايجابياً وسلبياً ، فلأن الرسوخ في شيء هو التمكن فيه بلا تزعزع وتزلزل تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّانة ، فالراسخون في العلم - إذاً - هم المتمكنون فيه الذين لا يختلفون في علمهم ولا يتخلفون .

والعلم يعم علم المعرفة وعلم العقيدة وعلم الايمان والأخير أثبت مهما كان الأولان من أثاره وأساسه ، فقد يثبت الراسخ في علم المعرفة والعقيدة ولا ثبوت له في علم الايمان والثابت في علم الايمان ثابت - لا محالة - في علم المعرفة العقيدة على أية حال .

ومن الأولين-وهم الأدنون في صنف الراسخين-علماء اهل الكتاب دون المعصومين : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من من قبلك » (٤ : ١٦١) فانهم من الذين هادوا ، هوداً ورجوعاً إلى الايمان بالله علماً وعملاً صالحاً بعد سؤال الرؤية جهلاً وعملاً طالحاً ، وساحة العصمة القدسية براءً من الجهل والجهالة على أية حال ، فهم من دون المعصومين (عليهم السلام) .

والراسخون في العلم في آية التقسيم قد يشمل الأولين على هامش الآخرين ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المعصومون (عليهم السلام) هم أفضل الآخرين ، كما ان الأولياء دون المعصومين هم أفضل الأولين ، فليس « الراسخون في العلم » هنا ليختص بالآخرين فضلاً عن أفضلهم (١) .

(١) الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة ووائل بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله (ص) سئل عن الراسخين في العلم فقال : « من برت بميته وصلق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم » .

والتفسير بهم ليس إلا من جري التأويل لأصدق مصاديقهم في العلم والایمان ، و « العلم » هنا بمناسبة المورد هو العلم بالقرآن ، وهو بصورة طليقة لائقة طليق العلم به في مثله : معرفة وعقيدة وإيماناً قلبياً ، وكل منها قد تكفي للخروج عن « زيف » الذي يدفع إلى اتباع المتشابه ، مهما كان الزيف في العلم قد يدفع الى اتباع المتشابه كزيف العقيدة والایمان ، فلا بد إذاً من رسوخ في الايمان كأصل ، ومن ثم رسوخ في العقيدة التي هي لزام الايمان ، ورسوخ في علم المعرفة .

وأفضل الراسخين في العلم هو افضلهم في هذه الثلاث ، ثم الراسخ في علم الايمان - على مراتبه - ومن ثم الراسخ في المعرفة - على مراتبها ^(١) .

ومما يشعرنا أن أصل العلم هنا هو الايمان وإنما يخشى الله من عباده العلماء حيث الخشية هي من مخلفات الايمان قدره ، فقد يكون عالماً عقلياً ومعرفياً وليس له ذلك العلم الايمان الذي يخشى به الله ، فهو - إذاً - العلم الخاشي .

ثم الواو في « إلا الله والراسخون في العلم » كما تتحمل العطف ، انهم يعلمون تأويله كما الله مهما اختلفت الدرجات ، كذلك الاستئناف ، انهم لا يعلمون تأويله كله ، فما علموا منه فهو ، وما جهلوا منه اعترفوا بجهلهم والایمان به كما علموا منه كما في العلوي (عليه السلام) حيث سأله رجل هل تصف لنا ربك نزدده حباً ومعرفة فغضب (عليه السلام) وخطب الناس فقال فيما قال : عليك يا عبدالله بما ذلك عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسول

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام ، وفي النبوي (ص) أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعلم أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب (الدر المنثور أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : (...) .

(صلى الله عليه وآله وسلم) من معرفته فأتى به واستضىء بنور هدايته فلما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة الهداة أثره فكل علمه إلى الله ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من المالكين وإعلم يا عبدالله ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الإقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كل من عند ربنا فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمى تركهم التعمق فيها لم يكلفهم البحث عنه (عن كهنه) منهم رسوخاً (١) .

فصل القول هنا في الراسخين في العلم انهم يعلمون من تأويل القرآن ما علمهم الله دون من سواهم ، ويجهلون ما اختص الله بعلمه من التأويل ، ومما يعلمونه تأويل الأحكام تأويل المبدء والختم ، فلم في تأويل مبادئ الأحكام استنباط غير المنصوص في القرآن منبأداً إلى تأويل المنصوص ، وليس لغير المعصومين ذلك التأويل اللهم إلا القليل الذي له دليل او العليل الذي لا يروى الغليل .

فالمنزلة الوسطى والطريقة المثل في موقف الراسخين في العلم من علم التأويل هي ألا يخرجوا من علم التأويل جملة ، ولا يدخلوا فيه جملة ، بل هم عوان بينهما ، يعلمون منه ما علمهم الله من واجب المعرفة الواجبة لائمة الأمة ، ولا يعلمون ما اختص الله بعلمه .

(١) في النهج والاحتجاج في كلام لعل (ع) في ذم القضاء السوء - إلى أن قال - : وذكر أن الكتاب يصلق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه - فلذكر الآية ثم قال : - وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تحصى عجائبه ولا تنفسي غرائب ولا تكشف الظلمات إلا به .

والمستفيضة في حصر الراسخين في العلم في المعصومين تعني أفضلهم وأعلامهم ، كالتي تخلق لهم علم التأويل حيث تعني غير ما اختص الله بعلمه منه (١) .

إذاً فحصر الوقف عند اسم الله تعالى باستئناف « والراسخون في العلم » إخراج لهم عن ان يعلموا شيئاً من التأويل من جليل أو قليل ، إطلاعاً لطلعه واستنباطاً لغامضه ووامضه واستخراجاً لكوامنه ، خطأ لهم بذلك عن رتبة استحقاق الإيفاء عليها وإطلاع شرفها ، فان الله تعالى قد اعطاهم من نهج السبيل وضياء الدليل ما يفتحون به المبهم ويصدعون به الظلم ، امتيازاً لهم كقادة عن سائر الأمة مقودين ، وعلمهم بقسم من ذلك التأويل مستمد من علم الله ، فلا معنى للوقوف بهم دون منزلتهم ، والإحجام عن إيصالهم الى أقصى هذه المنزلة السامية .

ثم الوقف عند « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » توفية للإستثناء حقه بإدخال المعصومين فيه ، منزلة لهم عن سواهم بعلم من التأويل ، معرفة بمداخله ومخارجه ، وسلوكاً لمحاجه ومناهجه المباحج .

والمنزلة العوان - الوسطى - بين المنزلتين هي اللائقة بهم ، اللابقة لهم ، تنزيلاً لهم عن ساحة العلم بالتأويل ككل مساماة لله وعوداً بالله ، وترفعاً لهم عن قاعة الجهل به ككل مساماة لسائر الأمة وعوداً بالله .

فحصالة القول هنا وأصالتها انه « وما يعلم تأويله إلا الله » لا سواء ، حيث يراد تأويله كله بأسره دون إبقاء ، فإن معرفة كنه الذات والصفات

(١) في نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام): اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً ويغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرّمهم وأدخلنا وأخرجهم .

والأفعال الربانية وعلم الساعة وما أشبه خاصة بالله .

كما انه « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » بفارق انهم لا يعلمون كل التأويل ويقولون آمنا به كل من عند ربنا» هو من الدليل على جهلهم بقسم من التأويل، بل ما علمهم الله فانهم لم يعلموا ما علموا من التأويل إلا بما علمهم الله القدر الصالح لقيادة العصمة وعصمة القيادة^(١).

وقد يوسع نطاق « الراسخون في العلم » تقابلهم بـ « الذين في قلوبهم زيغ » فكما الزيغ دركات كذلك الرسوخ في العلم درجات .

وكما ان افضل الراسخين هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) كذلك أرذل الزائغين هم الذين جعلوا القرآن عضيضين ، يعطفون القرآن على الرأي حين يعطف هؤلاء الرأي على القرآن ، ويعطفون الهدى على الهوى حين تعطف الهدى على الهوى .

فكل تفسير او تأويل للقرآن بعيد عن جادة الصواب هو من زيغ القلب ، كما ان صالح التفسير والسكوت عما لا يعلم من تفسير او تأويل ، ذلك من الرسوخ في العلم .

^{١١} ولا ينحص التأويل هنا تأويل ما تشابه منه بل والمحكمات ، حيث التأويل يعني المأخذ بدائياً والمآل نهائياً ، ولقد فصلنا القول فيه في مدخل التفسير

(١) الدر المنثور ٢ : ٦ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعلم أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب .

فلا نعيد ، والجدير بالذكر هنا أن للمتشابه تأويلين وللمحكم تأويل واحد ، مهما كان لكل بطون .

١٢ كما وقد سبق البيان في الفارق بين التأويل وتفسير المتشابه .

ويا للراسخين في العلم من خنوع وخنوع في جنب الله في دعاء السلب والإيجاب :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾

وترى أن إزاحة القلب هي من الله ولا سيما بعد إذ هدى ، وخاصة بالنسبة للراسخين في العلم ؟ إنها من العبد حين يزيع فيزيغ الله قلبه : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وان كان بعد إذ هدى ، وأما الراسخون في العلم فدعاء السلب لهم تعني أنهم لا يملكون في أنفسهم هدى لولا تثبيت من الله : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » لا سيما وأن الراسخين هنا تشمل مع المعصومين سواهم ، الذ ينهم في خطر الزيغ من انفسهم فالإزاحة من الله .

فقد تعني هذه الدعاء لهم ككل : آدم لنا الطافك وعصمتك وهداك ولا تكلنا إلى انفسنا طرفة عين أبداً ، ولا تبتلنا بأمرٍ أمرٍ يثقل علينا القيام به والخروج اليك من حقه فتزيغ له قلوبنا ، فهي - إذاً - كمثل « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » (٢ : ٢٨٦) .

وقد تعني الإزاحة ترك التوفيق عن زيادات الهدى بنقصان الإهداء « والذين اهتموا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » فقد سألوه - إذاً - ان يلفظ لهم بكثرة الخواطر وقوة الزواجر في فعل الإيمان حتى يقيموا عليه طيلة أعمارهم ولا

يتركوه في مستقبلهم فيستحقوا بتركه وفعل الكفر - بدلاً منه - أن يزيغ الله تعالى قلوبهم عن الثواب ، فاعلاً بهم مستحق العقاب .

وقد تعني - لا سيما بالنسبة للمعصومين - خضوعهم واستكانتهم بلإنابتهم إلى الله على أن ترك الازاغة حاصل لهم لرسوخهم في العلم ، فهي كما قال رب احكم بالحق ، وهو ليس ليحكم إلا بالحق .

وإنما اختص القلب من بين الجوانح والجوارح بتلك الدعاء لأنه شريف الأعضاء جانحة وجارحة ، فانه قلب الروح وهي عماله وتحت إمرته ، فإذا اهتدى القلب اهتدت ، وإذا زاغ زاغت واحتدت^(١) .

« هب لنا من لدنك رحمة » رحمة خاصة لدنية تعصمنا عن الزيغ ايأكان من دركاته ، حيث الرحمة تعني كل درجاتها « إنك انت الوهاب » .

وإنما تطلبوا ايجاب الرحمة بعد سلب الزيغ لأن هذا السلب لا يغني عن ذلك الايجاب ، فقد يكون عواناً بين سلب الزيغ وايجاب الرحمة فهو من المستضعفين الضالين ، كما الزائغون من غير المغضوب عليهم والمرحومون هم من المهتدين الى الصراط المستقيم ، فلذلك ثني هنا الايجاب بعد السلب تكملة للهدى .

(١) الدر المنثور ٢ : ٨ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن رسول الله (ص) كان يكثر في دعائه أن يقول : اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت يا رسول الله (ص) إن القلوب لتقلب ؟ قال : نعم ما من خلق الله من بشر من بني آدم إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فإن شاء الله أقامه وإن شاء أزاعه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن ييب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، قلت يا رسول الله (ص) ألا تعلمني دعوة أدعوا بها لنفسي ؟ قال بلى قولي : اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحبيتي .

فقد تنضم دعاء السلب والایجاب هذه من الراسخين في العلم في خضم كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » حيث التعلق بكل ما سوى الله زيغ ، والتعلق بالله هدى ورسوخ في العلم وبينهما عوان .

او يقال هناك زيغ في القلوب وهنا رسوخ في العلم وبينهما عوان لم يذكر وهو القلب السليم غير الراسخ فيه العلم ، فلا هو يفسر المتشابهات زائغاً ولا هو يعلم تفسيراً أو تأويلاً صالحاً ، كالعوام من المؤمنين الذين لا يفهمون القرآن .

ومن اتباع المتشابه الجدل والمراء فيه ونثر الدقل تأولاً له على غير تأويله وتراجعاً فيه ضرباً لبعضه ببعض ، كما يروى متظافراً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥ - أخرج جماعة عن عائشة قالت : تلا رسول الله (ص) « هو الذي أنزل عليك الكتاب . . . » فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم - ولفظ البخاري - : فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم - وفي لفظ لابن جرير - إضافة : والذين يجادلون فيه ، وفيه عنه (ص) قال : إن في أمي قوماً يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله ، وأنه خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب فقال : بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض - قال - : وأن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فامنوا به ، وفيه أخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي (ص) قال لعبد الله بن مسعود أن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد وأن القرآن نزل من سبعة أحرف حلال وحرام ومحكم ومتشابه وضرب أمثال وأمر وزاجر فأحل حلاله وحرم حرامه وأعمل بمحكمه وقف عند متشابهه واعتبر مثاله فإن كلاً من عند الله وما يتذكر إلا أولوا الألباب ، وفيه أخرج ابن جرير ونصر المقدسي في الحجة عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : نزل القرآن على سبعة أحرف المراء في القرآن كفر ما عرفتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه .

وفيه عن ابن عباس قال : إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف غوى أخبار وأمثال وحرام وحلال وناسخ -

وزيغ القلب يعم جانب الايمان الى جانب العلم والعقل ، فكل ضيق
للانسان يتطلب ضيقاً في فهم القرآن .

نظرة ثانية إلى آية التقسيم :

« هو الذي . . » تحصر إنزال الكتاب ككل في الوحي ، فليؤمن المؤمن به
كله - بما لا يفهمه إلى ما يفهمه - دون تقحم في التشابه ما لم يجد لتأويله صالح
السييل ، أو وفي محكمه صالح التأويل .

ومهما اشتمل القرآن على متشابهات على ضوء المحكمات ، فالأصول

= ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظاهر وبطن فظهره التلاوة ويطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به
السفهاء ولياكم وزلة العالم .

وفي نور الثقلين ١ : ١٣٣ في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه : ثم إن
الله جل ذكره لسعة رحته ورافقة بخلقه وحلمه بما يجد المبتطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة
أقسام فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح
تمييزه عن شرح الله صدره للإسلام وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبياءه والراسخون في العلم وإنما فعل
ذلك لثلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله (ص) من علم الكتاب ما لم يجعله
الله لهم وليقودهم الإضطراب إلى الإتيار لمن ولاه أمرهم فاستكبروا عن طاعة تعزراً وافترأ على الله
واغتراراً بكثرة من ظاهروهم وعاونهم وعاند الله جل اسمه ورسوله (ص) .

وفي تفسير العياشي عن سباعة بن مهران قال قال أبو عبد الله (ع) : أكثروا من أن تقولوا « ربنا لا
تزغ . . . ولا تؤمنوا الزيغ » وأصول الكافي عن هشام بن الحكم قال قال لي أبو الحسن موسى بن
جعفر عليهما السلام يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : ربنا لا تزغ . . . حين
علموا أن القلوب تزيع وتعود إلى عماها ورداها ، أنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل
عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويحد حقيقتها في قلبه ولا يكون أحد كذلك إلا من كان
قوله لفعله مصداقاً وسره لعلانيته موافقاً لأن الله لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه
وناطق عنه .

الدقيقة للعقيدة وأحكام الشريعة ككل هي من ضمن المحكمات التي لا تشابه فيها .

اجل « منه آيات محكمات هن ام الكتاب » أما للمتشابهات - لا لأنفسها ايضاً مهما كان من الكتاب - فالإضافة اذاً ليست لامية بل هي بتقدير « من » أم من الكتاب كما ان التشابهات ولدت من الكتاب والكتاب يجمعهما ، حيث يستشار بها دفائن مدلولاتها ، وأما لمبتغي المعرفة عن اصل الشريعة والشريعة الاصيلية في حقل الأصول والفروع .

ذلك - فأما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق الناصح الناصح ، وضلال عن سوي الصراط فطرياً وعقلياً وواقعياً ، هم أولاء الأنكاد يتركون الأصول الواضحة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملي والعقدي والعلمي للحياة ، ويجرون وراء التشابه الذي لا يفهم بظاهره البدائي ، يتبعونه على تشابه ، تأويلًا عليلًا كليلاً دونما اي دليل ، حيث يختلقون فيه مجالاً للفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الأفكار ، نتيجة الاقتحام فيها لا مجال لتأويله اللهم إلا لأهله ام عن سبيله الواضح « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ».

ولأن التأويل من الأول : الرجوع ، فهو الباطن مأخذاً ومرجعاً للمحكمات كما للمتشابهات ، فمن التأويل ما يعلمه من لطف فهمه وهم الأولياء ، ومنه ما يعلمه المعصومون فمنه تأويل الأحكام فانهم سناداً الى مأخذها ونتائجها يستنبطون فروعاً أخرى لا تدل عليها الفاظها .

ومنه ما لا يعلمه إلا الله كالحقايق الاصيلية - مأخذ ونتائج - للقرآن ، فان مصدره غيب عن سوى الله فلا يعلمه إلا الله ، فذلك مثلث من التأويل ولكل أهله .

ويقابلهم في تلك المواجهة المضللة « الراسخون في العلم » حيث يعتمدون على المحكمات كأصول ، ثم يقولون آمنا به كل من عند ربنا في السدد المضروبة عليهم من تأويله ، واما ارجاع التشابه الى محكمه استيضاحاً لمعناه ، ام ازالة للتشابه بالتدبر اللائق فيه ، فهما ليسا من اتباع التشابه حتى يدخلوا في زيغ التنديد ، بل هما عما امر به اهل القرآن ان يدبروا آياته فيتذكر اولوا الالباب : « كتاب انزلناه اليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب » .

« وما يذكر » ناتجة الرسوخ في العلم « إلا اولوا الالباب » دون السطحين القشريين الذين تخدعهم قشور من العلم ، فيخيّل إليهم أنهم يعلمون كل شيء ، وان لهم الاقتحام في خضم السدد المضروبة المتشابهة من علوم القرآن العظيم ، فيقابلون كلام الله المطلق المخلق على كل العقليات والفطريات والواقعات العلمية - يقابلونه بما صاغتها لهم عقولهم وعلومهم المحدودة ، ساعين لأنفسهم كل تأويل فيما تشابه منه دون اي دليل على انهم الجديرون بادراك كل غامض .

واما اولوا الالباب فهم يذكرون انهم مطلق الجهل امام علم الله المطلق ، يعتقدون كل وامض اتضح لهم بتدبر وتفكير فيعملون به ، ويؤمنون بما تشابه منه ولم يتضح لهم قائلين : « آمنا به » محكماً ومتشابهاً - متشابهاً ومحكماً « كل » منها دون فارق « من عند ربنا » « وما يذكر إلا اولوا الالباب » - « ربنا لا تزغ ... » :

نظرة ثالثة الى آية التقسيم فيها نتيجة البحث عنها بصورة مجملة :

المستفاد من آية التقسيم امور تالية :

١ تقسيم القرآن الى محكمات ومتشابهات حاصر فيما تعني دلالاته من آيات ، دون الحروف المقطعة التي هي برقيات رمزية تخص الرسول (صلى الله

عليه وآله وسلم) وذويه المعصومين ، ثم لا اجمال ولا ابهام فيما يراد دلالة محكمة ام متشابهة .

٢ ليس التشابه في المتشابهات من الناحية الدلالية فانه خلاف الفصاحة والبلاغة الساذجة فضلاً عن القمة العليا لأعلى درجات الاعجاز في القرآن ، وانما التشابه الذي يزول بالتأمل في المتشابهة او بالرجوع الى محكمها هو التشابه اللفظي كالاسماء والصفات المشتركة الإستعمال بين الله وخلقه ، ثم الواقعي كالمحكمات الاحكامية المنسوخة حيث تتشابه الثابتة غير المنسوخة .

واما التشابه المعرفي والعلمي والعقلي والحسي ، فيما يختلف النص او الظاهر المستقر مع هذه الأربع ، فليس مقصوداً في « آخر متشابهات » فانه من المحكمات لفظياً وواقعياً ولا بد من الرجوع الى نفس الآية واتباع دلالتها الظاهرة رفضاً لخلافها في هذه الحقول الأربعة .

والآيات المتشابهات بصورة عامة هي (٣٦) نسباً بضرب التشابهات الست في نفسها ، تخرج منها المكررات والبقية بين ما تضمنه الآية وما هي متشابهة من جهات أخرى .

٣ التشابه والاحكام أمران نسيبان في القرآن حسب مختلف الاستعدادات والتأملات ، فلا متشابهة اطلاقاً لأهل بيت الرسالة صلوات الله عليهم اجمعين ، وكلها متشابهة لمن لا يعرف اللغة العربية وبينهما عوان .

٤ زيغ القلوب الذي يخلف إتباع ما تشابه منه يعم الزيغ العلمي والعقلي والعقدي لمكان « زيغ » دون « الزيغ » واتباع ما تشابه منه بين مستحيل ومحذور ومحبور ، فالأول هو اتباعه على تشابهه دون تأويل صالحاً او طالحاً ، والثاني تأويله دون سناد الى دليل ، والثالث هو التأويل بصالح الدليل ، والاتباع يعم العلمي والعقدي ، والعمل فيهما فيه عمل ، فليس البقاء على التشابه دونما

تفسير اتباعاً له ، ولا اتباع ما تشابه بعد تفسيره الصحيح اتباعاً محظوراً ، وإنما المحظور هو اتباعه بتفسير وتأويل عليل دخيل .

٥ لا يعني التأويل تفسير النص أو الظاهر إلى خلافه رغم اشتهاره فانه تأويل عليل للتأويل ، انما هو الارجاع ، تأويلاً للمتشابه إلى المحكم ليزول التشابه ، ثم تأويلاً للمحكم إلى مبدئه ونتيجته هنا أم بعد الموت ، ومن التأويل ما يختص بالله ككل غيب يختص به ، ومنه ما يختص بالمعصومين كتأويل الأحكام فانهم يعرفون مناطات الأحكام بما علمهم الله بالرسول : « انا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يحكم بين الناس في كافة الحقول بما اراه الله ، اراءة خاصة له بعد عامة القرآن ، ومنها اراءة تأويلات الأحكام حتى ياهل للافتاء في كل صغيرة وكبيرة بتلك الإراء .

ومن التأويل ما يعم اهل القرآن على درجاتهم ، تأويلاً للمتشابه بنفسه ام بالرجوع إلى محكمه ، ام تأويلاً لبعض الأحكام إلى مأخذها المنصوصة بالخصوص كتاباً او سنة ، ام متلفاة منها بصورة قاطعة ، كما أخذ الإسكار للخمر حيث يعم التحريم إلى كل مسكر وان لم يكن خمرًا بالفعل ، كمن يشرب العصير الكثير ثم ينام وجاه الشمس ثم يسكر .

٦ الراسخون في العلم يعم كافة المؤمنين غير الزائغة قلوبهم مهما كانوا جهالاً لا يعلمون من القرآن حرفاً ، مهما كان افضل الراسخين في العلم هم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة المعصومون من عترته (عليهم السلام) ، وبينهما متوسطون .

والواري « والراسخون » في العلم تعني كلا العطف والإستئناف ، عطفاً للتدليل على ان منهم من يعلم جانباً من التأويل ، واستئنافاً للتدليل على

اختصاص عامة التأويل بالله والله هو الهادي الى سواء السبيل .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٩) .

فاعترافه اولى لاولى الالباب : « آمنا به كل من عند ربنا » جامعة لمثلث الإيمان بالتوحيد والنبوة وكتاب الشريعة ككل ، وهنا ثانية هي تالية التوحيد في هندسة الإيمان اياً كان : « ربنا انك ... » .

فـ « ليوم لا ريب فيه » فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً ، هو هنا يوم الجمع ، حيث يجمع فيه الناس نشراً وحشراً وحساباً وجزاءً وفاقاً ولا يظلمون فتيلاً .

وانه جمع يجمع في خضمه كل متطلبات الجزاء الوفاق لكل عامل صالحاً او طالحاً ، ناساً وغير ناس ، وما ذكر الناس هنا وفي كثير مثله إلا لانهم المحور الأساس في شرعة الله .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

ومما يؤكد ذلك الجمع « ليوم لا ريب فيه » « إن الله لا يخلف الميعاد » أفيخلفه عجزاً أم جهلاً أم تجاهلاً أم بخلاً أو ظلاً ، وساحة الربوبية براء عن كل نقص لأنه « الله » و « ان الله لا يخلف الميعاد » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ شَيْئاً وَآوَلِيكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (١٠) .

« إن الذين كفروا » بهذه الأصول الإيمانية وماتوا وهم كفار - كما تعينه « كدأب آل فرعون » في التالية - « لن تغني عنهم » يوم الجمع « أموالهم ولا أولادهم شيئاً » بعدما أغنت عنهم في حياة الإبتلاء « وأولئك هم » لا سواهم « وقود النار » حيث الكفار دركات أنزلها وأنزلها رؤوس الكفر ودعاة الضلالة

الذين هم وقود نيران الإضلال هنا ، فهم - إذاً - وقود النار هناك ، يتقَد بهم في النار هوامش الكفر المستحقين النار .

فلا وقود - إذاً - للنار إلا رؤوس الكفر والضلال ، كما لا نار هناك إلا بروزاً للمكوت الأعمال .

فهم الناس في آية الوقود - الأخرى - : « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣ : ٢٤) وهم المخاطبون في آية الحصب : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون » (٢١ : ٩٨) وهم المعنيون بآيات الصلي : « لا يصلها إلا الا شقى . الذي كذب وتولى » (٩٢ : ١٥) .

فلأن مثلث الآيات في الوقود والحصب والصلي تعني المشركين والمكذبين بآيات الله فهم - فقط - المعنيون من « الذين كفروا » هنا ومن سائر الحصب والصلي هناك وهنالك ، ثم من سواهم من الكفار يحرقون بوقودهم اللهم إلا « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » (٤ : ١٠) إذا فسائر ما يستحق به النار هي من فروع الشرك والتكذيب بآيات الله ، أعني رؤوس الزاوية في الإشراك والتكذيب .

ولأن تلك النار - ككل - تطلع على أهلها من ذواتهم بأعمالهم فليس لهم الفرار عنها إلا أن يفروا من انفسهم الشريرة ولات حين فرار ، وقد كان لهم أن يفروا منها يوم الدنيا مخالفة لأهوائهم واتباعاً لهدي الله ، ولكنهم ماتوا بنيرانهم الجهنمية فليحرقوا بها ، وذلك :

﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١١) .

الدأب هو السير المستمر ، وهو هنا يعم النشأتين ، فال فرعون والذين

من قبلهم في دأبهم كانوا دائبين في الكفر والتكذيب بآيات الله وماتوا وهم كفار ، فكذلك « هم وقود النار » في دار القرار كما كانوا وقود النار في دار الفرار « فأخذهم الله بذنوبهم » طبقاً عن طبق جزاءً وفاقاً « والله شديد العقاب » عدلاً ، كما هو ارحم الراحمين ثواباً .

وقد تحتل « كدأب آل فرعون » وجوهاً عدة علّها كلها معنية حيث يسعها ادب اللفظ وعناية المعنى .

فـ « آل فرعون » مفعول فاعله محذوف معروف هو الله : كستته الجارية على هؤلاء وهؤلاء اخذاً لهم بذنوبهم في الأولى والأخرى « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » (٧١ : ٢٥) « ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (٤٠ : ٤٦) .

أو أنه فاعل : كدأبهم في التكذيب برسول الله ورسالاته وآياته وكأنهم تواصلوا به على طول خط الرسالات الإلهية .

أو كدأب العذاب في آل فرعون دأبه في هؤلاء الأنكاد الذين هم فراعنة في هذه الرسالة القدسية السامية .

أو ان الاضافة هنا لامية : كالدأب الذي لآل فرعون - منهم في تكذيبهم ومن الله في تعذيبهم - يكون الدأب في الذين كفروا من رؤوس الضلالة .

أو كدأبهم في أنه لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً عن عذاب الأولى فضلاً عن الأخرى .

فـ « دأب آل فرعون » على أية حال تحلق على كل دأب منهم وفيهم وعليهم ومن الله في الأولى والأخرى طبقاً عن طبق ولا يظلمون نقيراً .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

سُغْلَبُونَ وَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾
 قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ
 بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾
 زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
 الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
 وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ
 عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ
 ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ
 لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
 وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ

اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
 بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 عِنْدَ اللَّهِ لَا يُسَلِّمُونَ إِلَّا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا
 مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
 أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 وَالْأُمِّيَّةَ ۖ أَسْلَمْتُ ۖ فَإِنْ أَتَيْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَلَيْسَ عَلَيْكَ أَلْبَلٌ ۚ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ
 وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
 الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ
 لِيُبَعِّحَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ^ط
وَعَرَّوْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَلْتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (٧٦)

هنا «الذين كفروا» قد لا يعني كافة الكفار حيث نزلت بعد انتصار المسلمين في بدر كما تعنيه «قد كان لكم آية في فتنين...» فهم - إذا - بقية باقية منهم في الجزيرة وهم اليهود كانوا يحسبونهم «الناس» الأقوياء لا يُغلبون وهم يُغلبون ، فنزلت هذه الآية مندة بهم مهددة لهم بغلب بعد غلب... والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» (١).

هذا - وقد تعني الكفار ككل انهم مغلوبون على طول الخط كأصل أصيل في التقاء فتحي الإيمان والكفر كما «لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون» (٣ : ١١١) وليس غلب الكفار على المؤمنين أحياناً إلا

(١) الدر المشور ٢ : ٩ - أخرج ابن اسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن رسول الله (ص) لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم عذاب الله بما أصاب قريشاً فقالوا يا محمد لا يضرناك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أخصار لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت إنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله «قل للذين كفروا...»

خطأ في قبيل الايمان كما كان في حرب أحد ما كان من تخلفهم عن أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وهذه الآية من الملاحم القرآنية لا سيما في خصوص يهود المدينة حيث غلبوا كما قال الله في حرب بني قينقاع ، وما كان لهم حول ولا قوة نقضاً لهذه الملحمة جميعاً لقواتهم الهائلة مها شرقوا او غربوا وزمروا وعربدوا ، مما يدل على صادق الوحي في هذه الإذاعة القرآنية .

ولأن الحشر هو إخراج جماعة عن مقرهم بإزعاج ، إذا فجهنم هي جحيم النار في دار القرار ، مها سبقتها جحيم البرزخ فانها برزخ في ذلك الحشر الحائر الحاشد « وبش المهاد » الذي مهد الله لهم بما مهدوا له في انفسهم في هذه الأدنى .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِیِ التَّقَاتِ فَمَا تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١٣)

« قد كان لكم » : - الناس الأبطال - ١ « آية » لغلب المسلمين عليكم او امكانيته القريبة « في فتنين التقات » في قتال حامية دامية « فتنه تقاتل في سبيل الله » وهي الضفة الإسلامية السامية « وأخرى كافرة » هم مشركوا قريش ، والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فيهم قلة فارسة ، والمشركون ألف وفيهم كثرة فارسة ، مما كان بطبيعة الحال يخلق لهم كارثة لقلة عددهم وعُددهم ، ولكننا العُدد الايمانية الكثيرة سدت فراغ العُدد الحربية اليسيرة .

ومما نصرهم الله في هذه المعركة الصاخبة ان « يرونهم مثليهم رأي العين » حيث تعني فيما تعنيه ان الكفار كانوا يرون المسلمين مثليهم رغم انهم ثلثهم ، مما يبين عزمهم ويفشل حزمهم كما فعل .

وتلك الإراءة المعاكسة كانت من الجانبين لصالح المسلمين ، فهنا « يرونهم مثليهم رأى العين » توهيناً لعزمهم ، وفي الأنفال « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور . وإذا يريكهموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور » (٤٤) .

هاتان القلتان المرثيتان هما من الحيل الربانية لصالح الفئة المؤمنة اضافة الى واقع الإيمان الصامد الذي لا يهدف لاصحابه إلا إحدى الحسينين « والله يؤيد بنصره من يشاء » بحساب دوغما فوضى جزاف « إن في ذلك » التأييد المديد « لعبرة لأولي الابصار » ألا فاعتبروا يا أولي الابصار .

وقد تعني « يرونهم مثليهم » كلتا المعاكستين ان : يرى الكافرون المؤمنين مثلي أنفسهم ، فهم إذا ألفان ستة اضعاف العدد الواقع ، ويرى المؤمنون أنفسهم مثلي الكافرين وكذلك الأمر ، وهما معاً تشجيع للمؤمنين وتوهين للكافرين، وأما ان يرى المؤمنون أنفسهم مثلي انفسهم (٦٢٦) وهم يرون الكافرين ألفاً فليس مما يشجع المؤمنين فضلاً عن توهين الكافرين .

فالأصل هنا في رؤية الكافرين انهم يرون المؤمنين مثليهم رأى العين ، وفي المؤمنين انهم يرونهم قلة بجنبهم ويرون انفسهم مثليهم رأى العين « ليقضي الله امراً كان مفعولاً » .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ هُنْدَهُ حَسَنُ الْمَالِ ﴾ (١٤) .

« زين » مجهولاً لا بد له من فاعل ، فهل هو الشيطان حيث التزيين هنا في مسرح التنديد مفصولاً عن حساب الله « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده

حسن المآب ؟ وليس خالق الخلق بزيتته إلا الله : « هل من خالق غير الله !
وهناك وفقر من الآيات تنسب زينة الحياة إلى الله كـ : « انا جعلنا ما على
الارض زينة لها لنبلوهم أهم أحسن عملاً » (١٨ : ٧) - « ان الذين لا يؤمنون
بالآخرة زيننا لهم اعمالهم فهم يعمهون » (٢٧ : ٤) - « .. كذلك زيننا لكل
امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم .. ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به
اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (١١٠ : ١) .

نقول : هنا تزيين هو من فعل الله تحسيناً لخلق كلاً على حده : « الذي
احسن كل شيء خلقه » ولا تنديد فيه اذ لا إضلال .

وهناك تزيين زيادة عن الواقع فيه إضلال وإدغال ، وهو من فعل الشيطان
بالنسبة لهؤلاء الذين يمشون على هواه ، سواء أكان تزييناً للحياة الدنيا اكثر مما هي
ام تزييناً لاعمالهم السيئة حتى يروها حسنة ، فهو من الشيطان إضلال ومن الله
تعالى عقوبة على ضلال إذ يخلي بينهم وبينه يصلهم ويغويهم ، يعدهم ويمنيهم
ولا يعدهم الشيطان إلا ضروراً

فهنا الله يزين لهم أعمالهم « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » - « ان الذين لا
يؤمنون بالآخرة زيننا لهم اعمالهم فهم يعمهون . اولئك الذين لهم سوء العذاب
وهم في الآخرة هم الاخسرون » (٢٧ : ٥) .

لا فحسب بل « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما
خلفهم .. » (٤١ : ٢٥) فـ « انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم
ازاً » (٨٣ : ١٩) مهما عفى التقيض والإرسال عدم الخيال بينهم وبين
الشياطين حيث يكلهم إلى أنفسهم فهم يعمهون .

وأما حب هذه الستة المذكورة في الآية المتوحدة في حب الشهوات فهي من
الله تمشية لحياه الجسد ، مطيةً لحياة الروح وبلية في مدرسة الدنيا : « انا جعلنا

ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملاً .

فذلك - إذا - حب للريعة الحياة العليا ، أن يتذرع بها الإنسان إليها ،
ناظراً بها إليها ، لا ناظراً إليها أصيلة ، بل وسيلة الى رؤية الحقائق في الاولى
والأخرى .

ثم هو من الشيطان تركيز على الشهوات ، وحصر للحياة في هذه الأدنى ،
أن يزينا أكثر مما هي فيجعل الحياة الأخرى لاغية كأن لا حياة إلا هذه الدانية
وهناك الطامة الكبرى ! .

وثالث الشهوات - نساء وبنين وأموالاً - هي أساس البلاء والهوة الجارفة
لن أبصر إليها فاعمته ، وهي اساس الكمال لن أبصر بها فبصرته .
ولأن شهوة الجنس تحتل الصف الاول من الشهوات نراها رأس الزاوية ،
وهي كما هي ام المشتبهات ، ثم من أهم حصائلها « البنين » وقد تعني هنا الأعم
من البنات .

مركز تحقيق كتاب توير علوم ربي

ثم مربعة الاموال التي تستخدم لأريحية الحياة التي تحتل رأس الزاوية فيها
« النساء والبنين » ، وهي « القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » كرأس الزاوية
في الاموال ، ثم « الخيل المسومة » المعلقة وهي جياها ، ثم « الأنعام » وأخيراً
« الحرث » .

« ذلك » البعيد البعيد « متاع الحياة الدنيا » يتمتع بها فيها ويشترى بها
الحياة الأخرى « والله عنده حسن المآب » والثواب لمن جاز شهواتها وهي خامدة
إلا عما يتذرع بها لما عند الله .

ومهما كانت الحياة الدنيا خيراً كمزرعة ومدرسة فالحياة الأخرى خير منها
كمتموجة صالحة :

﴿ قُلْ أُؤْتِبُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ (١٥) ۝

« قل » يا رسول الهدى والداعية إلى كل خير « أُؤْتِبُكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم » فانه شر من ذلكم للذين طغوا عند ربهم ، « للذين اتقوا عند ربهم » في الحياة الدنيا إذ لم يتناسوا فيها - وهي حياة البعد والحجاب عن الرب - انهم عند ربهم وبمحضره فاتقوا .

ف « للذين اتقوا عند ربهم » - « عند ربهم » - « جنات تجري من تحتها الأنهار » واين « عند ربهم » في الاخرى من « عند ربهم » في الاولى ، اذ تكشف الغطاء فيها كثواب دائب بما كشفت كما سعوا في الاولى .

واين « ازواج مطهرة » - « عند ربهم » في الاخرى من النساء عند ربهم في الاولى ، ثم لا خبر هنا عن خصوص البنين والأموال لانها كما النساء « فيها ما تشتهي الانفس وتلد الاعين » وإنما يفرد بالذكر في عالم المضايقات ثم الأموال يوم الاخرى لا حد لها ولا حساب ، وهي حاصلة هناك دون تحصيل .

وقد تعني « مطهرة » اضافة إلى الطهارة عن التدنس طهارة عن كل تنقص أنثوي من هرم وضعف وقبح في المنظر والمعرش ، فهن يظللن مطهرات كما كن على طول خط الحياة .

ولماذا « ازواج » للمؤمنين ، لا وازواج للمؤمنات ؟ قد يعنى اختصاص الذكر - ان كان - التجاني عن ذكر ازواج المؤمنات حفاظاً على كرامة العفاف ! ولكنهن ذكرن في مسارح النكاح مرات عدة للدنيا ، ولا عفاف عن الحلال حتى يعف عن ذكرهن في مسرح الزواج يوم الاخرى، وعلّ « ازواج مطهرة » تعم

القبيلين كما « الذين اتقوا » و « رضوان من الله » فلا اختصاص في شيء من ذلك بقبيل الرجال ، و « الذين » تغليب لجانب الرجال ، و « مطهرة » اعتباراً بلفظ الجمع المكسر وإبرازاً أكثر لقبيل الرجال ، فإن رغبة الرجال فيهن أكثر من رغبتهن فيهم .

إذا فالنقلة الطفرة من « أزواج مطهرة » إلى « ورضوان من الله » نقلة قاصدة إلى بلورة الحياة الأخرى وركيزتها الأخرى ، فجنة الرضوان هي رضوان الجنات « للذين اتقوا عند ربهم » .

« والله بصير بالعباد » مَنْ هم همهم الشهوات هنا وهناك مهما كانت محللة مرغوبة وكثيراً ما هم .

وَمَنْ هم همهم « رضوان من الله » وقليل ما هم ، وهكذا يؤد بنا ربنا ويخطو بنا من شهوات الدنيا إلى شهوات الآخرة ، ومنها إلى أشهى الرغبات الروحية « ورضوان من الله » ! وهو أكبر كما « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (٩ : ٧) .

هنا وهناك « رضوان من الله » يقابل كل الجنات وما فيها من كافة الشهيات ، تدليلاً على أن قليلاً من رضوان الله خير من كثير من سائر الجنات ، مهما كان « لمن خاف مقام ربه جنتان » فإن جنة الرضوان هي الأصل والأخرى من فروعها ، كما الروح هو الأصل في الكيان الإنساني والجسم فرع .

وقد يعني « رضوان من الله » على ضوء رضوان الله عن العبد ، رضوان العبد عن الله ، ولأنه ذريعة لرضوان الله ، كما « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » .

وإنما عُدِّي « رضوان » بـ « من » حيث الأصل هو رضوان من الله عن عبده وليس العكس إلا تقدمته .

ذلك ، وإلى مواصفات للذين اتقوا عند ربهم في قال وفعال :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٦) الصَّابِرِينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِلِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) .

هؤلاء الأكارم هم في خماسية من واقعية الصفات الإيمانية بعد قوله الإيمان وطلبة الغفران والاتقاء عن النيران ، دروب ثمان إلى جنة الرضوان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

والنصب في هذه الخمس على الاختصاص : أخص من القائلين « ربنا آمنا ... » : « الصابرين ... » .

وهذه الصفات تخلق على كافة الصفات الإيمانية على الإطلاق ، كما وتخلق كل منها على سائر الخمس ، فالصابر في الله حقاً هو الصادق حقاً كما الصادق صابر ، والقانت حقاً لله هو الصابر الصادق المنفق في الأسحار كما المنفق والمستغفر صابر صادق قانت .

ذلك - وفي كل صفة من هذه الخمس تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإيمان ، ففي الصبر ترفع على الآلام دون انكسار وتراجع ، ثباتاً على أعباء الدعوة واستعلاء على الشكوى .

وفي الصدق اعتزاز بالحق المطلق ومطلق الحق في ظلاله ، ترفعاً عن ضعف الكذب وكذب الضعف فما الكذب إلا ضعفاً عن ناصع الحق اتقاء عن ضرر أو اجتلاباً لنفع .

وفي القنوت لله أداء - قدر المستطاع - لحق الربوبية وواجب العبودية وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت الخنوع لله الذي لا قنوت لسواه .

وفي الانفاق تحرر من أسر المال بأسره ، وانفلات من ربة الشح ، واعلاء
لحقيقة الأخوة الايمانية على شهوة اللذة الشخصية وتكافل بين الناس يليق بعالم
الناس خروجاً عن عالم النسناس .

ومن ثم الاستغفار بالأسحار يلقي ظلالاً عميقة الندى ، قرية الهدى ،
كما وصيفة الأسحار راسمة ظلال فترتها قبيل الفجر حيث يصفو فيها الجو
وتترقق فيها خواطر النفس ، تلاقياً حقيقياً بين روح الانسان والكائنات ككل
اتجهاً إلى خالق الكون .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

هذه من غرر الآيات الجامعة لبراهين التوحيد ، الجامعة لكل مداليل
آيات التوحيد آفاقياً وانفسياً ، يجدر بنا ان نسبر اغوار البحث فيها كما سبرت .
هنا سؤال يطرح نفسه بطبيعة الحال ان كيف يشهد الله لنفسه وطبيعة
الشهادة ان تكون لاثبات الدعوى من غير مدعيها عند فقدان اي برهان عليها ؟
والأ فلكل مدع ان يشهد لنفسه دون حاجة إلى سواء ؟

هنا - بعد التأكد من معنى الشهادة أنها اداءها عن حضور كامل وهو
بالنسبة لله الحضور المخلوق على كل محضر لتلقي الشهادة وإلقاءها قبل خلق
المشهد وبعد وبعده فناء معنا نقول أولاً : ان شهادة الله بوحديته قد تخص
الذين يعتقدون في وجوده ثم هم به مشركون ، وهم معترفون أنه الإله الاصيل
وقد اتخذ لنفسه شركاء ، فأفضل من يشهد لوحديته هو نفسه المقدسة ، إذ هو
الذي يعلم شركاءه لو كانوا ، وهو الذي يتخذهم لو كان متخذاً لهم ، فلما ينفي
العلم بان له شريكاً ، وينفي اتخاذه لنفسه شريكاً ، فتلك إذا شهادة قاطعة على
توحيده : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء

شفعاءنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون « ١٠ : ١٨) - « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد « (١٣ : ٣٣) .

فلان اتخذ الشركاء لله لا يُعلم - كافضل معلّم - إلا من قبل الله
فـ « شهد الله » هي افضل شهادة لتوحيد الله وجاء من يفترون على الله انه اتخذ لنفسه شركاء .

هذا - ولكن شهادة الله على توحيدهِ ليست لتقف عند هذه فحسب ، فانه شهيد بكل حقول الشهادة على « انه لا إله الا هو . . . »
فقبل كل شهادة « شهد الله » باسمه « الله » : « انه لا إله الا هو »
فـ « هل تعلم له سمياً » (١٩ : ٦٥) ؟ كلا يا ربنا حيث اجمع العالمون ملحدين ومشركين وموحدين على توحيد اسم « الله » فلم يسم به أحد إلا الله ، مهما اتخذوا من دونه شركاء ، إذ لا يحملون اسم « الله » .

ثم « الله » في ذاته القدسية يشهد ألا إله الا هو ، فان ذاته اللامحدودة تحيل تعدده ، حيث اللامحدود لا يتعدد ولو كان مخلوقاً ، وهو في الخلق لا محدودية نسبية ، فالماء - مثلاً - دون اي تقيّد بزمان او مكان او الوان ليس إلا واحداً ، ولا يتصور التعدد إلا على ضوء اختلاف ما في أي من هذه المواصفات .

فاللامحدودية الإلهية - وهي حقها وحقاقتها - تحيل التعدد ، فهو واحد لا بعدد ولا عن عدد ولا بتاويل عدد ، و لو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا « الآلهة إلا الله مع الله ، حيث العدد يحيل ألوهية المعداد اياً كان .

وصفاته - كذلك - ذاتية هي ذاته القدسية ، وفعلية هي افعاله، إنها لا محدودة فلا تعدد في الموصوف بها بنفس السند .

كما وأفعاله المنضدة المنتظمة دون تهاوت وتفاوت ، وبكل تناسق وتوافق حيث « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ذلك ايضاً دليل وحدة الخالق الناظم الناسق ، فتدبيره العجيب وصنعه اللطيف اللبيب وحكمته البالغة وقدرته الخالقة ، كل ذلك دليل وحدة الصانع الحكيم القدير .

كما وشهد الله بما خلق في انفسنا ودبر من فطر وفكر وعلوم ، فالفطرة شاهدة ، والعقل شاهد ، والعلم في كل حقوله شاهد ، شهداء ثلاثة هي من الآيات الأنفسية اضافة الى الآيات الأفاقية « أنه لا إله إلا هو » .

ثم « والملائكة » المدبرات أمراً ، والحاملات رسالات الله على رسل الله ، إنها تشهد بوحدة التدبير ووحى الرسالة التوحيدية « انه لا اله الا هو » فلا تجد الرسالات الإلهية ملكاً يحمل بخلاف التوحيد ، او يعمل في تدبير أمر الكون خلاف التوحيد .

وكذلك « اولوا العلم » بالله ، فد : « انما يخشى الله من عباده العلماء » ولا سيما الرسل والنبيون^(١) وهم الرعيل الاعلى من اولى العلم بالله ، فانهم

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٣ في تفسير العياشي عن جابر قال سألت أبا جعفر عليها السلام عن هذه الآية « شهد الله » قال أبو جعفر عليها السلام : شهد الله . . فإن الله تبارك وتعالى يشهد بها لنفسه وهو كما قال ، فأما قوله : والملائكة ، فإنه أكرم الملائكة بالتسليم له بهم وصدقوا وشهدوا كما شهد لنفسه وأما قوله : « وأولوا العلم قائماً بالقسط » ، فإن أولى العلم الأنبياء والأوصياء وهم قيام بالقسط والقسط العدل في الظاهر والعدل في الباطن أمير المؤمنين « أقول : قائماً بالقسط هي صفة لله لإفرادها دون الآخرين المجموعين ، مهما حملوا القسط في شهادتهم بالوحدانية ، اللهم إلا تأويلاً أو حملاً لقسطهم على هامش قسط الله .

يزدادون على مثلث العلم لسائر العلماء علم الوحي الرسالي : « وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢١ : ٢٥).

ذلك وافضل الشهادات الربانية في حقل الكتب الرسالية هو القرآن : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » (٤ : ١٦٦) .

وهي بصورة عامة : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ : ٤٣) .

هذا ، وكذلك سائر اولي العلم ، علماً بالله كما الموحدون ، او علماً بخلق الله ، حيث العلوم التجريبية بأسرها - لو خليت وطباعها - تحيل اذلية المادة^(١) .

إذاً فالكون بأسره - خالقاً ومخلوقاً ، وفي كل حقوله - شاهد صدق بكل صنوف الشهادة « انه لا إله الا هو » فلا تكير لتوحيده تعالى إلا تكير فطرته وعقليته وعلمه .

إذاً فـ «شهد الله » : ^١ باسمه « الله » ^٢ وذاته ^٣ صفات ذاته ^٤ وصفات فعله ، ^٥ ومن الفطر ^٦ والعقول ^٧ وبقرآنه ^٨ ملائكته وسطاء في حمل التكوين والتشريع ، ^٩ وأولوا العلم الرسل ومن يحدو محذاهم ^{١٠} وسائر اولي العلم حيث الصالح في ذاته يدل على وحدانيته تعالى .

فكل هذه الشهود العشرة هي من « شهد الله » منه او من فعله شهادة عقلية او علمية او واقعية ، وليست شهادات لفقدان البرهان .

(١) نجد القول الفصل في شهادة المعلوم لإثبات وجود الله وتوحيده في كتابنا « حوار بين الإلهيين والماديين » في فصله الخاص .

ومهما دُخِلت في سائر الشهادات خلاف العدل والقسط ، ولكن الله في شهادته وفي ربوبيته ككل ليس إلا :

« قائماً بالقسط » تشهد لقيامه بالقسط ألوهيته ، قائماً يحتاج إلى الظلم الضعيف ، كما وتشهد سائر الشهداء من الملائكة وأولي العلم ، دون أي دَخل ولا دَجَل أو دَقَل في الشهادة التوحيدية ، فإنما هو قسط فوق العدل ، وليس ظملاً دون العدل ، ولا هي - فقط - عدل ، فالقسط من اعدل العدل وافضله ، وهكذا تكون شهادة الله على توحيدِهِ : « لا إله الا هو العزيز الحكيم » فعزته الوحيدة غير الوهيدة ، وحكمته الوحيدة الوطيدة تشهدان لتوحيدِهِ شهادة قاسطة .

تلك هي جملة براهين التوحيد المستفادة من هذه الغرة الكريمة ، فكما ان وجود الله يملك كل البراهين المثبتة ، كذلك توحيدِهِ وسائر أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، فإنه تعالى قائم بالقسط في كافة مسارح ربوبيته بمصارح آياته آفاقية وانفسية دون إبقاء مركز تحقيق كميته علوم ربوبيته

وها نحن نرى على مدار الزمن في التاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخي ، ان الفترات التي حكمت فيها شرعة الله وحدها ، هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط واستقامت حياتهم قاسطة ، في حين نراها في الفترات المتخلفة عن شرعة الله ساقطة .

لذلك نرى آية الشهادة الإلهية - هذه - مع زملائها في لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب »^(١)

(١) الدر المنثور ٢ : ١٢ - أخرج ابن السني في عمل يوم وليلة وأبو منصور الشجاعي في الأربعين عن علي قال قال رسول الله (ص) : وإن فائمة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران : شهد الله .. إن الدين عند الله الإسلام - وقل اللهم مالك الملك .. بغير حساب ، هن معلقات -

وذلك لانهم رافعات الحجاب عن وجه التوحيد كل نقاب .

﴿ إِنَّ الدِّينَ هِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) .

... في الحق « ان الدين » الطاعة الحق « عند الله الإسلام » لله خالصاً ناصعاً دونما خليط من هواك ام أهواء من سواك ، والإسلام في كل شرعة هو الاسلام لله فيها دونما تخلف عنها قيد شعرة .

إذا فالدين عند الله في الشرعة الأخيرة هو الإسلام فيها لله ، دونما إبقاء على تهود او تنصر ، ولذلك سميت هذه الشرعة الإسلام اعتباراً بمضي ادوار سائر الشرائع في دوره ، مهما كانت كل اسلاماً في دوره الخاص به ، « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٣ : ٨٥) وهو إسلام الوجه لله بكل وجه في كل الادوار الرسالية ، وهو هذا الاسلام الأخير بعد مضي ادوارها .

« وما اختلف الذين اوتوا الكتاب » في هذا الإسلام وهو أصله وأثافي « إلا من بعد ما جاءهم العلم » من قبل في كتاباتهم بشارات بهذا الاسلام ، ومن بعد في القرآن العظيم « بغياً بينهم » في هذا الاسلام ، ترسباً على شرعة الطائفة وطائفة الشرعة فكفروا بآيات الله « ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » بالنسبة لهؤلاء المنحرفين عن اسلام الوجه لله .

« بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب يقلن يا رب عبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله إني خلقت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة - يعني المكتوبة - إلا جعلت الجنة مأواه حل ما كان فيه وإلا أسكته حظيرة الفردوس وإلا نظرت إليه كل يوم سبعين نظرة وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وإلا أعدته من كل عدو ونصرته منه .

أقول وفي المجمع روى جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عن النبي (ص) مثله .

« والذين أوتوا الكتاب » هم اخص من اهل الكتاب ، فالذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، هم لم يؤتوا الكتاب علمياً معرفياً مهما أوتوه مبدئياً ، ومن ادلة الاختصاص « الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » فلا يشمل « الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » .

وهذا الاسلام الذي هو الدين عند الله ، ليس فقط اقراراً باللسان فانه ليس ديناً وطاعة ، بل هو تبلور الايمان وتماحه وكماله^(١) دخولاً في جو السلم على ضوء الطاعة المطلقة لله .

فالاسلام هو احسن دين مهما كان الايمان ديناً واسلام الاقرار - كذلك - ديناً في حقل الاقرار : « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن » (٤ : ١٢٥) - « بل من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١٢) - « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (٣١ : ٢٢) .

اسلام الوجه لله يشمل كل وجه في الاسلام وهو الدخول في السلم كافة « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (٢ : ٢٠٨) .

وهكذا يؤمر مؤمنوا كل الشرايع الإلهية ، وحين تنتهي الى الشريعة الأخيرة فهي هي الاسلام فقط الى يوم الدين : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » والاسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٣ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليها السلام في الآية قال : يعني الذي فيه الايمان .

أقول : فما ورد من تفسير الإسلام أنه الإقرار وأنه قبل الإيمان ، وأنه لا يشرك الإيمان والإيمان بشركه كل ذلك يعني الإسلام الأول لا الإسلام الذي بعد الإيمان ولا الأعم منه ومن الذي قبل الإيمان .

واليقين هو التصديق والتصديق هو الاقرار والاقرار هو الأداء والاداء هو العمل (١) .

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٠) .

« فان حاجوك » اهل الكتاب وسائر الكفار في شرعتك هذه الجديدة الجادة « فقل » كلمة واحدة قاطعة للحجاج « اسلمت وجهي لله » واسلموا وجوههم « من اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين ءاسلمتم » فانتم اذا امثالنا مسلمون بشرعة القرآن ، فقد بعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاسلام كسائر الرسل والنبين (عليهم السلام) « لا نفرق بين احد من رسله » (٢) .

« فان اسلموا » وجوههم لله فاسلموا « فقد اهتدوا وان تولوا » عن الاسلام « فانما عليك البلاغ » قد « ليس عليك هدايتهم » « والله بصير بالعباد » المسلمين منهم والمتولين .

(١) عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع) قال : لانسب الإسلام نسبة لم ينسبها احد قبلي ولا ينسبها احد بعدي الإسلام هو التسليم . . .

(٢) الدر المنثور ٢ : ١٣ - أخرج الحاكم وصححه عن يهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال أتيت النبي (ص) فقلت يا نبي الله إني أسألك بوجه الله بم بعثك ربنا ؟ قال : بالاسلام ، قلت وما آيته قال : أن تقول : أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة كل مسلم على مسلم محرم اخوان نصيران لا يقبل الله من مسلم أشرك بعد ما أسلم عملاً حتى يفارق المشركين إلى المسلمين ما لي أخذ بحجزكم عن النار ألا إن ربي داعي ألا وإنه سائل هل بلغت عبادي وإلى قائل رب قد أبلغتهم فليبلغ شاهدكم غائبكم ثم إنه تدعون مقدمة أفواهكم بالقدام ثم أول ما يبين عن أحدكم لفعله وكفه قلت يا رسول الله (ص) هذا ديننا ؟ قال : هذا دينكم وأين ما تحسن يكفك .

هنا اسلام الوجه لله يشمل كل الوجوه المقامة للدين حنيفاً في آية الفطرة، من الوجوه الروحية والحسية ، فالإنسان - ومعه كل الكائنات - هو أمام الله وجه لا يخفى عليه منه خافية ، والمطلوب منه ان يختار اسلام الوجه بكل وجوهه لله ، دخولاً في سلم الطاعة المطلقة لله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْوَاهُمْ مِنْ نَارٍ ^(٢٢) ۝

هنا ثالث من أبعاد الكفر للبعد عن شرعة الله واسلام الوجه لله مهما كانوا كتابيين ام سواهم :

١ « ان الذين يكفرون بآيات الله ، وحيأ وصاحب وحي ٢ » ويقتلون النبيين بغير حق ، فالقتل بحق حق ولكن قتل النبيين ليس إلا باطلاً لانهم يحملون بلاغ الحق من الله ، فقتلهم قتل للحق .

٣ « ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس » وهم حملة الرسالات بعد النبيين أيأ كانوا ^(١) .

(١) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الجراح قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله (ص) الآية ثم قال يا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرُوا من قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله .

وفي نور الثقلين ١ : ٣٢٤ في أصول الكافي بسند متصل عن يونس بن ظبيان قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول قال رسول الله (ص) إن الله عز وجل يقول : ويل للذين يقتلون الدنيا بالدين ويل للذين يقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس ويول للذين يسير المؤمن فيهم بالنزعة أي يقتلون أم علي يجتهدون في حلفت لا تبحن لهم فتنة تترك الحليم منهم حيراناً .

« فبشرهم بعذاب اليم » وإذا كانت بشارتهم العذاب الاليم فما هي - إذا - نذارتهم ، فانما التعبير يشي بعمق العذاب لهم وتحليقه عليهم لحد لا بشرى لهم إلا العذاب ! .

« اولئك الذين حبطت اعمالهم » إذ فسدت فبطلت ، وذلك مأخوذ من الحبط وهو داء ترم له اجواف الابل فيكون سبب هلاكها وانقطاع آكلها ، وهكذا تكون اعمال هؤلاء الأغباش قد تنتفخ وتتضخم في الاعين ولكنه الانتفاخ المؤدي الى البطلان والهلاك ، ثم ولا ينصرهم ناصر ولا يعذرهم عاذر ، وقد افردنا بحثاً فصلاً حول الحبوط من ذي قبل فلا نعيد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُذْهِبُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٣)

سؤال تعجيب وتأنيب ، تعجيب للرسول والذين معه ، وتأنيب بالذين اوتوا نصيباً من الكتاب ، وتراه نصيباً من وحي التوراة والانجيل اذ حرفا عن جهات اشراعهما فلم يبق لهم منه الا نصيب عسيب ؟ وقد اوتوا كأصلي كل الوحي في الكتابين ! .

ام نصيباً من الوحي ككل ، فما وحي سائر الكتاب بجانب هذا الكتاب المبين إلا نصيباً ضئيلاً من الكتاب ؟ و« يدعون إلى كتاب الله » حيث تعني الكتابين قد لا يناسبه ! .

« نصيباً » هنا قد تتحمل النصيبين ولكل وجه والجمع اوجه ، وخلاصة القول انهم ما اوتوا كل كتاب الوحي وهم يزعمونهم قد اوتوا كله ثم انقطع به الوحي ، وتراهم اذا اوتوا كل الوحي فلماذا يتولى فريق منهم عن كتاب الله حين يدعون وهم معرضون ؟ .

هنا « كتاب الله » هو كل كتابه تعالى ، فليس - إذا - نصيباً من الكتاب ،

وأعجب بهم وهم لم يؤتوا الا نصيباً من الكتاب وهم لا يرضون بكتاب الله ككل وهو القرآن حكماً ! .

وقد يعني « كتاب الله » كل ما كتبه الله على عباده ومنه التوراة كما في الروايات ان اليهود حوكموا - في احكام عدة كتابية - إلى التوراة فتولى فريق منهم وهم معرضون^(١) .

ذلك ، ولكن الآية ليست لتجمد على طائفة غابرة من اليهود غائرة في خضم التاريخ ، بل هي شاملة لكل من اوتوا نصيباً من كتاب الوحي هوداً او نصارى امن أشبههما ، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، فان ذلك التأي والتولي شيمتهم وطبيعتهم الطائفية العارمة ، لا يرضون عما عندهم بديلاً ، ولا بما عندهم دليلاً اذا خالف اهوائهم ! و :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمُسِّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِيهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤) .

« ذلك » التأني عن قبول الحق والتجرؤ على الحق « بانهم قالوا .. »

(١) في التفسير الكبير للفخر الرازي ٧ : ٢٣٢ ذكر في سبب نزول الآية روايات ثلاث :

١- أن رجلاً وامراًة زنيا من اليهود وفي كتابهم الرجم فكرهوا الرجم لشرفها فتحاكموا إلى الرسول (ص) لعله يكون عنده رخصة فحكم بالرجم فأنكروا ذلك فقال بيئي وبينكم التوراة فلما أن ابن صوريا على آية الرجم وضع يده عليها فقال ابن سلام قد جاوز موضعها بما رسول الله (ص) فرقع كفه عنها فوجدوا الآية فأمر (ص) بـرجمها فغضب اليهود فأنزل الله الآية .

٢- أنه (ص) دخل مدرسة اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : على أي دين أنت ؟ فقال : على ملة إبراهيم ، فقالوا : إن إبراهيم كان يهودياً فقال (ص) هلما إلى التوراة فأبوا ذلك فأنزل الله الآية .

٣- إن علامات بعثته (ص) مذكورة في التوراة فدعاهم النبي (ص) إليها فآبوا فأنزل الله الآية .
أقول : هذه مروية في الدر المنثور باختلاف يسير مع الحفاظ على الأصول .

قيلتهم العليّة انهم ابناء الله فلا تمسهم النار ، ولو مستهم فـ « لن تمسنا الا اياماً معدودات » عبدنا فيها العجل ، وبذلك الضمان والأمان حرروا انفسهم في كل تخلفه عن شرعة الله ، فانهم - على زعمهم - مثابون على اية حال ، وليس عذابهم - لو كان - إلا اياماً معدودات محتملات هي متحتملات .

وهكذا « غرهم في دينهم ما كانوا يفترون » فلا يبالون بما يعملون .
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٥) .

« فكيف » تكون حالهم بما لهم في اعمالهم « اذا جمعناهم » مع سائر الجموع يوم الجمع « ليوم لا ريب فيه » في الشرائع الكتابية في ميزان العدل السوي « ووفيت كل نفس » نفس « ما كسبت » من خير او شر ، دون زيادة الا في خير ولا نقيصة في كل من الشر والخير « وهم » هوداً ام سواهم « لا يظلمون » انتقاصاً عما كسبوا .

وحين ينحصر الوفاء بما كسبت ، فهو المحور الاصيل ، حيث « تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » (٣٠) .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ

مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ وَتُذِلُّ

مَنْ نَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣١﴾

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ
 مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ
 فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ
 وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
 تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
 مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
 أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٨٠﴾
 قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
 وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٦ .

آية منقطعة النظير في مسرح الملك والعزة والذلة سلباً وإيجاباً تنفذ فيها من مفرداتها الى جملها فجملتها ، لكي نحصل على مغزاها الصالحة ، ذباً عما ينجيل الى الذين في قلوبهم زيغ من طالحة بشأنها والله من وراء القصد .

« قل » انت يا رسول الهدى كحامل الوحي الأخير ، و « قل » ايها التالي للذكر الحكيم مع الرسول ، قولاً باللسان والأفعال والجنان ، قولاً لازماً ودعائياً في مختلف الجموع ومحتشد المكلفين الى يوم الدين .

« قل اللهم » أمراً من الله ان نخاطب الله في كل الحقول والمسارح ، بكل المصارح .

« مالك الملك » : « مالك » ملكاً حقيقياً لا حول عنه ، دون المالكين سواه ، فانهم بملكهم مستودعون فيما يملكون ومستخلفون فيما يملكون .

« والمُلْك » يعم المُلْك ككل ، زمنياً وروحياً ، تكوينياً وتشريعياً ، ام هو مثلث مُلْك المال دولة (١) ومُلْك المنال دولة في حقلي القيادة : الروحية

(١) الدر المنثور ٢ : ١٤ - أخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل قال : شكوت الى النبي (ص) ديناً كان علي فقال يا معاذ أحب أن يقضى دينك ؟ قلت : نعم قال قل اللهم مالك الملك .

وفيه أخرج الطبراني عن معاذ بن جبل أن رسول الله (ص) افتقده يوم الجمعة فما صلى رسول الله (ص) أن معاذاً فقال يا معاذ مالي لم أرك ؟ فقال : ليهودي علي وقية من بر فخرجت إليك فحبسني عنك فقال : ألا أعلمك دعاء تدعوه به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك فادع الله يا معاذ قل اللهم . . . الى - بغير حساب ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي من تشاء منها وتمنع من تشاء منها إرحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك اللهم اغني من الفقر واقض عني الدين وتوفي في عبادتك وجهاد في سبيلك .

والزمنية ، فمثلث المُلْك المخلوق على كل مُلْك يختصه انحصاراً فيه وانحصاراً
عمن سواه إلا من آتاه وديعة زائلة ، فقد يستعمل المُلْك في مصطلح الذكر
الحكيم في كل من الثلاثة .

وهنا « تؤق » دون « تهب او تعطي » للإشعار بان المُلْك ايأ كان ليس
عطية ربانية فان قضيتها البقاء دونما تحول ولا تحويل ، ثم لاعطاء في المُلْك غير
الحق لو صح في المُلْك الحق .

فانما المُلْك يؤق إتياء ، زمنياً او روحياً او مالياً ، بحق او بباطل ،
والتشريعي منها كله حق ، لأنه شرعة من الدين ولا باطل في دين الله .

ولكن التكوين - وكله حق - يعم تكوين الشر بما يختاره الشرير قضية
الاختيار للمكلفين .

فمن المُلْك الزمني : « يا قوم لكم المُلْك اليوم ظاهرين في الأرض »
(٤٠ : ٢٩) « أليس لي مُلْك مصر » (٤٢ : ٥١) .

وهو بين حق كما للنبيين وسائر المعصومين الملوك ، وباطل كما للفراعنة
والنماردة ، فليس الله بمؤتيهم المُلْك مرضاة له حق يُحتج لبني أمية « أليس قد
آق الله عز وجل بني أمية المُلْك ؟ حيث الجواب : ليس حيث تذهب إن الله
عز وجل آتانا المُلْك وأخذته بنو أمية بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر
فليس هو الذي أخذه^(١) .

واين إيتاء من إيتاء ، إيتاء الله لأهله تشريعياً ، ثم إيتاءه لغير أهله
تكوينياً بمعنى عدم منعه تسييراً ، كما « الذي حاج إبراهيم في ربه ان آتاه الله

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٤ في روضة الكافي بإسناده إلى عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله (ع)

قال قلت له : قل اللهم ... أليس ...

الملك ، وهو غرود الطاغية في أحد وجهي الآية وهما معاً معنيان .

ومن الروحي : في وجه لإبراهيم (عليه السلام) : « الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » (٢ : ٢٥٨) وبكل الوجوه : « ام لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً » (٤ : ٥٣) فالرسالة الإلهية مُلك ، بل هي أفضلها ومن ضمنها الزماني : « اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض » (٧ : ١٥٨) « قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » (٣٨ : ٣٥) .

ذلك ، وهو بين حق كما شرعه الله وقرره لأنبيائه وأوليائه ، وباطل اغتصبه الذين احتلوا المناصب الروحية عن اصحابها الصالحين ، فهذه خرافة مجازفة ان واقع المرجعية الدينية ليس الا بخيرة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه ، فكل مرجع ديني - إذا - هو نائبه المنصوب المرضي عنده .

فان واقع الخلافة الروحية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان واقعاً في الخلافة اغتصاباً لتلك الخلافة فضلاً عن المرجعية الروحية زمن الغيبة ومن مُلك الملك فانه من الملك ، فكل ما يملك يشمله الملك ، من دولة ودولة وقيادة روحية ، حقاً ام باطلاً .

فقد يجتمع الإيتاء تشريعاً وتكويناً كما في الملك الحق في مثله ام مثناه ام موحداه كما في الصالحين .

واخرى ايتاء تشريعي ولم يحصل تكوين ، كالقيادة الزمنية للروحانيين الصالحين حيث تحول بينها وبينهم طغيات بغات ، ثم لا ينصرهم في معركتهم الصاخبة المؤمنون معهم قصوراً أو تقصيراً .

وثالثة تحمل الإيتاء التكويني دون التشريعي كمن يؤق من هذه الثلاثة ام كلها دون حق شرعي ، فليس الحصول عليها تغلباً على ارادة الله وتألماً عليها ،

وانما هو تخلف عن شرعة الله : « ولا يحسن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ : ١٧٨) « وأملي لهم إن كيدي متين » (٧ : ١٨٣) « وكأين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها » (٢٢ : ٤٨) ، وأصل الاملاء هذا من الشيطان ثم الله لا يحول بينه وبينهم فينسب اليه كما ينسب الى الشيطان وبنيهما بون الرحمن والشيطان : « الشيطان سول لهم وأملي لهم » (٤٧ : ٢٥) = « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ومن الجامع بين الأولين ام والثالث : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » (٢ : ١٠٢) « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » (٢ : ٢٥١) - « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » (١٢ : ١٠١) « فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (٤ : ٥٤) .

وذلك المثلث كما هو بين حق وباطل ، وبين جعل تشريعي وتكويني ، كذلك هو بين شخصي - كما في أشخاص الملوك - أو جماعي - كما في بيوتات صالحة ام طالحة ام عوان بينهما .

ثم « تؤتي الملك » دون « تعطي » تعميم لعطية الملك وهو الهبة الربانية في حقلي التشريع والتكوين ، ولإيتاء لمن يؤتاه تكويناً في طالع الملك زمنياً وروحياً ، بمعنى ألا يحول دون وصول الطالحين إليهما ام إلى أحدهما ، حين يحاولون بمختلف المحاولات والحيل الوصول إليه ، والصالحون بمعزل عن المحاولات الصالحة لفصله عنهم وصولاً للقواد الصالحين إليه ، حيث الدار العاجلة هي دار الاختيار دون اجبار ، اللهم الا فيما لا تكليف فيه أما أشبهه .

إذا فمشية الإيتاء تعم التكوينية المحلقة على صالح الملك وطالحه ، والتشريعية الخاصة بصالحه .

فمهما كان الملك الظالم - روحياً او زمنياً - هو المتغلب على ملكه والغاصب لما في يده ، ولكنه تعالى ليس بمنعزل عن ايجابه وسلبه ، حيث الارادة الإلهية المحلقة على كل كائن هي قضية التوحيد الأفعالي ، فقد يحاول الظالم كل محاولة له ممكنة للوصول الى حكم والله يحول بينه وبين مغزاه ، ام يحاول بعض المحاولات والله لا يحول بينه ومغزاه ، وكما يراه من الحكمة العالية .

وعلى أية حال ليس مالك الملك - كأصل - إلا هو ، ولا يؤتیه لأحد إلا من يشاءه ، دون جبر ولا تفويض ، فانها تنقيص لسلطته وتفويض ، فله الحكم في كل الحقول دون انعزالية تامة تفويضاً ، ولا ايجابية طامة جبراً ، كما ويفضل من يشاء ويهدي من يشاء ولا يظلمون نقيراً .

إنه « مالك الملك » ايأ كان من الثلاثة بين تشريع وتكوين « تؤتي الملك من تشاء » منهم في صالح الحكمة الربانية امتحاناً بامتهان ام سواء ، بإضفاء النعم عليهم ، وإقرار الأموال الدثرة عندهم ، وبما ترفدهم به من بنين وحفدة ، وعديد وعُدَّة ، والزاماً لمن دونهم على طاعتهم متى اجابوا داعيتك واتبعوا اوامرك ، وحين يعدلون عن نهج طاعتك ويفارقون سواء محبتك نزعت منهم الملك ، بان تسلبهم ملابس نعمك وتجعل أموالهم وأحوالهم ، دولتهم ودولتهم غنياً ونفلاً لغيرهم من عبادك .

ذلك - وإيتاء الملك تشريعياً ككل يخص الصالحين فلا انتزاع له عنهم ، اللهم إلا نقلة لملك الشرعة عن قوم إلى آخرين بما بغوا وطغوا على صلاح رسلهم ، كما انتقلت الشرعة الإلهية من بني إسرائيل الى بني إسماعيل ، واليكم نصاً من التوراة من الأصل العبراني بهذا الصدد تصديقاً للقرآن العظيم :

ففي سفر التكوين (٤٩ : ١٠) : « لَوُءَ يَا ثُور شِبْعُ مِيهُودَاةَ وَنُحُوقَ مِيسِينَ
رَغْلَايُوكِ يَا بُوء شَيْلُوءَ وَلُوءَ يِقَهْتُ عَمِيمَ أَوْ ثُرِي لِنَفْسٍ حَبِيْرِهِ . . . »

« لا تنهض عصي السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم ... ».

فانتهاض السلطة من يهودا هو انتقالها من الشعب الاسرائيلي إلى غيرهم ، وهو هنا « شيلوه » من غير اسرائيل ، اذ لو كان منهم لما قوبل بهم في انتهاض السلطة عنهم إليه^(١) وقد يندد بهم القرآن في ادعائهم الجوفاء ان النبوة منحصرة فيهم « ام لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيراً » (٤ : ٥٣) « ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (٤ : ٥٤).

وقد ورد في الاثر ان نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله هذه الآية^(٢) وذلك بعد ما أمره ربه ان يسأله^(٣) ويروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان اسم الله الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية^(٤)

مرکز تحقیق کتب پوز علوم اسلامی

ذلك ! فليكن الصالحون على مدار الزمن ظروفاً لتحقيق مشيئة الله ان يؤتيهم الملك تحقيقاً لشرعة الله في بلاد الله ، دون تكاسل او تعاضل في أسبابه « وان ليس للإنسان إلا ما سعى ».

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) .

(٢) الدر المنثور ٢ : ١٤ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله (ص) ...

(٣) المصدر أخرج ابن المنذر عن الحسن قال جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال : يا محمد سل ربك قل اللهم ... ثم جاء جبرئيل فقال يا محمد سل ربك قل رب ادخلني مدخل صدق ... فقال ربه بقول الله تعالى فأعطاء ذلك .

(٤) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : اسم الله ..

فهناك توفّر شروط القيادة روحياً وزمناً فيمن يحق له ان يقود الأمة ، يجب تحصيلها كفاثياً بينهم ، وهنا محاولات عاقلة صالحة لسائر المؤمنين في سلب القيادة عن الطالحين وايصالها الى الصالحين ، ففي نقض شرط او نقصه هنا او هناك الفرصة متاحة لمن يتربصون بهم دوائر السوء ، لكي يجعلوا القيادة وحق الروحية منها فريسة لهم بكل ادغال ، وهنا ناقص الشرط او ناقضه عن تقصير متخلف عن مشيئة الله وشرعته ، قائداً او مقوداً .

نجد النقص والنقض في عصور ائمة الدين المعصومين اذ لم يناصرهم المؤمنون كما يجب فاحتلت مناصبهم فاحتلت موازين القيادتين روحية وزمنية .

ثم نجدهما في زمن الغيبة لولي الامر تقصيراً جاهلاً او متجاهلاً قاحلاً من قبل الأمة ، ومن قبل من تحق لهم القيادة ، مهما بان البون بين القواد والمقودين في ابعاد التقصير او القصور .

ثم الملك قد يكون عزاً كما يرضاه الله ، وهو نفسه ذل فيما لا يرضاه ، كما الانحسار عن الملك ذل فيما يتوجب تقلده لصالح الأمة ، وهو نفسه عز اذا لزم محاذير اكثر حظراً من تركه .

وكضابطة ثابتة في ايتاء الملك وسواه وايتاء العز وسواه: الخير كله بيديه والشر ليس اليه اذ : « بيدك الخير انك على كل شيء قدير » فبيده اصل الخير في وصله وفصله ، وليس الشر الا ممن يؤتاه مهما امضاه ربنا تحقيقاً للمحنة في دار البلية - تكويناً - وهو لا يرضاه تشريعاً .

فمهما كان كل من الخير والشر من عند الله ، ولكن الخير منه والشر من نفسك : . . وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك

وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ، (٤ : ٧٩) .

ومن خيره في تدبيره امور الكون غير المختار كما يدبر الكائن المختار
وفي رجعة اخرى الى الآية نقول :

إن « بيدك الخير » تخلق الخير على كل افعاله تعالى ، إذناً في خير او شر
وعدمه في خير او شر ، فحين يريد فاعل تحقيق شره بما قدم له ، والله يعلم ما
يريد ويكرهه ، فهلاً يريد الله هنا سلباً ولا ايجاباً وقد حرّمه ؟ وهذا انعزال عن
الربوبية ! ام يريد سلباً والشرير يحقق شره رغم ارادة الله ؟ وهذا تغلب على
ارادة الله ! ام يريد ايجاباً بعد ما اراده الشرير وقدم له ما أمكنه ؟ وهذا هو
الايتاء الرباني لما حرّمه تشريعاً ، فلو انه اراد سلبه اضطر الشرير الى تركه
وخرجت حياة التكليف عن دور الامتحان ، فهذه الارادة الربانية - إذناً - خير
وليست شراً .

نعم في دوران الامر بين ارادة السلب والايجاب في الشر قضية الحكمة
الربانية تقديم الأهم على المهم ، فان كانت ارادة السلب اهم قدّمت على
الايجاب كما في نار ابراهيم ، وان كانت ارادة الايجاب اهم قدمت على ارادة
السلب كما في الاكثرية الساحقة من الشرور الشخصية ، فانما يريد الله السلب
في الشرور الجماعية التي فيها استئصال الحق باهله عن بكرته كما في قصة
ابراهيم .

ولا يعني « الخير كله بيدك والشر ليس اليك » انه لا يريد الشر وان
كانت ارادته خيراً ، وانما هو الشر الذي هو بسببه دوغماً اختيار لأهله .

وفيما يسد عن الشر رغم توفر مقدماته الاختيارية ، فقد يجازى الشرير
حيث لم يكتف بالنية ، فقد قدم ماله فيه امكانية ، فليعاقب بما قدم منها خف
عقابه اذ لم يحصل شره ! .

اجل « بيدك الخير » فليس منه الا الخير مهما كان عندنا شراً وإيلاًماً ، فقد يمنع عن سلطة شريرة رغم توفر شروطها حفاظاً على الأهم في صالح الحكمة الربانية ، ام لا يمنع تحريراً لاختيار السوء واملاءً لصاحبه وآخر لآخرين قدموا له ام سكتوا ام لم يقصروا ، فكل الأفعال الشريرة لها واجهة شر هي شرارة الفاعل بعقيدته ونيته وعملته ، وواجهة خير هي تحقيق الاختيار وتعذيب المختار بسوءه واملاءً ومن ثم ابلاء الآخرين .

وقد يأتي الشر خيراً مما في تركه كما قد يأتي الخير شراً مما في تركه ، ف « لا يسئل عما يفعل وهم يسألون » ١ .

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ٢٧ .

آية الإيلاج هذه ونظائرها في سائر القرآن هي من أدلة كروية الأرض ، فليست الأفاق لوقت واحد ليلاً ولا نهراً ، بل هي تقسم إلى ليل بساعاته ونهار بساعاته وهما يتداخلان حسب مختلف الفصول كما يصلح في الحكمة العالية الربانية .

وهذه عبارة عبيرة لابقة لمحة عن كروية الأرض ، ان ما ينقصه من النهار يزيد في الليل وما ينقصه من الليل يزيد في النهار ، ولفظ الإيلاج هو ابلغ اللفاظ تعبيراً عن ذلك التناقص لأنه يفيد ادخال كل واحد منها في الآخر بلطف الممازجة وشديد الملايسة فيصبح جزء من الليل نهراً وآخر من النهار ليلاً .

ذلك - وكما الإخراج للحي من الميت وللميت من الحي فاعلية حكيمة أخرى هي الأخرى من صالح التدبير .

وآية ثانية في متعكس الإيلاج تشريع السماح في المعاقبة بالمثل : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بني عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور . ذلك بان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير ، (٢٢ : ٦١) تمثيلاً للتشريع العدل بالتكوين العدل ، اذ يولج ليل العذاب في نهار الحياة الظلمة ، كما يولج نهار العذاب في ليل الحياة المظلومة .

وثالثة تمثيلاً للخلق والبعث بمتعكس الإيلاج : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير . الم تر ان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى وان الله بما تعملون خبير ، (٣١ : ٢٩) .

فكما انه يولج الليل في النهار ، كذلك يولج ليل الموت في نهار الحياة ، وكما انه يولج النهار في الليل كذلك يولج نهار الحياة في ليل الممات ، فـ « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » !

إذا فمتعكس الإيلاج ينعكس - بطبيعة الحال - على واقع الحياة بعد الموت أجلاً ، كما هو في واقع التشريع قبل الموت عاجلاً .

ذلك - وكما في اخراج الحي من الميت واخراج الميت من الحي كشريطة تدار طول الحياة برهان لا مردله على أمكانية الاخراج الأول بعد الموت كما قبله ، كأمكانية الاخراج الثاني واقعاً ملموساً في عاجل الحياة .

ذلك وكما يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ،^(١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ١٥ - أخرج ابن مردويه من طريق عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله (ص) لما خلق الله آدم عليه السلام أخرج ذريته فقبض قبضة يمينه فقال : هؤلاء أهل الجنة ولا أبالي وقبض بالأخرى قبضة فجاء فيها كل رديء فقال : هؤلاء أهل النار ولا أبالي فخلط بعضهم ببعض فخرج الكافر من المؤمن وبخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » .

كما ومن لإيلاج الليل في النهار حرمان أهل الله - أحياناً - عن السلطة الزمنية لتحقيق شرعة الله ، ومن إيلاج النهار في الليل إيتاء غير الأهلين السلطة الزمنية إماميه ، وهما من الإيتاء التكويني دون التشريعي .

كما ومن اخراج الحي من الميت اخراج بلورة الايمان في دولة الكفر ، ومن اخراج الميت من الحي اخطاء السلطات الحققة فانتقالها الى أهل الباطل .

« وترزق من تشاء بغير حساب » في المنشآت الثلاث ، وليس « بغير حساب » فوضى جزاف ، بل هو بحساب وتقدير عادل قاسط « ولا تظلمون فقيراً » فانه : « جزاء من ربك عطاء حساباً » (٧٨ : ٣٦) .

فالحساب هو المحاسبة مصدر حاسب ، والمحاسبة المنفية لا تناحر « عطاء حساباً » فان حساب الحسابين مختلف .

فثابت الحساب هو الميزان العدل والفضل في رزقه سبحانه ، وساقط الحساب هو الحد من فضل الله ، اذ لا حد لفضله في مجالاته مهما حدّ عدله فيها حيث التجاوز عن العدل ظلم .

فرزقه بغير حساب لمن يشاء قد يعني عدم الموارنة بين الصالحات والمثوبات ، وعدم الحد في المثوبات ، وترك الحساب لصغائر السيئات وترك صغائر الحسنات ، وما أشبهها من حساب لا يناسب عميم فضله لأهله .

... لقد سبق « تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ... بيدك الخير » مما ينبهنا بواجب المحاولة الدائبة للحصول على حق الملك بفضل الله ، وهنا يأتي واجب المفاصلة في آية ولاية بين كتلة الايمان والكفر ، وقد تختصران في « لا إله إلا الله » :

فهالة الايمان تقتضي حالة بين السلب والايجاب في حقل الولاية كما في

كافة الحقول ، فعل المؤمن مثلث السلب في ولاية الكفار ، ثم مثلث الايجاب في ولاية المؤمنين ، وهما المعبر عنهما في حقل الفروع الدينية بالتولى والتبري ، كل في كل الزوايا الثلاث إلا في حقل التقية وهي الحفاظ على اهم الواجبين .

وليس فحسب المؤمن بل الانسان ايأ كان يعيش بين إيجابيات وسلبيات ثلاث ، في نفسه وفي عمله شخصياً او جماعياً ، وعلى المؤمن تحقيق كلمة التوحيد ايجاباً في مثله وسلباً في ثالوته .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨ .

« الكافرون » هنا يعم ثالوث الكفر الحاداً وإشراكاً وتوحيداً كتابياً .
والولاية المنهي عنها هنا هي مطلق الولاية ما صدقت ، حباً وعمل الحب وقوله ، والسلطة الكافرة ، ثالوث منحوس من ولاية الكافرين يجمعها التحجب والتودد اليهم كيفما كان .

والإلتخاذ في الاصل هو القصد الى اخذ الشيء والعزم عليه والتمسك به والملازمة له كما « اتخذ الله ابراهيم خليلاً » (٤ : ٢٥) - « لتتخذن عليهم مسجداً » (١٨ : ٢١) - « واتخذوا من دون الله آلهة » (١٩ : ٨١) : انقطاعاً اليها واقامة على عبادتها ، ففلته الولاية قد لا يشملها الإلتخاذ حتى تخلف « ليس من الله في شيء » فانها من اللمم والسيئات غير الكبيرة المكفرة بترك الكبيرة : « ان تحتبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » .

فالمتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين لا يؤمنون بالله مهما ادعوه ، فهم بين ملحد يوالي الكافرين ولا يوالي المؤمنين ، او مشرك يواليهما مع بعض .

واما المتفلت في ولاية للكافرين في لفظة قول ام فعل خارجين عن الاستثناء ، فلا يشمل « ليس من الله في شيء » .

ثم « من دون المؤمنين » تعني من دون توحيد الولاية لهم كما « من دون الله » في اتخاذ من سواه ، فكما الاتحاد والاشراك في ولاية الله محظور ، كذلك هما في ولاية اهل الله محظور ، فانها استمرار لولاية الله .

إذا فولاية الكفار محظورة في مثلثها على اية حال ، توحيداً لولايتهم دون المؤمنين - وهو الحاد - فأنحس وأنكى ، ام اشراكاً لهم بالمؤمنين في ولايتهم ، فما صدقت ولاية الكافرين اتخذوا لها فهي محظورة ، اذ كما تحب ولاية الله الموحدة دون إلحاد به فيها ولا اشراك ، كذلك تحب - على هامشها - ولاية المؤمنين الموحدة ، دون إلحاد بهم فيها ولا اشراك ، فان ولاية المؤمنين من خلفيات ولاية الله ، فلا تتخلف عن ولاية الله اشراكاً فيها للكافرين بالله .

فالمراد بالمنع هنا ليس ان يفرّدوا بالموالاة فلا تمنع موالاتهم معهم ! بل هو المنع من اتخاذهم اولياء جملة وتفصيلاً ، كما اتخذ من دون الله آلهة يعني ضمهم اليه في الألوهية .

والنهي بات في ثالث المثني ، وهما توحيد الكفار في الولاية ام اشراكهم بالمؤمنين فيها على أية حال وان كان قليلاً ضئيلاً ، فان « لا يتخذ » تبحث كل دركات الولاية في ثالثها .

« ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » كما المشرك بالله والملحد في الله ليس من الله في شيء ، « في شيء » من مريع الولاية حباً وعمل الحب وقوله وسلطانه ، اذ لا يرضى من عباده إلا توحيد الولاية له لا لسواه ، وعلى هامشه اهل الله فـ « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدلت البغضاء من افواههم » (١١٧) - « لا تجد قوماً يؤمنون

بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... (٥٨ : ٢٢) - « وإما يُنسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (٦ : ٦٨) - « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ... » (٥ : ٥١).

تلك هي المفاصلة القاطعة دون أية مواصلة في ولاية بين كتلة الإيمان والكفر ، لا شذوذ عنها ولا استثناء فيها على أية حال ، والولاية حباً وقولاً وعملاً وسلطة زمنية أم روحية ، موحدة في أهل الله محبورة ، محظورة في غير أهل الله ولا سيما قلبياً وسلطة روحية فإنها لا يلائمان الإيمان على أية حال ، وليست التقية إلا في الثلاثة الوسطى على اختلافها في الحظر .

« إلا أن تتقوا منهم تقاة » ومع العلم أن التقية لا موقع لها ولا دور إلا في المظاهر ، نعلم أن الاستثناء محصور فيها محصور عن الباطن ، وهو المحبة القلبية والاعتقاد في ولايتهم وعقد القلب عليها ، فهي إذا تقية اللسان ، لا ولاء القلب بل ولا ولاء العمل إلا عند الاضطرار .

فكما يستثنى مورد الاكراه في الكفر وليس إلا ظاهره : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (١٦ : ١٠٦) كذلك التقية في ولاية الكفار ليست إلا فيما سوى القلب أكراهياً على المظاهر وقلبه مطمئن بولاية موحدة للمؤمنين .

فقد بقيت عند التقية الولاية الظاهرة اظهراً للحب قولاً أو عملاً ثم ولاية السلطة ، والاستثناء ظاهر في أولاهما ، منقسياً إلى تقية الخوف على أية حال وتقية الحب جذباً لهم إلى الإيمان فيمن يرجى منهم ، إذ : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم

ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (٦٠ : ٩) .

فما امكن جذب الكفار إلى الإيمان بتوليهم في ظاهر الحال وعشرة الأعمال ، فهو من تكاليف داعية الإيمان وقد يجب ، وكما لهم كمؤلفة قلوبهم حق من الزكاة الواجبة مهما كانوا اغنياء ، كما ويسلم على الكفار بنفس السبب كما سلم ابراهيم (عليه السلام) على آزر من قبل ان يتبين له انه من اصحاب الجحيم .

وعند الاياس منهم فلا ولاية إلا عند تقية الخوف على ما هو أهم من محذور الولاية نفساً وعرضاً وما أشبه .

واما ولاية السلطة ولا سيما الروحية فالتقية فيها اضيق من الأخرى ، حيث السلطة الكافرة قاضية على خطوط الإيمان وخبوطه مهما كانت بصورة تدريجية ، فلا تقية فيها على اية حال ، اللهم إلا إذا ترجحت ميزانية الحفاظ على النفس والنفس على وجوب معارضة السلطة الكافرة ، وحرمة الإبقاء عليها تظاهراً بالولاء ، ولا دور لهذه الرجاحة إلا في غربة غريبة للمؤمن ، حيث لا يجد ناصراً له في دولة الكفر ، ولا سبيل له للقضاء عليها او معارضتها عملياً وقولياً ، فقد يتربص المؤمن في دولة الكفر - حين لا يجد حيلة لترك الموالاة ، ولا وسيلة للفرار الى دولة أخرى - يتربص نظرة ان يأتي دور المعارضة على السلطة والقضاء عليها^(١) وأية ولاية مسموحة بالنسبة للكافرين هي مقدرة بقدر

(١) للوقوف على تفصيل البحث حول موارد التقية راجع تفسير الإكراه : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

الضرورة في تقية الحب والخوف ، دون استرسال فيها كما في المؤمنين حيث الضرورات تقدر بقدرها .

« ويحذركم الله نفسه والى الله المصير » فحذار حذار من ولاية الكفار كما اتخاذه من دون الله آلهة ، حيث الولاية هنا هي من فروع الاتحاد في الله والاشراك بالله ، والمصير الى الله يقتضي الصمود على ولاية الله وولاية اهل الله « إلا ان تتقوا منهم تقاة » ، وترى كيف « يحذركم الله نفسه » ؟ والله نفسه لا يتحذر لانه عدل كريم ! .

انه يحذركم نفسه لمكانة عدله ، فليس عذابه إلا من خلفيات عدله تعالى ، وعمل « نفسه » دون « عقابه » قصد الى خاصة عقابه الذي يأتي من قبله ويصدر عن امره ، دون الذي يجريه على ايدي خلقه ، حيث العقاب على الوجه الأول أبلغ المأ وأشد مضضاً .

ونفس الله هي ذاته سبحانه دون شيء من كيانه اذ لا يتجزأ ، فهي من إضافة الكائن إلى نفسه ، ولا تأتي لله إلا مضافة دون أفراد .

هذا - ومن الولاية الظاهرة للكفار مخالطتهم التي تحركهم إلى أهواءهم شتم أم أبيتم ، مخالطة قولية أو عملية هي الولاية الوسطى بعد المحبة وقبل السلطة الكافرة ، التي كانت مجالاً للتقية .

فانها في غير تقية الخوف ككل ، وغير تقية المحبة - في مجالاتها غير المحظورة - محظورة وقد نزلت فيما نزلت - بشأن الحظر عنها^(١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ١٦ - أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمر وحليف كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس ابن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر -

ولأن التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم فليراع فيها الأهم من المهم دوغما فوضى جزاف ، ان يُتقى بأس الكافر في خطر دخولاً في الأخطر ، فانما التعرض للهلاك حفاظاً على ادنى منه محظوراً هو خلاف التقية المحبورة^(١) .

فمن الايمان حفظ الأوجب في الايمان تفدية للواجب فيه كضابطة ايمانية صارمة ، اذا فـ « لا ايمان لمن لا تقية له »^(٢) كما وان « التقية في كل شيء يضطر اليه ابن آدم فقد احله الله له »^(٣) و « التقية ترس الله بينه وبين خلقه »^(٤) ولا ترس إلا في المعركة ففي معركة الصدام بين الأهم والمهم دور للتقية دائر حفاظاً على الأهم ، ولا بد - إذا - من تمييز الأهم في شرعة الله اجتهاداً او تقليداً صالحاً .

فالتقية قد تكون واجبة حينما يحافظ بها على الأهم المفروض ، أم محرمة حينما يهدر الأهم فيصبح المفروض كتقية السحرة من فرعون الطاغية ، وثالثة

= اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود واحذروا مباطلتهم لا يغتنوكم عن دينكم فإني أولئك النفر فأنزل الله فيهم « لا يتخذ المؤمنون الكافرين ... » .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين وذلك قوله : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٥ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه لبعض اليونانيين : وأمر أن تستعمل التقية في دينك فإن الله يقول « لا يتخذ ... إلا أن تتقوا منهم تقاة » . وإياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك وأن تترك التقية التي أمرتك بها فإنك شايط بدمك ودماء إخوانك ، معرض لنعمك ونعمهم للزوال ، مذل لهم في أيدي أعداء الدين وقد أمرك بإعزازهم .

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن الحسين بن زيد بن علي عن جعفر عن محمد عن أبيه عليهم السلام قال : كان رسول الله (ص) يقول : لا إيمان ... ويقول قال الله : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

(٣) المصدر عن جماعة من أصحاب الباقر (ع) سمعناه يقول : « التقية ... » .

(٤) المصدر عن حريز عن أبي عبد الله (ع) قال : « ... » .

تتخير بين المحظورين وهما المتساويان وقد فرض احدهما عليك ، ورابعة يترجح احد المحظورين برجاحة غير مفروضة .

فـ « إلا ان تتقوا منهم تقاة » لا تعني إلا تقاة الأهم تركاً للمهم الواجب وهو ترك توليهم ، احرازاً للأهم الأوجب وهو ترك النفس إذا كانت أنفـس من الواجب الآخر .

﴿ قُلْ إِنْ تُخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْنَ يَغْلِبْكُمْ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) .

اجل - وانه لا فارق في علم الله بين ما تخفونه في صدوركم وما تبدونه ، فـ « انه يعلم السر واخفى » بل وككل « ويعلم ما في السماوات وما في الأرض » .

ذلك ، وانه إمعان في التحذير والتهديد واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة التي يساندها العلم والقدرة ، فلا ناصر منها ولا عاذر ، وإلى حاذر العذاب في تجسد الأعمال :

﴿ يَوْمَ نَحْذَرُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣٠) .

« ما عملت من خير » عنها تعم مربع العقائد والنيات والأعمال والأقوال، إذ أفرد العمل بالذكر، حيث العقيدة والنية هما عمل الجنان والآخران هما عمل الأركان .

وعلـ « ما عملت » على اختصاصها بعمل الأركان تطوي العقيدة والنية الصالحتين، حيث العمل قولاً او فعلاً ليس خيراً إلا بصالح العقيدة والنية .

ثم الوجدان هناك كما هنا هو وجدان نفس العمل بصورته وسيرته

وصوته ، المسجلة في مربعة المسجلات : اعضاء وأرضاً وملائكة وشهداء ، كما فصلناه في آية الأسرى والزلازل ونظائرها .

وكذلك « عملت من سوء » ولكننا الوجدان في خيره وشره لا يخلق على كل خير وشر ، وإنما الخير الباقي غير الحابط ، والشر الباقي غير المكفر ، كما استثنى آيات التكفير والغفر والإحباط .

ثم الخير هو بنفسه ثواب كما الشر بنفسه عقاب ، فـ « إنما تجزون ما كنتم تعملون » حيث تبرز ملكوت الخير والشر ، مهما كان جزاء الخير فضلاً وجزاء الشر عدلاً .

ولماذا « تود .. امدأ بعيداً » في السوء ترجياً للمفاصلة الزمنية البعيدة ، دون المفاصلة الواقعية وهي هي المخيفة قريبة أم بعيدة ؟ .
لأنه لا يجد هناك مفرأ عما عمل من سوء حيث يراه لزامه على اية حال ، فيترجى - لأقل تقدير - امدأ بعيداً ، يرتاح فيه عن بأسه .

فالعامل السوء كالقرين السوء لا مفر عنه ولا مفلت إلا ترجى البعد عنه لفترة كما : « نقيض له شيطاناً فهو له قرين .. حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » (٤٣ : ٣٨) .

وعلى « يحذركم الله نفسه » هنا المكررة بعد الاولى ، تعني في كل معناه ، فالاولى تحذير عن موالاة الكفار ، والثانية تحذير عن كل الشرور ، إضافة الى ما تحمله الثاني من شديد الحذر حين تبرز الاعمال كما عملت فلا مجال لناكر او عاذر ، وقد حذرت الاولى عن وبال الاولى .

ثم « والله رؤوف بالعباد » تزويد للخيرات في فضل الجزاء ، ورأفة في عدله ، انه يعاقب اقل ما تستحقه المعصاة ، لحد لا يستوجب الظلم بحق المتقين .

ومن صالح الاعمال وركيزتها اتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
على مدار حب الله :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿ (٣٢)

و « هل الدين إلا الحب » (١) فان الدين العقيدة والطاعة هو خلفية
واقعية لواقع الحب ، حيث الحب - مكانه القلب - ليس دعوى باللسان ، ولا
هياماً بالوجدان ، إلا بما يظهر من الجنان على الأركان ، والا فهو حب جاهل ،
ام كاذب قاحل .

ان حب الله في أية درجة من درجاته لا دور له إلا بآثاره الظاهرة كما
الباطنة ، وهي اتباع الله ، ولا موقع لاتباع الله إلا باتباع رسول الله ، إذ ليس
الله ليوحى إلى محبيه إلا الرسل ، فانما يحب الله من يحبه إذا اتبع رسوله الحامل
لشروط حبه « فاتبعوني يحببكم الله » ف « من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو
رد » (٢) .

واذا كانت لكم ذنوب « ويغفر لكم ذنوبكم » بذلك الإتيان « والله غفور
رحيم » يغفر سيئاتكم اذا تركتم الكبائر ، ومن اكبر الكبائر التولي عن رسول الله
مع الإدعاء انك تحب الله : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم
سيئاتكم » .

فاتباع رسول الله على ضوء حب الله هو الإيمان ، والتولي عن رسول الله
وان كنت تدعي حب الله هو من الكفر « قل أطيعوا الله » في محكم كتابه وفيما

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٦ في كتاب الخصال عن سعيد بن يسار قال قال أبو عبد الله (ع) : هل الدين

إلا الحب إن الله تعالى يقول : « إن كنتم تحبون الله ... » .

(٢) في ظلال القرآن ١ : ٥٧٠ .

امر من طاعة رسوله « والرسول » رسالة من الله « فان تولوا » عن طاعة الله ورسوله ، او طاعة الله او طاعة رسوله « فان الله لا يحب الكافرين » .

هنا « يجيبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » لا تتعلق إلا بـ « فاتبعوني » فالحب الفاضلي عن اتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو حب لا يُتبع حب الله وغفرانه ، فانه تعالى يحب من يحبه إذا اتبع مرضاته ، بل وليس الحب إلا في اتباع مرضاته ، والحب الفارغ عن مرضاته فارغ عن حبه ومرضاته ، بل هو مجرد إدعاء جوفاء لا تحمل من الواقعية شطراً إلا الدعوى .

واذا كان حب الله لا يفيد إلا باتباع شرعته ، فبأحرى لا يفيد حب الرسول وذويه إلا بنفس الإتياع ، و « حب علي حسنة لا يضر معها سيئة » لا تعني - إن صحت - انه الحب فقط ، بل لا تأتي معها سيئة حتى تضر ، او لا تضر معها الصغائر لانه من كبائر الحسنات كما « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » .
وقد يروى عن الصادق (عليه السلام) قوله : « ما أحب الله من عصاه ثم تمثل بقوله :

تعصي الإله وانت تظهر حبه هذا لعمرى في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعت إن المحب لمن يحب مطيع^(١)

فالحب من خلفيات الإيمان ، والطاعة من خلفيات الحب ، مثلث لا تفارق في زواياها وحواياها إلا فصلاً عن صادق الإيمان .
فالناس في حب الله على ضروب شتى .
١ منهم من يؤمن به ولا يحبه نتيجة الإيمان .

(١) في المعاني عنه (ع) وفي الكافي عنه (ع) في حديث قال : ومن سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبرعنا ألم يسمع قول الله عز وجل لنبيه « قل إن كنتم ... » وفيه عنه (ع) لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا باصابة السنة .

٢ ومنهم من يحبه كما يؤمن به ولا يطيعه .

٣ ومنهم من يطيعه على حبه والايمان به ولكنه على خلاف طاعة رسول
(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهؤلاء هم شرع سواء في ان الله لا يحبهم ولا
يغفر لهم سيئاتهم .

٤ ومنهم من يطيع رسوله على حب الله والايمان به ، تنبيهاً لحياته على تلك
الطاعة ، وهم - على درجاتهم - ممن يحبهم الله ويغفر لهم سيئاتهم .

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا
حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُمَّ إِنِّي لَكَ هَذَا هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ^ط قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ^ط إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ
 قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا
 بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾
 قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي
 عَاقِرٌ ^ط قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ
 لِي آيَةً ^ط قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا
 رَمْزًا ^ط وَآذْكُر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾
 وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
 وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ
 وَاتَّجِدِي وَارْكِبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
 الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ
 أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣)
 ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

« آدم » هنا وفي سائر القرآن هو الوالد الأول من هذا النسل الأخير ، كما هو لائح في سائر القرآن دون ريب حيث جيء باسمه الخاص هذا (٣٥) مرة .

وترى اصطفاؤه يلوح انه كان معه اوادم آخرون ، فاصطفاه الله من بينهم رسولاً ، فليس - اذاً - هو الوالد الأول اذ قد يكون هو من مواليدهم وهذا النسل الانساني متصل مقسماً بينهم ؟ وليست قضية اصطفاؤه ذلك المارف الخارف ان هناك كان اوادم آخرون لم يكن هو والدهم ، حيث الإصطفاء المطلق وفي حقل الرسالة كما هنا لا يقتضي المجانسة بين جمع ، بل يعني اصطفاؤه من بين سائر الخليقة ليكون حامل لواء الدعوة الربانية بين المكلفين ا حيث الرسالة الى العالمين خاصة بالإنس أصالة مهما كانت في الجن أيضاً كفروع للرسالة الإنسانية الى قبيلهم قبل اختتام الوحي .

اذاً فلا بد في الاصطفاء الرسالي من اجتناء الأصفي بين عامة المكلفين ، حتى يصلح الرسول المصطفى لحمل الرسالة الى العالمين اجمعين .

فالله اصطفاؤه من بين قريته زوجة وإبليس وذريته الابالسة وسائر الجن حيث « الجن خلقناه من قبل من نار السموم » (١٥ : ٢٧) ومهما كان الإصطفاء بحاجة إلى عديد ، فقد يكفي له إثنان يُصطفى أحدهما على الآخر ، فضلاً عن آخرين - سوى زوجة - من قبيل الجن ككل .

وليس اصطفاؤه حين خلقه حتى يقال فكيف ذلك الاصطفاء ولما يخلق زوجة ؟ وانما كان بعد عصيانه وهبوطه وتوبته وتوبة الله عليه : « وعصى آدم ربه فغوى » . ثم اجتناء ربه فتاب عليه وهدى « (٤٠ : ١٢٢) واجتنائه هو اصطفاؤه وهو مرحلة تالية لعصيانه فتوبة الله عليه ليتوب وتوبته الى الله وتوبة ثانية من الله عليه قبولاً لتوبته ثم هدايته الى ما قبل عصيانه من طهارته ثم يأتي دور اجتنائه واصطفائه (٤١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٨ في ميون الاخبار في مجلس الرضا (ع) عند المأمون مع أهل الملل والمقالات .

وهكذا يجاب عن غائلة العصيان في الرسول المعصوم ، انه اصطفى رسولاً بعد توبته النصوح ، الكاملة الكافلة لتركه على طول خط الحياة الرسالية ، كما فصلناه في طه والبقرة ، وهنا الاصطفاء الاول لآدم يعني الاولى الزمنية ، لا في الرتبة .

ثم « نوحاً وآل ابراهيم وآل عمران » المصطفين « على العالمين » تشمل كافة المرسلين والنبين ، فنوح - وهو أول اولي العزم - أول من دارت عليه رحي ولاية العزم الرسالية .

« وآل ابراهيم » تعني ابراهيم وآله الابراهيميين رسلاً ونبين ، منذ اسماعيل إلى خاتم النبين وعترته المعصومين صلوات الله عليهم اجمعين^(١) ومنذ اسحاق ويعقوب وسائر الرسل الاسرائيليين (عليهم السلام)، و هنا يختص

« وما أجاب به علي بن محمد بن الجهم في عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم حديث طويل يقول فيه الرضا (ع) أما قوله عز وجل في آدم « وعصى آدم ربه فغوى » فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده ، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض وعصيته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله عز وجل ، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عز وجل « إن الله اصطفى ... » .

وفيه في باب مجلس آخر للرضا (ع) عند المأمون في عصمة الأنبياء حديث طويل وفيه يقول : وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنوب كثير استحق به دخول النار وإنما كان من الصفات الموهوبة التي تمهوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتبه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا بذنوب صغيرة ولا كبيرة قال الله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » ثم اجتبه الله تعالى عليه وهدي « وقال عز وجل : « إن الله اصطفى آدم ... » .

(١) الدر المنثور ٢ : ١٧ - أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله « وآل ابراهيم » قال : هم المؤمنون من آل ابراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد (ص) ، وفيه عن قتادة قال : ذكر الله أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ففضلهم على العالمين فكان محمد (ص) من آل ابراهيم (ع) .

بالذكر « آل عمران » اعتباراً بمريم العذراء الطاهرة المعصومة وابنها المسيح (عليهما السلام) حيث المسرح هنا في سورة آل عمران سرد القصص الفصل لآل عمران .

فلا يعني عدم التصريح بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا تسريحاً له عن موقف الاصطفاء الخاص ، كما ولم يصرح بإسحاق ويعقوب وموسى وسائر الرسل الاسرائيلين ، وموسى هو رأس الزاوية الرسالية بينهم ، وقد يأتي في نفس السورة التصريح بان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) إمام النبيين اجمعين ، - مهما لم يكن أمامهم - في آية الميثاق .

« ذرية » انتشأ « بعضها من بعض » نشأة الروح القدسية مع نشأة الجسم « نور على نور »^(١) فليست نشأة الجسم - فقط - عن جسم بالذي يؤهل الناشئ للقدسية الروحية التي هي في المنشأ « والله سميع » مقالات السائلين وسواهم « عليهم » بحالاتهم ومؤهلاتهم فينشئ الذرية الرسالية عن الرسل .

هذا - والى نظرة تفصيلية في آية الاصطفاء نقول : الاصطفاء هو اخذ صفوة الشيء تخليصاً له عما يكدره ، والصفوة الربانية هي العصمة لا محالة للرسل أمن سواهم ممن يخلفهم في حمل الدعوة الرسالية المعصومة العاصمة لها عن الانزلاق والانحياق .

فقد يشمل الاصطفاء هنا آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المعصومين وهم ورثة الكتاب بعده ، المصطفون في نص آخر : « والذي اوحينا

(١) المصدر أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام أن علياً (ع) قال للحسن (ع) : قم فأخطب الناس ، قال : إني أهابك أن أخطب وأنا أراك فتغيب عنه حيث يسمع كلامه ولا يراه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه وتكلم ثم نزل فقال علي (ع) « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

اليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير . ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات يا اذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (٣٥ : ٣٠) .

واصطفاء آدم ونوح دون آل آدم وآل نوح - ويعدهما آل ابراهيم وآل عمران - مما يلمح باختصاصه بهما دون آلهما ، اذاً فلا نبي من آل آدم ونوح ام لا مصطفى منهما ، وهناك شيث وهابيل وادريس ؟ .

قد يعني الاصطفاء قمته في كل دور رسالي ، فأدم نفسه هو المصطفى في الدور الاول الرسالي ككل ثم النبيون بينه وبين نوح كادريس لم يكونوا من آله مهما كانوا من ذريته .

ولكن ادريس من آله كما محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من آل ابراهيم ، وعدم ذكر ادريس شخصياً ولا ضمناً في آل آدم لا يدل على حساسة شأنه وله خصاصة النبوة السامية أعلى من آدم ، واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً .

وعلى عدم ذكره كما لم يذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وسائر النبيين لان المقام مقام ذكر آل عمران عرضاً عريضاً لقصة مريم وعيسى (عليهما السلام) ، ولذلك طوي عن ذكر اسحاق ويعقوب وموسى (عليهم السلام) .

كما وان الآل لا يذكر لشخص واحد ، فآل آدم ليس ليعني خصوص ادريس ام آدم وادريس ، ولم يأهل لذلك الاصطفاء غير ادريس من ذرية آدم (عليهم السلام) .

اجل - ولأن وراثه النبوة المصطفاة ليست من وراثه الدم ، إنما هي وراثه

العقيدة مهما حلت في وراثته الدم « ذرية بعضها من بعض » في الوراثةين وأهمها الثانية .

ونوح هو المصطفى في الدور الأول من ولاية العزم ، ولم يرسل أحد من ولده الخصوص .

ثم الال لغوياً كما يعني أخصاء الشخص ، كذلك شخصه اعتباراً بكونه عماداً لأخصاءه ، فـ « آل كل شيء شخصه » و « الخشب الذي يعتمد عليه الخيمة » و « آل الجبل أطرافه » .

إذا فـ « آل إبراهيم وآل عمران » هما شخص إبراهيم وعمران عمودين لخيمة الأخصاء ، وقد جاء بجمع المعنى في الذكر الحكيم كـ « آل ياسين - آل موسى - آل هارون - آل يعقوب - آل لوط وآل فرعون ، عناية إلى الخيمة بعمودها ، دون الخيمة بلا عمود ، ولا العمود بلا خيمة .

ثم ولا يختص الال : الأخصاء ، بالأخصاء في النسب ، فعلي (عليه السلام) هو من آل محمد وأفضلهم وليس في النسب ، وسائر ولد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سوى الصديقة الطاهرة هم من آلهم بواسطتها^(١) و « آل فرعون » - ولم يكن له ولد - هو من صارم الدليل على عدم

(١) نور الثقلين ١ : ٣٢٩ في كتاب كمال الدين ونظام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) حديث طويل يقول فيه : فلما قضى محمد (ص) نبوته واستكمل أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا محمد قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فلجعل العلم الذي عندك والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة عند علي بن أبي طالب (ع) فإنه لم أقطع العلم والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة من العقب من ذريتك كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم وذلك قوله عز وجل « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

اختصاص آل عمران باختصاص النسل .

وهنا « آل إبراهيم » قد يشمل كافة الانبياء وسائر المعصومين الابراهيميين ، حيث الكل كانوا من نسل إبراهيم منذ اسماعيل واسحاق وإلى خاتم النبيين وعترته المعصومين ، ولا يعنى اختصاص « آل عمران » بعد « آل إبراهيم » إلا سرداً طويلاً للعمرانيين : مريم والمسيح (عليهما السلام) .

ولقد اختص آل محمد (عليهم السلام) من بين آل إبراهيم بذكر خاص في اخلص دعاءه وأخصه : « واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. » (٣ : ١٢٩) .

ثم اصطفاه آدم (عليه السلام) من براهين رسالته كما « ثم اجتباه ربه » و « إنا ياتينكم مني هدى » تسانداً منزلة الرسالية .

وهل يشمل « آل عمران » آل عمرانين ، عمران أبي موسى وعمران أبي مريم ؟ قد لا يعنى إلا الثاني ، اذ لم يأت في القرآن - ولا مرة يتيمة - ذكر من أبي موسى ، ثم وبينه وبين أبي مريم (١٨٠٠) سنة ، ولا تصح عناية الجنس من عمران ، الخاص بهما ، حيث العبارة الصالحة له « آل عمرانين » والا لشمّل آل كل عمران في العالمين .

هذا - ولا سيما ان الآية التالية تخص آل عمران أبي مريم : « اذ قالت امرأة عمران .. » فلا دور - اذاً - لآل عمران أبي موسى هنا ، على انه لم يرسل احد من ولد موسى ولا آله إلا هارون (عليه السلام) .

ذلك ! فلم يكن لذكر محمد وآله (عليهم السلام) هنا دور خاص مهما كانوا هم المدار في كل الأدوار ، فلا موقع - اذاً - لمختلق الاحاديث القائلة ان « آل محمد » اسقطت عن الآية (١) ام ابدل عنها بـ « آل فرعون » (٢) وانما

(١) في المجمع وفي قراءة أهل البيت « وآل محمد على العالمين » وقالوا أيضاً : إن آل إبراهيم هم آل -

الصحيح هو نص الآية وعلى غرارها وقرارها رواية ثالثة^(١) هي المصدقة لموافقة القرآن .

= محمد الذين هم أهله ، أقول : القالة الثانية تصدق تأويل الأولى أنها تعني التأويل ، دون تحريف التنصير في لفظ الآية .

وفي نور الثقلين ١ : ٣٣١ عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (ع) قال قلت له : ما الحجة في كتاب الله أن آل محمد هم أهل بيته ؟ قال : قول الله تبارك وتعالى : إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد - هكذا نزلت - على العالمين . . أقول : قد يعني نزول التأويل دون التنزيل .

والقمي عن الباقر (ع) فأسقطوا آل محمد من الكتاب .

وفي تفسير البرهان ١ : ٢٧٩ عن أيوب قال سمعتني أبو عبد الله (ع) وأنا أقراء : إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، فقال لي : وآل محمد كانت فمحوها وتركوا آل إبراهيم وآل عمران .

وفيه عن تفسير الثعلبي رفعه إلى أبي وائل قال قرأت في مصحف ابن مسعود : . . وآل محمد على العالمين . .

(٢) في تفسير البرهان ١ : ٢٧٨ عن هشام بن سالم قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران » فقال : هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين فوضعوا إسمائهم مكان إسم .

(١) المصدر في أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله (ع) قال قال محمد بن أشعث بن قيس الكندي للحسين (ع) يا حسين بن فاطمة أية حرمة لك من رسول الله (ص) ليست لغيرك ؟ فتلا الحسين (ع) هذه الآية إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض . . قال : « والله إن محمداً لمن آل إبراهيم والعتره الهاذية لمن آل محمد . . » .

وفي تفسير البرهان ١ : ٢٧٧ بسند متصل عن أبان بن الصلت قال : حضر الرضا (ع) مجلس المأمون وقد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان . . . قال المأمون هل فضل العتره على سائر الأمة ؟ فقال أبو الحسن (ع) إن الله عز وجل أبان فضل العتره على سائر الناس في محكم كتابه فقال المأمون وأين ذلك من كتاب الله ؟ فقال الرضا (ع) في قوله عز وجل « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض » قال : يعني أن العتره =

وقد تؤول الأولى باسقاط التأويل ، ان جماعة من المحرفين الكلم عن مواضعه اسقطوا تأويل آل ابراهيم عن آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم افضل آله .

وكذلك الثانية انهم فضلوا آل عمران على آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنهم المذكورون هنا دونهم .

والاصطفاء على العالمين درجات ادناها عالمي زمان المصطفى كما في آدم واوسطها عالمي دور رسالته كما لنوح وابراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) ، واعلاها عالمي كل زمان كما في محمد المصطفى وآله المعصومين صلوات الله عليهم اجمعين .

ذلك - ولأن « العالمين » الطليقة تشمل كل الكائنات العاقلة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، فالاصطفاء المحمدي الطليق يخلق عليهم كلهم ، كما ان الاصطفاء الخاص بعالمي زمن آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران يشمل مثلث الإنس والجن ومن لا نعرفهم تماماً .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٥) .

في « عمران » معاكسة النقل بين القرآن - حيث يعنيه أبا مريم - وبين التوراة اذ تعنيه ابا موسى : عموام بمعنى قوم الله - ابو موسى

ـ داخلون في آل ابراهيم لأن رسول الله (ص) من ولد ابراهيم وهو دعوة ابراهيم ، وفيه عن الحجة (ع) لما يقوم الاستدلال بالآية كماهيه ومثله رواه العياشي عن سدير عن أبي جعفر عليها السلام . هذا - وبمجموع الأحاديث الموافقة لنص الآية الآية إحدى عشر حديثاً ، وفي أربعة إضافة آل محمد وفي واحد تبديل آل محمد بآل ابراهيم ، والأولى هي المصدقة ولو كانت أقل عدداً ويُردُّ إلا ما يخالف الآية حيث الأصل هو القرآن المتواتر الموجود .

(الخروج ٦ : ١٨ - ٢٠) وتبديل الميم بالواو وهو من قضايا التعريب .

ولقد حمل هذا جماعة من المبشرين الكنسيين الى تزيف عمران القرآن انه انحطاً (١٨٠٠) سنة ! وما اجهلهم اذ زعموا اختصاص « عمران » في تاريخ الإنسان بابي موسى ، فلا يحق لأبي مريم او سواه ان يسمى عمران ، لا لشيء إلا أن عمرا التوراة هو ابو موسى .

« قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محرراً » اذ زعمت ان ما في بطنها ذكر يصح تحرره لخدمة بيت الله دون خروج عنه وعليها وُعدت بذكر^(١) او عليها نذرتة هكذا ان كان ذكراً لكي يرزقها الله ايها ، والظاهر هو الاول لمكان الإطلاق وتأييده الرواية .

ومما يعنيه ذلك التحرر المنذور هو التحرر عن حقوق الأم المعيشية ، ثم التحرر عن كل عملية سوى خدمة بيت الله ، مما يدل على ان للام على ولدها حق يجوز التنازل عنه لحق أولى بنذر وسواه .

ولان الاب او الجدة هما الاولى بالولد - مهما كان للام عليه حق - ففضية التحرر المطلق هنا انها كانت منفردة في هذه الولاية لفقد الاب والجدة ، ام كانت هي مأذونة من قبل الولي الاولى في نذرها لمطلق التحرر ، ام لا يشترط في نذر الام اذن الاب مهما اشترط عدم منعه ولكنه لا يجوز له منعها عما يحل ولا سيما ذلك الحل الطيب لبيت الله .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٣٤ عن الكافي عن أبي عبد الله (ع) قال : إن الله أوحى إلى عمران إني واهب لك ذكراً سوياً مباركاً يرى الأكمة الأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل فحدث عمران امرأته حنة بذلك وهي أم مريم فلما حملت كان حملها عند نفسها غلام فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى ولا تكون البنت رسولاً يقول الله « والله أعلم بما وضعت » فلما وهب الله لمريم عيسى كان هو الذي بشر به عمران ووعدته إياه ، فلماذا قلنا في الرجل منا شيئاً فكان في ولده أم ولد ولده فلا تنكروا ذلك .

فعل اية حال انها نذرت هكذا مما يدل على صحة ونفاذ هكذا نذر بحق الولد شرط الحفاظ على حق الولي الاولى - ان كان - وكذلك صالح الولد ولا اصلح له من خدمة الله .

« فتقبل مني » ذلك النذر ، تقبلاً لتحرره لك « انك انت السميع » الدعاء « العليم » بصلاحيات وحاجات العباد .

اجل « محرراً » وما ادراك ما ذلك التحرر ؟ انه خروج عن رقية الناس إلى رقية إله الناس فهو - اذاً - تحرر عما سوى الله « والمحرر للمسجد لا يخرج منه أبداً » (١) .

والنذر لغوياً هو الخوف كما الانذار هو الإخافة ، اذاً فهو الخوف من الله إماً شكراً لله أن توجب على نفسك امرأً لله محبواً لدى الله استزادة في العبودية كما فعلته امرأة عمران دوغماً شرط على الله ، ومثلها مريم « اني نذرت للرحمن صوماً » (١٩ : ٢٦) حيث لم تشترطاً على الله امرأً في نذرهما لله وتوافقه صحاح عدة (٢) والموثق المخالف غير موثق أو مآول (٣) .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٣٢ عن أبي جعفر عليها السلام قال : إن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً قال : والمحرر ..

(٢) كما في الصحيح « من جعل لله عليه أن لا يفعل محرماً ساء فركبه فليعتق رقبة أو ليصم شهرين متتابعين أو ليطعم ستين مسكيناً » (التهذيب ٢ : ٣٣٦) وفي صحيح الحلبي عن الصادق (ع) إن قلت : لله علي فكفارة يمين (الكافي ٧ : ٤٥٦) وفي ثالث « ليس من شيء هو الله طاعة يجمعه الرجل عليه إلا ينبغي له أن يفي به » (التهذيب ٢ : ٣٣٥) وفي رابع « وما جعلته الله تعالى فقي به » (الكافي ٧ : ٤٥٨) . وخامس هو موثق الساباطي عن أبي عبد الله (ع) عن أبيه (ع) في رجل جعل لله على نفسه عتق رقبة فاعتق أشل أو أعرج ؟ قال : إذا كان ممن يساع أجزه عنه إلا أن يكون ساء فعليه ما اشترط » (التهذيب ٢ : ٣٣٥) .

(٣) وهو موثق اسحاق بن عمار قال قلت لأبي عبد الله (ع) : إني جعلت على نفسي لله شكراً ركعتين =

ام توجهه على نفسك شرط ان يستجيبك الله فيما تخاف من إقبال محظور أو إدبار مجبور وأنت لا تستطع بحولك وقوتك ان تحصل على بغيتك فيها ، حيث الوصول الى المغزى والحصول عليها قد لا يكتفى فيه بصرف الدعاء ، فلا بد من تقريب قربان الى الله وهو كل مجبور لدى الله مندوباً او مفروضاً ، وهذا هو مسرح النذر وشبهه من عهد او يمين .

ثم ولا نذر إلا لله كما هنا وفي مريم ، ونية القربة هي لزام كون النذر لله ، فإذا نذر لغير الله ، ام نذر لله دون نية القربة الى الله ، فلا نذر - اذاً - ولا يفرض عليك امراً .

ومما يشترط في النذر مشروطاً وغير مشروط إمكانية متعلقه واقعياً وشرعياً ،

« أصليهما في السفر والحضر فأصليهما في السفر بالنهار ؟ فقال : نعم ، ثم قال : إني لأكره الإيجاب أن يوجب الرجل على نفسه ، فقلت إني لم أجعلها علي إنما جعلت ذلك على نفسي أصليهما شكراً لله ولم أوجبهما على نفسي أفأدعهما إذا شئت ؟ قال : نعم » (الكافي ٧ : ٤٥٥) والتهذيب ٢ : ٣٣٣) أقول : عل « إني لأكره » لأن متعلق النذر كان حرجاً ، ولكن المتعلق المحرج لا يصح نذره .

وأما موثق سماعة سألته عن رجل جعل عليه إيماناً أن يمشي إلى الكعبة أو صدقة أو نذراً أو هدياً إن هو كلم أباه أو أمه أو أخاه أو زارهم أو قطع قرابة أو مأثماً يقيم عليه أو أمراً لا يصلح له فعله ؟ فقال : لا يمين في معصية الله إنما اليمين الواجبة التي ينبغي لصاحبها أن يفي بها ما جعل الله عليه في الشكر إن هو عافاه الله من مرضه أو عافاه من أمر يخافه أو رد عليه ما له أو رده من سفره أو رزقه ورزقاً فقال : لله علي كذا وكذا شكراً ، فهذا الواجب على صاحبه وينبغي له أن يفي به » (التهذيب ٢ : ٣٣٥ والاستبصار ٤ : ٤٦) أقول : إنه في مقام بيان بطلان هذه التعهدات في معصية الله ، وأخيراً مثال فيما يصح فيه التعهد كاليمين المنوى هو كذا وكذا ، وحتى أذاب كان صريحاً في بطلان النذر غير المشروط لكان معارضاً للآية والصالح المتعددة الماضية ، كما وأن « في الشكر » يعم الشرط وسواه وإن مثل بالشرط أقول : والمصدق المتيقن المعلوم من « لله علي » هو النذر ، مهما شمل البعض منها اليمين والعهد أيضاً .

وكونه راجحاً في شرعة الله دوغماً حرج في تحقيقه ، فغير الراجح لا يحق لله ، والمُحرج ليس من دين الله فـ «ما جعل عليكم في الدين من حرج» فضلاً عن غير المقدور أو المحذور فانه هزة بالله أو مهانة لله أن تقدم له ما نهى عنه تحذيراً أو تنزيهاً ، بل وما هو عوان بين الراجح والمرجوح .

والنذر في فعل الراجح أو الواجب أو ترك المرجوح المحرم يعم المشروط وسواء ، والنتيجة اصل الوجوب أو ضعفه أو اصل الحرمة أو ضعفها ، وخلفيته في تخلفه دينياً هي الكفارة وأخروياً هي العقاب ان لم يشب ويكفر . وكافة الشروط في النذر غير المشروط هي مشروطة في المشروط ، إلا رجاحة المتوقع ، فلأنما يكفيه السماح الشرعي بإباحة أم دونها .

فالفارق بين المتعلق والمتوقع في الشروط إنما هو شرط الرجاحة في الأول دون الثاني اذ لا نذر إلا في طاعة الله ، ثم الامكانية مشتركة بينهما ، ولكن القدرة غير المخرجة خاصة بالمتعلق دون المتوقع ، حيث المتوقع خارج عن قدرتك مقدوراً لله غير مستحيل كونياً ولا شرعياً ، ولكن المتعلق شرطه كونه ميسوراً عندك دون حرج واقعياً وشرعياً .

فتوقع المحذور من الله ، كما المستحيل على الله حكمة أم سواها ، هو توقع محذور .

كما المتعلق غير المقدور واقعياً أو المحرج أو غير الراجح شرعياً هو محذور أو غير مشكور ، حيث النذر في الأساس يتبنى الخوف من الله كما في غير المشروط ، أو الخوف مما ترجوه ولا تسطع عليه ، والكل مشروط بعدم الحظر واقعياً ولا شرعياً ، مهما اختص متعلق النذر بالراجح الميسور ، والمتوقع يُكتفى فيه بعدم الحظر .

فكما لا نذر الا الله ، كذلك لا نذر فيها ليس راجحاً في شرعة الله مهما

كان المتوقع - كما في المشروط - لا يشترط فيه إلا عدم الحظر واقعياً وشرعياً .
 فإذا نذر راجحاً أو واجباً في متوقع محذور فهو محذور لا ينعقد ، كما وإذا
 نذر مرجوحاً في متوقع مجبور لم ينعقد ، أو نذر فعلاً محرماً فعلاً فيما دون حرجه
 ينعقد وفي غيره غير منعقد ، وشرط الصحة في النذر المشروط عدم تحقق شرطه
 قبله، فإذا لا مورد لشرطه وكما في الصحيح (١) .
 والصيغة السائغة الصائغة للنذر هي « لله علي » لا سواها كـ « علي » إذ لا
 نذر إلا لله ، وأما أن يعاهد نفسه على أمر دون أن يعاهد الله عليه فلا نذر ،
 سواء أكان في نذر مشروط أو غير مشروط (٢) ولا « علي نذر » ولا « لله علي
 نذر » (٣) فإن النذر ليس مورداً للنذر .

(١) وهو صحيح ابن مسلم عن أحدهما عليهما السلام سأله عن رجل وقع على جارية له فارتفع حوضها
 وخاف أن تكون قد حملت فجعل لله عتق رقبة وصوماً وصدقة إن هي حاضت وقد كانت الجارية
 طمشت قبل يوم أو يومين وهو لا يعلم ؟ قال : ليس عليه شيء (الوسائل ب ٥ من كتاب النذر
 ح ٢) ومثله خبر جميل بن صالح (الصحيح (١))

(٢) كما في صحيح منصور بن حازم عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا قال الرجل علي المشي إلى بيت الله
 وهو عزم بحجة أو علي هذي كذا وكذا فليس بشيء حتى يقول : لله علي المشي إلى بيته أو يقول :
 لله علي أن أحرم بحجة أو يقول : لله علي هذي كذا وكذا إن لم يفعل كذا وكذا (الكافي
 ٧ : ٤٥٧ والتهذيب ٢ : ٣٣٢) أقول والحديث مصرح بكلا النذرين مشروط وغير مشروط .

هذا وأما خبر اسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم (ع) قلت له رجل كانت عليه حجة الله سلام فأراد
 أن يبيع فقيل له تزوج ثم حج ، فقال : إن تزوجت قبل أن أحج فغلامي حر فتزوج قبل أن يبيع
 فقال : اعتق غلامه ، فقلت لم يرد بعته وجه الله ، فقال : إنه لا نذر إلا في طاعة الله والحج أحق
 من التزويج وأوجب عليه من التزويج قلت : فإن الحج تطوع ؟ قال : وإن كان تطوعاً فهي طاعة
 لله عز وجل فقد اعتق غلامه (الكافي ٧ : ٤٥٥ والتهذيب ٢ : ٣٣٣) .

أقول : ليس هذا العتق لكونه متعلقاً للنذر ولم يكن هناك نذر ، إنما هو عتق مشروط وقد تحقق
 شرطه كان يقول : إذا جاء زيد فغلامي حر ، فلا رباط للحديث بباب النذر .

(٣) كما في صحيح أبي الصباح الكتاني سألت أبا عبد الله (ع) عن رجل قال : علي نذر ؟ قال : ليس .

وكما يشترط في النذر أياً كان ألاّ يجل حراماً أو يجرم واجباً ، كذلك ألاّ يفوت حقاً مفروضاً كحق الزوج لزوجته وحق الوالدين للولد وحق الولد لهما ، فإن لكل حقاً على الآخر ليس ليفوته نذر مهما كان في راجح أم واجب هو أدنى من واجب الحق الحاضر في شرعة الله ، فلا نذر - إذاً - لزوجته إلاّ بإذن الزوج إلاّ فيما لا يفوت له حقاً عليها أم هي سفيهة فإذا فوت عليه حقاً أم هي سفيهة لم ينعقد نذرها إلاّ بآذنه ، وينعقد فيما سواها ، والصحيح المخالف مأول أو غير صحيح^(١) .

وجملة القول في النذر ان يكون متعلقة مجبوراً مقدوراً دون الحرج ، ومتروكة في مشروطه مسموحاً غير مستحيل هل الله عقلياً أو في الحكمة .

وفي الحق إن النذر ولا سيما المشروط منه داخل في حقل الدعاء ، بل وهو أدعى الدعاء ، حيث تفرض على نفسك ما يرضاه الله حتى يستجيبك الله ما تتقاضاه .

وليس النذر تشريعاً ، فإنما هو سماح من الله أن تفرض على نفسك

النذر حتى يسمى لله شيئاً صياماً أو صدقة أو هدياً أو حجاً ، (الكافي ٧ : ٤٥٥) والتهذيب ٢ : ٣٣٣ .

وفي خبر أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن الرجل يقول : على نذر قال : ليس بشيء حتى يسمى النذر ويقول : عليّ صوم لله أو يتصدق أو يهدي هدياً وإن قال الرجل أن أهدي هذا الطعام فليس هذا بشيء إنما تهدي البدن (المصدر) .

(١) وهو صحيح التهذيب ٢ : ٣٢٠ ليس للمرأة مع زوجها أمر في عتق ولا صدقة ولا تدبير ولا هبة ولا نذر في مالها إلاّ بإذن زوجها إلاّ في حج أو زكاة أو بر والديها أو صلة قرابتها .
أقول : علّه يعني المرأة السفيهة حيث إن تصرفاتها المالية منوطة بإذن وليها زوجاً أو أباً أو غيرها ، وأما الحج والزكاة وبر الوالدين وصلة القرابة ، فهي منوطة وغير منوطة ليست بحاجة إلى إذن حيث لا يضر فيها السفه ، ولا سيما المفروض منها .

راجحاً مهما كان مفروضاً وتحرم على نفسك مرجوحاً مهما كان محرماً مفروضاً ، فهو من العناوين الثانوية من نوع ثان محدد من قبل الله موضوعاً وحكماً وشروطاً ، كما العناوين الثانوية من النوع الاول مقررة من قبل الشرع كالاكراه والاضطرار اللذين هما موضوعان للسماح في قسم من المحرمات .

فلا نذر في معصية الله (١) كما لا نذر في مباح فعلاً او تركاً ولا في فعل مرجوح او ترك مندوب ، اللهم إلا بعنوان ثان يجعلها راجحاً . وكذلك لا نذر في تفويت حق او إفراط أو تفريط في حق ، أو اسراف أو تبذير .

وترى ان نذر الوالدين على الولد منجز بحق الولد كانه هو الذي نذر ؟ ام لا ينجز إلا على الناذر أن يحقق نذره في ولده وعليه القبول قضية وجوب طاعة الوالدين اللهم إلا في أمر مخرج ام مرجوح فضلاً عن المحظور ، وإذا خالف الولد فهو عاص ولا شيء على الوالدين حيث حققا الواجب عليهما ، ثم ومخالفة الولد في النذر المحظور واجبة اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهنا نعرف مدى عمران قلب امرأة عمران ، حيث تتجه الى ربها بكامل الايمان بأعز ما تملكه تحريراً لغريرة عينها لله كما وهي محررة في طاعة الله ، تحرراً عن كل عبودية لكل أحد ، وعن كل اتجاه إلى أي شيء واي أحد وأية قيمة سوى الله ، فقد حررتها بنذرها عن كل تقيّد جماعي بأية مسؤولية حتى تتخلل لخدمة الله في بيت الله (٢) .

(١) كما في صحيح الكتاني عن أبي عبد الله (ع) ليس من شيء هو طاعة الله يجعله الرجل عليه إلا ينهي له أن يفي به وليس من رجل جعل الله عليه شيئاً في معصيته تعالى إلا ينهي له أن يتركه إلى طاعة الله ، (التهذيب ٢ : ٣٣٥ ونوادر أحمد بن عيسى ٥٨ واللفظ له) .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٣١ في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن إسماعيل الجعفي قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام : أن المغيرة يزعم أن الحائض تقضي الصلاة كما تقضي الصوم فقال : ما له لا

فالتوحيد الحق في مثلث : العقيدة والنية والعملية ، هو الصورة المثلثية
للتحرر المطلق ، إنه يتمثل هنا في نذر التحرر لقرة العين وفلذة الكبد : الولد -
ولما يولد - مما يشي بعمق الإيمان وخلوص العمران لقلب امرأة عمران .

ولقد كانت تنتظر لذلك التحرر المنظور المنذور ولداً ذكراً هو المحور في
نذرها ، والنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للذكران ليخدموا الهيكل ويتقطعوا
للعبادة والتبتل ، ولكن ها هي تجدها أنثى وليس الذكر كالأنثى :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ
الذَّكَرَ كَأَلْأُنْثَىٰ وَلَئِنْ سَمِعْتَهُا مَرِيماً وَإِنِّي أَخِيفُهَا بِكَ وَفُرِيقَتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ ﴾ (٣٦) .

لقد تنحسر امرأة عمران على ما كان من خيبة رجائها ومعاكسة تقديرها ،
وتحزنت إلى ربها إذ كانت ترجو ذكراً تنبه محرراً لبيت الله وتقفه على خدمته ،
ولكن الوليدة أنثى والبنيات لا يصلحن لذلك التحرر الطليق ، للزوم مقامهن
عند أزواجهن في زواجهن ، ولزوم الخروج عن بيت الله حالة الحيض والطلاق
على أية حال .

فهنا « .. قالت رب اني وضعتها أنثى » ليست اخباراً « والله اعلم بما
وضعت » بل هو تحسر أنها لا تصلح لذلك التحرر لأنها أنثى ، فقد تناجي ربها
كمعتذرة عن تحررها او كثيية لأنها أنثى ، راجية ان تقبلها ربها على انوثتها كما
تقبلها ، مشفقة من ألا يقبل نذرها .

« وفقه الله إن امرأة عمران قالت : رب اني نذرت لك ما في بطني محرراً ، والمحرر لا يخرج منه أبداً
فلما وضعت مريم قالت رب اني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى فلما وضعتها أدخلتها المسجد
فلما بلغت مبلغ النساء أخرجت من المسجد ، انى كانت تهمد أياماً تقضيها وهي عليها أن تكون
الدهر في المسجد .

هنا « والله اعلم بما وضعت » كجملة معترضة ، هي ذود عن ساحة الرب ان يعلم ، على ذود عن ساحتها ان تعلمه ، وبيان انها قائلة قولها متحسرة في ذلك العرض .

وترى « وليس الذكر كالانثى » هي من قولها ، والعكس احرى لانها وضعتها انثى فليقل « وليست الانثى كالذكر »^١
 ام هي من قول الله ، والجملة المعترضة بحاجة الى برهان لانها خلاف المتعود من سرد الجمل .

قد تكون هي من قول الله اشعاراً في هذه الاذاعة القرآنية ان الذكر المطلوب هنا ليس كالانثى الموهوبة ، بل هي اعل من اولى ، إذ تحمل اضافة الى ما تطلبته من التحرر ، فانها تقبل محررة في نفسها ، ووالدة لعيساها وهما من آيات الله الكبرى ، وليست « وليست الانثى كالذكر » لتفيد ذلك المعنى .

ثم هي من قولها على هامش قول الله ، عناية الى غير معناها : ان الذكر ليس معذوراً كما الانثى ، ~~حيث الانثى لا تصلح للمصلح~~ المصلح له الذكر ولا سيما في حق التحرر هكذا ، لاجل ما يلحقها من الحيض والنفاس ، وما يلزمها من الصيانة عن التبرج للناس ، فإذا خالطت الرجال افتتنوا بها واستضروا بمكانها كما تفتن هي بهم ، حيث النساء أوهن عقوداً ، واضعف عقلية وصموداً ووساوس الشيطان اليهن أسرع ، فأهواءه اليهن أهرع .

ثم العكس يفيد نفس المعنى ولكن في الاصل رجالات ليست فيه :
^١ « وليس الذكر كالانثى » اختصار عن قالتين مختلفتي المعنى : قول الله وقولها ، وليس العكس يعني - فيما يعني - قول الله .

^٢ حسن التعبير في وزن الكلام يقتضي تقديم الذكر على الانثى .

^٣ حسن المعنى في تقدم الافضل على الفضيل .

٤ يتقدم الذكر لتقدمه في عناية النذر فيذكر - اذاً - تحسراً على فقدته .

وانها تتحسر عن فقد الذكر انه ليس كالانثى ، فلا يتهم في خلوة البيت كما تُتهم ، وهو اقوى من الانثى ، وهو خلوة من اعذار الانثى ، وهو يصلح للنسوة وما اشبهها دون الانثى ، و « إني وضعتها انثى » فهل من علاج أن تقوم الانثى مقام الذكر وتفي بما يفى ؟ ! فمما تقوي رجاءها في تحقق بغيتها « وإني سميتها مريم » : المرتفعة الغالبة - تتغلب على عراقيل الأنوثة ونقائصها وضعفها وما سواها ، وترتفع عن كل نقائص الأنوثة والرجولة بجنب الله .

ثم « وإني اعيزها بك » لا هي فحسب بل « وفريتها من الشيطان الرجيم » مما يلمح صراحاً انها ألهمت بمستقبل فريتها ، وعمل « ليس الذكر كالانثى » كقول الرب ألهمت اليها بعد قالتها نفس القول أم عنده .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ مِنْدَها رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنْ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَرْزُقْ مِنْ يَشَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

التقبل هو قبول على تكلف ، واذ لا تكلف في قبول ربنا فقد يعني هنا منتج كل تكلف في القبول ، وهو من ربنا يخلق على كل الفضائل والفواضل في القبول ، فلا رد فيه ولا افول ، بل هو قبول على مدار حياة مريم البتول سلام الله عليها .

فانه تقبل في قبول نذرهما ان تنوب الذكر ، وتقبل في جعلها كالذكر ، ثم حسن زيادة حسنى على قبولها أن جعلها وابنها آية للعالمين .

وهنا نستوحي من تقبلها منعها عن الزواج ، ام وطهارتها عن الدماء ، فلتبق كالذكور وفوقهم اذ لم تحتاج لرزقها الى خروج حيث ضمنه ربها .

هنا تقبل رباني لمريم سلام الله عليها في مربعة الجهات هي :

١ « اني نذرت لك ما في بطني محرراً » « فتقبلها ربها بقبول حسن » محررة لله لخدمة بيت الله .

٢ « واني سميتها مريم » « فتقبلها ربها بقبول حسن » ان تكون مريم : مرتفعة - في اللغة السريانية - غالبية متغلبة على كل رجس ونقص ونجس في أنوثة وعبودية ، وقد تعني تسميتها مريم تفالاً من امها علها تربو على اقرانها وعلى الذكر الذي كانت ترجوه امها تطبيقاً لنذرهما ، ثم لتحقيق هذا المغزى تعيذها بالله وذريتها من الشيطان الرجيم ، تعيذها ان ينالها نقص في سبيلها كما ينال النساء في خدمة البيت ، او ان يصيبها ما تمس عفافها في خلطها بعباد البيت ، او ان يعترضها ضعف في خدمتها ، او تلحقها تهمة في اختلاطها بالرجال .

٣ « واني أعيذها بك » « فتقبلها » معاذةً بالله ، فهو يعيذها من الشيطان الرجيم .

٤ « وذريتها » عيسى (عليه السلام) وهو الأصل في ذلك المسرح حيث يحتل القمة الرسالية والمرتببة الرابعة من ولاية العزم بين النبيين (عليهم السلام) .

فذلك قبول حسن في مربع الدعاء والاستدعاء ، أحسن مما اذا كان ذكراً .

فرغم ان الذكر ليس كالأنثى في قالتها ، « ليس الذكر كالأنثى » في قول الله ، حيث فاقت كل ذكر في تاريخ الرسالات اللهم إلا اولياء العزم ولا سيما محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) .

« فتقبلها . . » ثم « وانبتها نباتاً حسناً » منذ ولادتها حتى حملها ووضعها وإلى موتها ، فقد كانت تترعرع على رقابة الله الخاصة وعينه الحامية لتقبلها محررة مريم معاذةً بربها وذريتها من الشيطان الرجيم ، عصمة ربانية في كل أبعادها إلا الوحي الرسالي .

ولماذا « نباتاً حسناً » بالإنبات ، دون تربية حسنة ؟
 علّه للإشارة الى تحليق المراقبة الربانية لها منذ انعقاد نطفتها وتكاملها جنيناً
 وولادتها والى موتها ، فانها كلها من الإنبات « والله أخرجكم من الارض
 نباتاً » .

فالسلاطة من ماء مهين هي الصفوة المختارة من المني ، ثم المواد الكيماوية
 الكامنة في ماء الرجل والمرأة هي صفوة العناصر الكيماوية المنتزعة من الدم ،
 الذي هو ايضاً بدوره صفوة ما نتناوله من مشرب ومأكّل ، وكل لاحق نابت من
 سابقه حتى السلاطة النطفة ، ثم العلقة والمضغة والعظام واللحم ، كلّ نابت من
 سابقه .

وأخرجنا من الأرض نباتاً له دور عام يعم سائر النسل الانساني ، وآخر
 خاص يخص الأصفياء المخلصين .
 فقد يعني « وأنبتها نباتاً حسناً » كل هذه المراحل ، ولكي تصلح
 للإصطفاء على نساء العالمين وتلد المسيح (عليه السلام) ، فقد جمع في الإنبات
 نباتاً حسناً إلى طهارة الوالدين وطهارتها حين بلغت ، الطهارة الربانية المحلقة
 على كل مراحل إنباتها على طول الخط .

ومن إنباتها النبات الحسن : « وكفلها زكريا » كفالة النبات الحسن والتربية
 اللائقة الرسالية ، فقد جعل الله باقتراعهم كفالتها لزكريا - زوج خالتها - أميناً
 مؤمناً عليها ، مؤمناً بشأنها ، وكان رئيس الهيكل اليهودي من ذرية هارون الذين
 انتقلت اليهم سدانة الهيكل ، فنشأت مباركة مجدودة ، يبيء لها الله من رزقه
 فيضاً متواصلاً .

أترى تلك الكفالة كانت ذات بعدين أولهما خصوص الوحي بشأن كفالته
 اياها ، وثانيهما الإقتراع تأييداً وتأكيداً لذلك الاختصاص ؟ النص ساكت عن

بعدين اثنين ، وعلّ « كفّلها » تعني كفّالته ايهاا بوحى الاقتراع ، سكوتاً عما سكّت عنه النص وذوداً عن ساحة القديسين اختصاصهم في كفّالته بعد وحيها لذكريّا .

هنا فاعل « كفّلها » هو الله وذكريّا المفعول الأوّل ومريم هي الثاني ، حيث الكفل متعدّ بنفسه ، فرغم ان الولد في كفالة الأبوين عرفاً وشرعاً ، ولكن مريم النابتة نباتاً حسناً بحاجة الى كفالة عاصمة معصومة لم يكن يحملها هناك إلا ذكريّا ، مهما تخرج بالقرعة الشرعية من بين القديسين المتنازعين بشأنها .

و « المحراب » كأصل هو محل الحرب فان عبادة الرحمن محاربة الشيطان ، ولان العبادة الخالصة بحاجة الى الانسراح عما سوى الله ، فالمحراب الحرب . هو ايضاً من الحريب : السليب ، يعني عن اشغال الدنيا ، وهو المقدم في كل مسرح « يعملون له ما يشاء من محاريب » فالمحراب معنوياً هو محل الانسراح عما سوى الله لاخلاص عبادة الله بحرب الشيطان ، وهو مكانيا المقصورة في مقدم المعبّد لها باب يصعد اليه بسلم ذي درجات قليلة ، ويكون من فيه محجوباً عن في المعبد ، و « كلما دخل » مما يلمح بهذه الخصوصية لمحاربيها ، وكما يصرح به « اذ تسوروا المحراب » حيث المعبد المكشوف لا يتصور فيه التسور .

والكفالة - ككل - هي من المواضيع الشرعية ، سواء في التربية والحفاظ بدنياً او معنوياً ام مالياً اماهيه مما تصح فيه الكفالة .

واصلها من الكفل : المركب ، في ركب الحياة كبعض او ككل ، وقد تكفّها ذكريّا في مسير الحياة كفيلاً ضامناً عادلاً معصوماً في مسيره الى مصيره « كلما دخل عليها ذكريّا المحراب وجد عندها رزقاً » و « رزقاً » يعني ، رزقاً معيشياً الى رزق معنوي لتكون متحررة عن يرزقها سوى الله مهما كانت للكفالة

الرسالية دورها الفعال على عين الله ورعايته .

اجل « رزقاً » جليلاً لا يُعرف مصدره ولذلك نُكّر ، واحتار زكريا من ذلك الرزق المكروور دونما انقطاع فـ « قال يا مريم أنى لك هذا » أي زمان ومن أيّ والسبل المألوفة له - وأنا الوسيط الوحيد فيها بظاهر الحال - منقطعة عن قمة المحراب ، حيث لا يسمح لأحد غيري ان يدخله ، فـ « أنى لك هذا » ؟ .

« قالت هو من عند الله » بتقطع الاسباب المتعودة ، وكما تحررت عنها في ذلك التحرر « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » نحاسبه نحن في حياتنا المتعودة ، او يحاسبه الله ، مهما كان رزقه بغير حساب بميزان وحساب .

ويا لها من خنوع وخشوع امام العطية الربانية ، احتفاظاً بالسر الذي بينها وبينه ، والتواضع في التحدث عن ذلك الرزق السرّ ، دون اية مباهاة وتنفج وتبهج .

هنا لا نخوض في مواصفة ذلك الرزق ونوعيته ، ولكننا نعلم حسب النص انه « من عند الله » عندية خاصة مباركة طيبة ، مختلفة عن سائر الرزق المؤتلفة ، فليكن من الجنة أم خلق الساعة .

فلا يرد نقد الجمعية الرسولية الامريكية على ذلك الرزق بان « الجنة ليست محل اكل وشرب بل هي محل التقديس والتسبيح وكل تنعماتها روحية » (١) .

اولاً ان « من عند الله » لا تخص الجنة إلا بتأويل ان الله ساكن الجنة فالرزق من عنده ليس إلا من الجنة .

(١) كتاب الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية ٢ : ٣٦ .

ثانياً ان الجنة حسب القرآن والعهدين فيها تنعمات مادية اضافة الى الروحية .

ثالثاً ان هذه الجنة علها جنة آدم والتي صعد اليها المسيح وهي من جنات الدنيا .

ورابعاً ان الرزق من عند الله يعني هنا من غير السبل المتعددة وكما ان الله سخر الغربان لإيليا فكانت تأتيه بلحم صباحاً ومساءً (امل ١٧ : ٤ و ٦) .

كما و « هيا له الكعكة (نوع من الخبز) وكوز الماء فنبهه الملاك للأكل والشرب حتى سار بقوة تلك الأكلة اربعين يوماً » (امل ١٩ : ٥ - ٩) .
واذا هم يستغربون رزق الطاهرة من عند الله جللاً طيباً ، فكيف يستغربون شرب المسيح جديداً من نتاج الكرمة - الخمر - في ملكوت الله (متى ٢٦ : ٢٩ ومرقس ١٤ : ٢٥ ولوقا ٢٢ : ١٨) او عما يأكل منه التلاميذ على مائدة المسيح في ملكوته (لوقا ٢٢ : ٣٠) هذه مريم الطاهرة العذراء تجد عندها رزقاً من عند الله ، وهي منقطعة عن عباد الله ، ثم انظر الى فاطمة الزهراء مولاة العذراء ، حيث تجد عندها رزقاً وتتمثل لأبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) بقول الله عن العذراء با ابت « هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » (١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٢٠ - اخرج أبو يعلى عن جابر أن رسول الله (ص) أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال : يا بنية هل عندك شيء آكله فلأني جائع ؟ فقالت : لا والله ، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وقالت والله لأؤثرن بهذا رسول الله (ص) على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله (ص) فرجع إليها فقالت له : بأبي وأمي قد أتى الله بشيء قد خبأته لك فقال هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت =

هنا ذكرنا المكفل مريم لما يرى هذه الكرامة الربانية لها ، تتحرك عنده الرغبة في ذرية طيبة ، حكمة عالية مرغوبة فيها لامتداد الرسالة في نسله .
﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨) .

انه لم تكن حتى الآن لذكرنا ذرية ، وطبيعة الحال في الدعاء انها عند انقطاع الرجاء ، وانقطاع الأسباب المتعددة لحصول المدعول ، فد « هنالك دعا ذكرنا ربه قال رب » الذي ربيتني بالتربية الرسالية . وهي خارقة العادة « هب لي من لدنك ذرية طيبة » كخارقة أخرى .

و « من لدنك » استيهاب من رحمته اللدنية الخاصة ، ليست كالعادة

= عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحمياً فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي (ص) فلما رآه حمد الله وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟ قالت يا أبت هو من عند الله ...

وفي نور الثقلين ١ : ٣٣٣ عن تفسير العياشي عن سيف بن نجم عن أبي جعفر عليها السلام قال أن فاطمة ضمنت لعل عليها السلام حمل البيت والعجوة والحبز وقم البيت (كنسه) وضمن لها علي (ع) ما كان خلف الباب نقل الحطب وأن يحيى بالطعام فقال لها يوماً يا فاطمة هل عندك شيء ؟ قالت لا والذي عظم حقلك ما كان عندنا منذ ثلاث إلا شيء ونفريك به قال : أفلا أخبرني ؟ قالت كان رسول الله (ص) نهاني أن أسألك شيئاً فقال : لا تسألي ابن عمك شيئاً إن جاءك بشيء عفواً وإلا فلا تسأليه ، قال فخرج (ع) فلقى رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثم أقبل به وقد أمسى فلقى مقداد بن الأسود فقال للمقداد : ما أخرجك في هذه الساعة ؟ قال : الجوع ، والذي عظم حقلك يا أمير المؤمنين (ع) قال : قلت لأبي جعفر عليها السلام : ورسول الله (ص) حي ؟ قال : ورسول الله (ص) حي ، قال : فهو أخرجني وقد استقرضت ديناراً وسأوثرك به فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول الله (ص) جالساً وفاطمة تصلي وبين يديها شيء مغطى فلما فرغت أحضر ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم ، قال : يا فاطمة أرى لك هذا .

بأسبابها العادية « إنك سميع الدعاء » فهو - إذا - تطلب لحرق الأسباب المألوفة في الإيلاد .

فقد حمل زكريا « هنالك » مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية ، الطليقة عن المألوف ، رغم ما نحسبه قانوناً لا يتخلف فنشك - إذا - في كل حادث خارج عن نطاق هذا القانون المزعوم !

فها هو زكريا الشيخ الكبير وزوجه - العاقران - اللذان لم يلدا في صباهما ، هنالك تمجيش في قلبه الرغبة في ذرية طيبة هبة من عند الله ، وحق له وهو يرى بين يديه مريم العذراء الصالحة الرعناء : « وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وانت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » (٢١ : ٩٠) - « ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً . واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً » (١٩ : ٦) .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ إِنَّ اللَّهَ يَبْخِي مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣٩)

« هنا » نادته الملائكة وفي مريم « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى . . » (٧) ولا منافاة بينهما فان الملائكة هم وسطاء في ذلك البلاغ المبين .

والتبشير هنا يحمل مواصفات اربع ليحيى :

١ « مصدقاً بكلمة من الله » هي المسيح عيسى بن مريم ، فانه كلمة قالها من قبل (١) وكلمة دالة على الله تكوينياً حيث ولد دون أب ، وكلمة رسولية

(١) كما في الأصل العبراني (تث ٣٣ : ١ - ٢) « وَزُفْتُ قَبْرًا خَاةً أَشِيرُ بِرُخٍ مُّوْثِيَةٍ لِّيشَ هَا إِلَوْهِمُ إِثْ »

حيث تدل على الله بربانية اعماله وفعاله وقاله، وكلمة رسالية تكلم بها المرسل اليهم ، مربع الكلمات يحملها المسيح (عليه السلام) ولم يحملها كلها سائر الخلق اجمعين ، فقد ولد دون اب ولادة منقطعة النظير في تاريخ الانسان ، وآدم لم يكن وليداً حتى يكون هو الاول في تلك الولادة ، فانما خلق من تراب .

وليس كونه كلمة آية خارقة للعادة من حيث الولادة ، ليفضله على سائر الرسل ، إذ إنها آية أقوى من سائر الآيات المبصرة لأن بني اسرائيل هم أغوى من سائر الامم ، ثم آية القرآن هي اقوى الآيات الرسولية والرسالية على الاطلاق لأنها تخلق على كافة المكلفين منذ بزوغها الى يوم الدين .

٢ « وسيداً » : عظيماً في الحقل الروحي علماً وتقى ، يمتاز عن كثير من رجالات العلم والتقوى ، الرساليين و « سيداً » في كل حقول السيادة الصالحة .
فالتصديق بكلمة من الله ، والسيادة اللاتقة للقيادة ، والحصر عن كل الشهوات ، كل هذه من الشروط الاصلية للنبوة حيث تجمع القيادتين : الروحية والزمنية .

٣ « وحصوراً » مبالغة الحصر ، وهو الحصر عن الشهوات محرمة ومرجوحة ، دون الراجعة في شرعة الله كالنكاح ، خلاف ما يهرف بشأنه

- بني اسرائيل ليفي موتو^(١) ويؤمر يهواه مسيني باو زارخ مسير لأمو هوفيع مهز فاران وآناه مزيبت قديش مي يينواش دات لامو .-

« وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني اسرائيل عند موته^(٢) وقال : الله من سيناء جاء تجهل من ساعير ، تلعلع من جبل فاران وورد مع آلاف المقدسين من يمينه ظهرت الشريعة النارية » .
أقول : وفي دعا السيات : « ويمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبك ورسولك موسى بن عمران وطلعتك في ساعير وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين » .

تبعيلاً له وتنجيلاً لكل هؤلاء الذين تزوجوا من نبيين وسواهم من الصالحين ،
لا ! وإنما « حصوراً » نفسه عن الشهوات واللّهوات المرجوحات ، وحصوراً كل
وجهه بكل وجوهه إلى الله ، فهو حصور في « لا إله » ثم حصور في « إلا الله »
حسراً عما سوى الله وحصراً في الله .

والحديث الخبيث المقتري على الرسول الطاهر الأمين (صلى الله عليه وآله
وسلم) ، المخلق للذنب على الكل إلا يحيى (عليه السلام) لأن ذكره مثل
هدية الثوب^(١) مضروب عرض الحائط حيث يمس من كرامة الخالق للمعورات
والشّهوات المحلّلة ، ومن كرامة الصالحين الناكحين حللاً ! .

اجل ! وقد تعني « حصوراً » فيه فيما تعنيه ، تركه - كما المسيح
(عليه السلام) - للزواج على شبقه ، ترجيحاً لتقدم الدعوة الرسالية على تحقيق
الشهوة المحلّلة ، اذ لم تكن ظروفه لتسمح له بالجمع بين الزواج وتحقيق
الرسالة ، معاكساً لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث اقتضت ظروفه

(١) الدر المنثور ٢ : ٢٢ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساکر عن عمرو بن
العاصي عن النبي (ص) قال : ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله
يقول : وسيداً وحصوراً ، قال كان ذكره مثل هدية الثوب وأشار بأمله .

أقول : ولا يرجى من ابن العاصي إلا هكذا اختلاق معادي على رسول الهدى (ص) .
واختلاق آخر حفاظاً على « حصور » له إيجاباً وعلى غيره سلباً ، أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال
قال رسول الله (ص) أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة وامنت الملائكة رجل جعله الله ذكراً فأنث
نفسه وتشبه بالنساء وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال والذي يفضل الأهمى ورجل
حصور ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى بن زكريا ، أقول : ذكره حصوراً في الذكر الحكيم دليل أنه
من كمالاته الممتازة فضيه إذا نقص وهوذا بالله من هذه الجهالة المزدوجة ! .

وفي نور الثقلين ١ : ٣٣٥ عن المجمع « وحصوراً » لا يأتي النساء وهو المروي عن أبي
عبد الله (ع) .

الرسالية زواجاً وأكثر من الأربع المسموح للأمة تحقيقاً حقيقياً لكرامة الرسالة
بضم عوائل كثيرة الى خفضه ..

إذا ف « حصوراً » المحلق على كل داعية الى الله تختلف ظروفه وطقوسه في
البعض من مصاديقه ، فكما النكاح راجح ام واجب احياناً ، كذلك هو مرجوح
او محرم احياناً أخرى ، والحصور هو الذي يتابع صالح الدعوة وفقاً لظروفها
المواتية المناسبة .

« ونبياً من الصالحين » وترى هناك انبياء غير صالحين حتى يوصف هنا
« نبياً » بـ « من الصالحين » ؟

كلاً ، حيث يعني « نبياً » رفيع الدرجة ، ولأن رفعة الدرجة درجات هنا
يقيد بـ « من الصالحين » يعني المرسلين ، حيث المرسلون درجات والنبيون منهم
أرفع شأنًا وأنبي مكانة ويحيى منهم ، كما و « من الصالحين » آباء وامهات منذ
آدم الى زكريا .

فلقد استجيبت الدعوة الحانية ، المنطلقة من القلب الطاهر الحاني ، الذي
علق رجاءه بسميع الدعاء ، وهو يملك الإجابة كيف يشاء حيث يشاء ،
استجيب في « يحيى » الذي « لم نجعل له من قبل سمياً » - « مصداقاً بكلمة من
الله » اسمه المسيح عيسى بن مريم « وسيداً » كريماً « وحصوراً » يحصر نفسه
عن الشهوات ويملك زمام نزعات من الانفلات ، « ونبياً » رفيع المنزلة « من
الصالحين » الرساليين .

ذلك ! ولكننا نسمعه كأنه يستغرب ما استقر به الله ، استغراباً عن عقره
وزوجه لاعتن رحمة الله :

﴿ قَالَ رَبِّ اَنْ يَكُوْنَ لِىْ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَامْرَاَتِىْ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ
اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤٠) .

ولكن « أنى » سؤال عن زمن تحقيق البشارة ، وليس استفهام انكار واستبعاد عنها ، فلم يقل « كيف - او - اين » وانما « أنى » - ولكي لا تتأخر أكثر مما تأخرت يعرض حاله « وقد بلغني الكبر » وحال زوجه « وامراتي عاقر » فاجيب من فوره بتأكيد البشارة « قال كذلك » البعيد البعيد عن حساب الناس ، العظيم العظيم عند الله « الله يفعل ما يشاء » دون رادع ولا مانع ، فانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون... فلا ينسب إلى اي عاقل فضلاً عن نبي ان يستبعد من رحمة الله ما رجاء ودعاه ولقد كانت « أنى » في موقعها - حين يرى ان البشارة واقعة موقعها - اذ يتهيج بجدارته لها فوزاً بحظوتها ، حاصل على مزيتها ، فتطلب زمن تحققها ، عالماً انه يورق الهشيم ويستتج العقيم .

وهذه طبيعة الحال لمن بشر بما يتمناه ، وهي غريبة عن حاله على رجاءه ان يولد له فرط السرور عند أول ما يهجم على سمعه ما تقاضاه ، استثنافاً في المعرفة وزيادة في الاستبانة ، ولا اقل من استعلام زمن الهبة المبشرة .

اجل و « قال رب انى يكون لي غلام » وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ، (١٩ : ٨) عرضاً لحاله البعيدة عن هذه الرحمة الغالية ، بعد ان دعا ربه « هب لي من لدنك » وهو الرحمة اللدنية الخاصة ، البعيدة عن المألوف تكويناً وتشريعاً ، وهذه شيمة كريمة من الصالحين في دعاءهم عرضاً لفقرهم وغناه ، واستعراضاً لسلب اهليتهم في انفسهم رجاء رحمة الله .

فما اقبحه تاويلاً عليلاً قليلة القائل : ان الله لما بشره بالولد - وكان عنده ان العاقر لا تلد - والعقيم لا تنسل - اعترضه الشيطان حين نادته الملائكة ان ما سمعه انما هو منه لا منهم ، فشك فيما بشر .

وذلك جهل عظيم من قائلة وقلة بصيرة بمنازل الوحي ، فانهم تجهل

أقذارهم عن تلاعب الشيطان بهم ، وان تخطط الندآن عليهم .
 فإذا كانت الملائكة هي التي بشرته كما قال الله ، وقد جرت عادته الرسالية
 باستماع كلامها ، وألف مهبطها ، وثلج صدره بما تؤديه عن ربها ، فأبي عاذرة
 له - اذاً - في ان يعترضه الريب او يختلجه الشك .

ولو كان مرتاباً في بشارته فكيف ينادي ربه فيها « رب انى يكون لى
 غلام .!؟ » .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا
 وَادْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (١١) .

هنا « ثلاثة ايام » وفي مريم « ثلاث ليل » تتجاوبان في مجموع الثلاث
 الليالي والايام .

والآية المطلوبة هنا ليست آية لأصل البشارة كأنه شاك فيها ، وانما في زمنها
 حتى يحضر نفسه في حالة خاصة وهالة من عبادة راصّة لاستقبال تلك البشارة
 والتفصيل الى سورة مريم (عليها السلام) حيث تفصل فيما فصل الله ونجمل
 فيها أجمله الله .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى
 نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٢) .

هنا تُشافه الملائكة مريم الطاهرة المصطفاة وحيّاً دون رسالة تحمل شرعة
 رسالية ، فلم تصيغ به رسالة من الله كالرسل ، وكما « أوحينا الى ام موسى ان
 ارضعيه » وحيان هما تقدمتان لوحين رساليين موسوي وعيسوي
 (عليهما السلام) ، كما والمؤمنون المستقيمون « تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا
 تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي

« الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون »
(٤١ : ٣٠ - ٣١) .

و « اصطفاك » الأولى دون متعلق ، قد تعني غير الثانية فإنها « على نساء العالمين » دونها ، إذ لا تصح « وطهرتك على نساء العالمين » حتى تقبل العطف .
وهذه العناية المختلفة هي طبيعة الحال في تكرار ، ولا سيما بوسيط غير المكرر « وطهرتك » فلتكن الأولى اصطفاً غير التطهير المتوسط وغير الاصطفاء الثاني ، فقد تعني اصطفاً على ذكر تطلبت أمها محرراً ، كما اصطفاها على كل ذكر لا ينجب ولداً دون أنثى وهي أنجبت دون ذكر ، كما واصطفاه من ذرية الأنبياء المصطفين المرسلين ^(١) وإلى سائر الميزات الأنثوية ، ولكنها على قمته بحاجة إلى طهارة قمة تذود عنها مستلزمات تحررها لخدمة البيت خلطاً بالرجال على أية حال ، فلذلك :

« وطهرتك » طهارة مطلقة تناسب الاصطفاء سبباً ونتيجة و « طهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأمها سفايح » ^(١) ومن أن تأتي سفايحاً... ومن ثم الإصطفاء الثاني : « واصطفاك على نساء العالمين » اصطفاً يخلق على كل صفوة سامية ، ومن ذلك اختصاصها في خطاب ربها « يا مريم اقنتي » ^(١) .

أترى أن سعة « نساء العالمين » هي عرض المكان وطول الزمان ؟ فهي - إذاً - مفضلة على الصديقة الطاهرة - وهي خير نساء العالمين من الأولين والآخرين - ! .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٣٦ عن تفسير العياشي عن الحكم بن عتيبة قال سألت أبا جعفر عليها السلام عن قول الله في الكتاب « إذ قالت الملائكة يا مريم ... اصطفاها مرتين وإلاً الاصطفاء إنما هو مرة واحدة ؟ قال : فقال لي يا حكم إن لهذا تأويلاً وتفسيراً فقلت له ففسره لنا أهلك الله فقال : يعني اصطفاها أولاً من ذرية الأنبياء وطهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأمها سفايحاً واصطفاه بهذا القرآن : « يا مريم اقنتي » .

رجالاً ونساءً كما شرحنا عند تفسيرها في آية التطهير بقول فصل ، فهي خير العالمين - كأبيها وبعلمها وبنيتها المعصومين - رجالاً ونساءً ، فهي مفضلة على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) فضلاً عن مريم سلام الله عليها .

وما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ان « افضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون »^(١) لا يعني مساواتهن مع بعض ، وانما فضلهن على النساء ، على تفاضلهن فيما بينهن .

ذلك كما وهي سيدة نساء اهل الجنة لا مريم البتول^(٢) فهي - اذاً - « افضلهن عالماً »^(٣) في الدنيا والآخرة .

ذلك - وليس ذكر مريم سلام الله عليها مرات في الذكر الحكيم وتطهيرها واصطفاءها إلا ذوداً عنها وابنها المسيح (عليهما السلام) ملاسائهما من الشبهات التي لم يتورع اليهود والنصارى ان يلصقوها بهما ، ولا فلا دافع لذكر النساء بأسمائهن في القرآن كما لم يذكرن فيه إلا هي .

مركز تحقيق كاتبة علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٢ : ٢٣ - أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص)
أفضل . . .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله (ص) أن الله اصطفى على نساء العالمين أربعة
آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (ص) ، وأخرج
أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم عن أنس أن رسول الله (ص) قال :
حسبك من نساء العالمين

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله (ص) :
أنت سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول .

(٣) المصدر أخرج ابن عساکر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي (ص) قال :
أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت
محمد (ص) وأفضلهن عالماً فاطمة .

أم ان القدر المعلوم من « العالمين » عالمي زمانها الحاضر ، أم والغابر الى حواء ، واما المستقبل فلا ، فلأن الإصطفاء ماض فـ « العالمين » اذاً ماضون ، فلا يعني إلا ماضيه في الماضين دون الآتين إلى يوم الدين ، فالشمول لمن يأتي بحاجة الى دليل وليس فليس .

صحيح ان العالمين في « رب العالمين » يعمهم كلهم ولكنه بقرينة الرب المخلق ربوبيته على كلهم، واما الخلق فقضية محدوديته هي محدودية العالمين إلا بدليل .

واما الصديقة الطاهرة فهي حسب النص « خير نساء العالمين من الاولين والآخرين » (١) .

وحق لو دل دليل على اصطفاء مريم على كل نساء العالمين - ولن - فآية التطهير ترفع دور فاطمة في العصمة الى القمة المحمدية الفائقة على كل العالمين

(١) مجمع البيان : أي على نساء عالمي زمانك لأن فاطمة بنت رسول الله (ص) سيدة نساء العالمين وهو قول أبي جعفر عليها السلام ، وفي نور الثقلين عن أسامي الصدوق بإسناده إلى النبي (ص) أنه قال أيما امرأة صلت في اليوم والليلة خمس صلوات وصامت شهر رمضان وحجت بيت الله الحرام وزكت مالها وأطاعت زوجها ووالت علياً دخلت الجنة بشفاعتي فاطمة عليها السلام وإنما لسيدة نساء العالمين ، فقول يا رسول الله هي سيدة عالمي زمانها ؟ فقال (ص) ذلك مريم ابنة عمران وأما إيتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين وإنما لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين وينادونها بما نادى به الملائكة مريم فيقولون يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين .

أقول : وهذا النص متواتر من طريق الفريقين تواتراً معنوياً أنها أفضل من نساء العالمين من الأولين والآخرين دوغماً إستثناءً وأنها سيدة نساء أهل الجنة (راجع ملحقات احقاق الحق (١٠ : ٦٩ - ٩٦) وسيدة نساء هذه الأمة (١٠٣ : ١١٥) تجد مئات الأحاديث من طرق اخواننا حيث تعني أفضليتها المطلقة على نساء العالمين في الدنيا والآخرة .

ومكثت بالبيت تعبد ربها متحررة للخدمة ، مخلصه في القيام بالسدانة حتى صارت مضرب الأمثال ، لان ربها « أنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا . . . » .
تقبلها ربها محررة للبيت ولا يحق لخادمة البيت ، المنذور لتلك الخدمة ، المقبولة عند ربها ، لا يحق لها خدمة أخرى ، لزوج وسواه ، فلا تفكر - اذاً - في زواج وسواه ما استلزم الخروج عن البيت ، او خدمته داخل البيت ، ولا تعرضها فكرة الخروج لأية حاجة إذ كانت مكفولة الرب في كل حاجياتها محررة بالبيت .

إذا ففكرة الزواج او اختيار خطيب لها نائية عن خلدها ، بعيدة عن تحررها ، لأنها تنافي ونذر أمها وتقبل ربها بقبول حسن .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٤) .

« ذلك » الذي أنبأناك من القصص « من أنباء الغيب نوحيه إليك » ومنها الإقتراع بشأن من يكفل مريم « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » وذلك بوحي من الله الى زكريا بشأن هذه الكفالة المختصم فيها بين القديسين « وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

فقد كان هناك اختصام بشأن تلك الكفالة الكافلة لصالح مريم سلام الله عليها ، فلأن القرعة لكل امر مشكل ، امروا بذلك الاقتراع حسماً للموقف بما يشاء الله فيه ، وعله دون وحي خاص بكفالة زكريا رعاية لذلك الجمع القديس .

لقد كانت كفالتها فريضة بارزة لموقفها الخاص في تحررها ، فمن يكفلها إذاً بين هؤلاء المختصمين بشأنها وهم كلهم صالحون ؟ لا سبيل صالحة لتلك

ولأن فاطمة سلام الله عليها لم تذكر بأي سوء حتى في السنة اعداءها فلا موجب لذكرها اللهم إلا في جماع الطهارة والعصمة العليا مع أبيها وبعلمها وبنيتها كما في آية التطهير .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤٣) .

ذلك التخصص في خطابها بثلاث القنوت والسجود والركوع لربها ، هو صورة لماعة من إصطفائها على نساء عالمي زمانها وقبلها ، حيث لم تخاطب من قبلها كآسية وسواها بذلك الخطاب الحنون ، فهو خطاب رسالي مهما لم تكن هي من الرسل ، تدليلاً على القمة البالغة فيها مبلغ الرسل ، فتخاطب كما يخاطبون ويوحى إليها كما يوحى إليهم اللهم إلا وحي الرسالة .

« أقنتي لربك » في مطلق الطاعة والعبادة ، ثم في خاصتها التي هي عمود الدين ، المذكورة بأسمى سماتها في جرع المصلين « واسجدي واركعي مع الراكعين » .

مركز تحقيق كتاب توير علوم ردي

فكما السجود والركوع هما معنيان بعناية الصلاة ، كذلك الإتيان بها في جماعة لمكان « مع » الشاملة لكليهما ، وليس جمعها إلا في الصلاة ، فقد تأتي هذه الآية في عداد آيات فرض الجماعة في فرض الصلاة ، كـ « واركعوا مع الراكعين » و « لا جنباً إلا عابري سبيل » وهي سبيل المسجد مكاناً لازماً للصلاة .

فليكن القنوت للرب ، المتمثل كأفضله في الصلاة ، ليكون في جماعة القانتين ، كشعيرة عظيمة جاهرة ليل نهار أمام الناظرين ، فان « مع الراكعين » تعم مثلث القنوت والسجود والركوع .

فلقد نمت مريم وترعرت وشبت واشتد ساعدها وعمر قلبها بتقواها

النعام الذي كان في أصحابه بالقرعة بتعليم الله سبحانه إياه « وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها » واقترع (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أهل الصفة لتخرج إلى من يبعثهم إلى غزوة ذات السلاسل « واقترع (صلى الله عليه وآله وسلم) في غنائم حنين ليخرج سهم عيينة والأقرع ، « واقترع علي (عليه السلام) في الولد الذي كان بين ثلاثة ، وكذلك القرعة لتعين الشاة الموطوءة التي دخلت بين الغنم وليست بمعلومة ^(١) .

وحين يقترع النبيون في المشاكل وهم أصحاب الوحي فاحرى بنا ان نفترع استئناً بسنتهم كما أمضاها الله تعالى .

وفي ناصية الاقتراعات الرسالية ما اقترع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فـ « كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ^(٢) .

كما « فاقرع (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم وألحق الولد الذي أصابته - صارت عليه القرعة » ^(٣) .

« فاقرع بينهم فضمن الذي أصابته القرعة ثلثي الدية » ^(٤) .

(١) سفينة البحار ٢ : ٤٢٥ عن الصادق (ع) وقد رواها كلها عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وقد وردت زهاء ثلاثين حديثاً في مختلف الأبواب في وسائل الشيعة كلها تقول ما معناه « القرعة لكل أمر مشكل » .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٥ : ٣٦٧ ، أخرجه بالفاظ عدة بإتخاذ المعنى عن : خ هبة ١٥ - جهاد ٦٤ - شهادات ١٥ ، ٣٠ - مغازي ٣٤ ، ٥٥ - تفسير سورة ٣٤ ، ٦ - نكاح ٩٧ - م فضائل الصحابة ٨٨ ، توبة ٥٦ ، نكاح ٣٨ ، جه نكاح ٤٧ ، أحكام ٢٠ ، دى جهاد ٣٨ ، نكاح ٢٦ ، حم ٦ ، ١١٤ ، ١٩٧ ، ٢٦٩ .

(٣) المصدر طلاق ٣٢ ، ن نكاح ٥٠ ، جه أحكام ٢٠ .

(٤) المصدر حم ٤ ، ٣٧٣ ، وفيه : إن قوماً اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد .

المصلحة الروحية القمة إلا الإقتراع وهو هنا كان بأقلام الوحي حيث كانوا يكتبون بها ، وما أنسبها بالنسبة لمن يكفل بالوحي ، والدلة لصاحب الوحي العظيم المسيح (عليه السلام) .

ولم يكن اختصاص هؤلاء الكرام عدائياً كاللثام ، وإنما سباقاً إلى رحمة الله وهم رفاق في الله وكما اختصم الملا الأعلى « ما كان لي علم بالملا الأعلى إذ يختصمون » (٣٨ : ٦٩) كما واهل الجنة « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ : ٢٣) .

ولقد جرى في ذلك المجرى قلم زكريا في الماء على خلاف المجرى خرقاً للعادة ، تبييناً انه هو المخصوص هنا بكرامة الكفالة على كرامتهم جميعاً فقضي الأمر كما اراد الله .

وترى ما هي حدود القرعة حكماً وموضوعياً في شرعة الله ؟ .
حين نرى ان الله تعالى يرضى هنا بالإقتراع ولم يشكل عليه حكم ولا موضوع ، وإنما رعاية لجمع القديسين ، فبأخرى لنا الاقتراع حين يشكل لنا أمر في موضوع وقد انقطعت كافة السبل والبراهين لتعيين الموضوع .

لا أقول اننا نستنبط الحكم بالقرعة ، حيث الأحكام العامة مبينة في الكتاب والسنة ، فانما ذلك هو الموضوع المبين حكمه ، المجهول مصداقه ، كواجب الكفالة لمريم (عليها السلام) ، ثم المصداق يتبين بالقرعة والله عالم بالحكم والموضوع ، ولكن المصلحة تقتضي تعيين الموضوع بالقرعة حساً للاختصاص ، وتجنباً عن أي ترجيح بلا مرجح ظاهر .

إذا فالاختصاص - صالحاً وسواء - هو المورد الصالح للاقتراع إصلاحاً للموقف وإيلاً للمختصين ، فأى قضية أعدل من القرعة اذا فوض الأمر الى الله تعالى لقوله « فساهم فكان من المدحضين » « وكما استعلم موسى (عليه السلام)

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِشِرْكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ
 الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ
 الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
 الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
 بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
 يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي
 قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ
 الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَوِّدُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ
 بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم
 إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ
 وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن
 رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ
 مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
 نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
 ءَامِنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾
 وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ
 يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
 الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُخْبَرُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
 فَتَحْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَاذْكُرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاذْكُرْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
 الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٥).

هنا قالت ملائكة لمريم سلام الله عليها بما أوحى الله ، تحمل البشارة بالمسيح (عليه السلام) مولداً ورسالة عالية بآيات لها ، قرأ لعينها وقراراً لقلبها ، وتخفيفاً عن وطئتها بحملها ووضعها دون بعل ، « يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه » .

لقد تهذرت الايام وتهذلت ، ففي يوم ما وهي في محرابها اضطربت نفسها فجأة وداخلتها رهبة لم تعهدا من ذي قبل إذ تظهر أمامها ملاك الرب يبشرونها بوليد لها وجيه في الدارين ، ولا وجه لوجيه وغير وجيه من عذراء لم يمسهما بشر ولم تك بغياً ١ .

في سائر القرآن آيات ثلاث توافف المسيح بن مريم (عليها السلام) بـ « كلمة » ثانیتهـا : « ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله » (٣ : ٣٩) وثالثتهـا : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » (٤ : ١٧١) فماذا تعني كلمة الله بحقه (عليه السلام) ولم يوصف اي نبي ولا خاتم النبيين بـ « كلمة » ؟ .

الكلمة لغوياً هي ما تدل على معنى ، شاملة للألفاظ الموضوعه على معانيها ، والموضوعات الدالة على واضعيها ، والأفعال الدالة على فاعليها وكيانهم فيها ، أماذا من دلالات في دلالات وضعية ام ذاتية ام قصدية أماهيه .

لذلك سميت ذوات محمد والمحمدين صلوات الله عليهم اجمعين اسما هي هي الكلمات « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » كما تقدمت في البقرة .

ذلك - إلا ان اختصاص المسيح (عليه السلام) بوصف الكلمة يزيد على تلك الدلالة الاسمائية بما يخصه بالكلمة .

فهو نتيجة كلمة « كن » و « اسمه المسيح » وان كان كل مولود يكون عند قوله تعالى : « كن » فإن كل مولود سواء إنما يكون بـ « كن » على طريق العلوق من الرجال ، ووسيط اللقاح المتعود من الرجال ، وليس كذلك المسيح (عليه السلام) فليختص بخاصة « كلمة » لخاصة « كن » الخارقة في بعد ثان بحقه .

فهو الكلمة الملقاة الى مريم : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فالروح هو روحه وعلّ الكلمة - إذا - هو جسمه : النطفة الرجولية الملقاة إليها دون وسيط رجل ، ألقيت من المجرى التناسلي بدفع عبر عنه هنا بالإلقاء وفي غيرها بالنفخ ، وهما مشتركان في معنى الدفع .

وقد تعني كلمة المسيح - فيما عنت - كرور ذكره في منزلات كتب السماء المتقدمة لميلاده ورسالته ، فلما خلقه الله قال : هذه كلمتي المتقدمة ، فقد كانت البشارة - التي هي كلمة - ابتداء معرفته بواقعه ، والمطربة بين يدي مورده .

وكذلك كلمته التشريعية - إضافة إلى تكوينية - الدالة عليه ، الهادية اليه . ومهما شاركت المسيح سائر الكلمات تكوينية وتشريعية ، لم يكن لشاركه في « كن » الخارقة ولادة دون اب ، اللهم إلا آدم (عليه السلام) ولكنه - مع ذلك - لا يستحق كرامة هذه « الكلمة » لعدم ولادته هكذا وإنما خلق من تراب ولعدم جمعه سائر معاني الكلمة ، إلا في بعضها عِدَّة وعِدَّة ضئيلة .

ومهما يكن من شيء فكلمة اسمه المسيح تصدق كأصده على تكوينه

الخارج عن المألوف ، وقد ألقيت الى مريم لقاحاً رجولياً دوغماً رجل ا . « وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » .

« وجيهاً » عند الله ، وعند المخصوصين بالله والمقربين إلى الله « ومن المقربين » وهم أفضل الوجهاء عند الله ، وهم السابقون كل الخلق في معرفة الله وعبادته : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » (٥٥ : ١١) .

والمقربون هم الذين قربهم الله إليه بما تقربوا إليه سعياً لأعلى قممه ، فأنم الله تقربهم إليه بما قربهم ، فعصمهم من كل زلة وضلة .

أجل « إن الله يبشرك بكلمة منه » ليس من صلب رجل وإنما بنفخ منه « اسمه المسيح عيسى بن مريم » وقد تعني تذكير « كلمة » هنا واقع ذكرورة المسمى ، وأنها لا تعني - فقط - كلمة لفظية ، بل وتكوينية هي واقع تكوينه المنقطع النظير .

وذلك من غرائب القرآن وبدايعه وعجائبه ، حيث يذكر الكلمة في الضمير الراجع إليها رجعاً الى معناها ، فلو قال « إسمها المسيح » لألبس اللفظ إذ لم يتقدم هنا ذكر المسيح (عليه السلام) ما يؤمن الإلتباس .

ثم نراها مؤنثة الضمير فيها أمن الإلتباس « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » حيث تقدمت هناك أسماء المسيح وتعريفاته التي تؤمن الإلتباس .

او يقال تأنيث الضمير الراجع الى « كلمة » مرة وتذكيره أخرى دليل الجواز للمصورتين اعتباراً لمجاز التأنيث .

أو أن المعنيين معنيان ، جمعاً لأدب اللفظ إلى أدب المعنى ، وذلك من ميزات القرآن العظيم ، أن يجمع ميزات الألفاظ الى ميزات المعاني .

ثم « المسيح عيسى بن مريم » هو أجمع إسم واشمله له (عليه السلام) ،
وقد جاء المسيح إحدى عشر مرة ، وعيسى بن مريم خمسة وعشرون مرة في
القرآن كله ، مما يدل على أن عيسى بن مريم هو اسمه الأصيل ، وعلى المسيح
لقب له يصفه .

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

ففي المهد لما أشارت إليه « قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني
نبياً ... »

« وكهلاً » وهو منذ ثلاثة وثلاثين من سني عمره الشريف أو العشرين
حيث ابتدأ واقع نبوته ودعوته ، وهو بين مهده وكهله لم يكلم الناس رسالياً ،
وإنما في المهد رسولياً ذوداً عن ساحته وأمه وكما كان يبشر به بلسان يحيى (عليه
السلام) .

فنبوته - وهي بعد رسالته - ابتدأت منذ كهولته ، مهما كان نبياً يُنبأ بالوحي
غير الرسالي بين المرحلتين ، كما كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل
بعثته^(١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٤٦ في كتاب كمال الدين وقام النعمة بإسناده إلى محمد بن إسماعيل القرشي عن
حدثه عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبيه قال قال رسول الله (ص) : إن جبرئيل نزل علي بكتاب
فيه خبر ملوك الأرض وخبر من بعث قبلي من الأنبياء والرسول - إلى أن قال - : لما ملك أشج بن
أشجان وكان يسمى الكيس وقد كان ملك مائ وستين سنة ففي سنة إحدى وخمسين من ملكه
بعث الله عز وجل عيسى بن مريم (ع) واستودعه النور والعلم والحكمة وجميع علوم الأنبياء قبله
وزاده الإنجيل وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله
وبرسوله فأبى أكثرهم إلا طغياناً وكفراً فلما لم يؤمنوا به دعا ربه وعزم عليه فمسح منهم شياطين
ليرسم آية فيعتبروا فلم يزدتهم ذلك إلا طغياناً وكفراً فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم ويرغبهم فيها =

« عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة حتى طلبته اليهود وادعت أنها عذبت ودفتته في الأرض حياً وادعى بعضهم أنهم قتلوه وصلبوه وما كان الله ليجعل لهم عليه سلطاناً وإنما شبه لهم وما قدروا على عذابه ودفتته ولا على قتله وصلبه لقوله عز وجل : « إني متوفيك ورافعك إلي ومظهرك من الذين كفروا » فلم يقدروا على قتله وصلبه لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله ولكن رفعه الله بعد أن توفاه فلما أراد أن يرفعه أوحى إليه أن يستودع نور الله وحكمته وعلم كتابه به شمعون ابن حنون الصفا خليفته على المؤمنين ففعل ذلك .

وفيه عن الرضا (ع) قد قام عيسى (ع) بالحجة وهو ابن ثلاث سنين ، وفيه ٢٥٧ عنه (ع) قال : إن الله إحتج بعيسى (ع) وهو ابن سنتين .

وفي بحار الأنوار ١٤ : ٢٥٦ عن الكافي الحسين بن محمد عن الخيران عن أبيه قال كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن (ع) بخراسان فقال له قائل : يا سيدي إن كان كون فلان من ؟ قال : إلى أبي جعفر إني ، فكان القائل استصغر سن أبي جعفر عليهما السلام فقال أبو الحسن (ع) : إن الله تبارك وتعالى بعث عيسى بن مريم عليهما السلام رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر .

أقول : لا يدل « أصغر » هنا على أنه منذ مهدة ، فلعله كان منذ سبع أو ثمان قبل التسع التي كان عليها أبو جعفر (ع) وكما في البحار ١٤ : ٢٥٥ عن الكافي عن يزيد الكناسي قال : سألت أبا جعفر (ع) كان عيسى بن مريم عليهما السلام حين تكلم في المهد حجة الله على أهل زمانه ؟ فقال : كان يومئذ نبياً حجة الله غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال : « إني عبد الله » ؟ قلت : فكان يومئذ حجة الله على زكريا (ع) في تلك الحال وهو في المهد ؟ فقال : كان عيسى في تلك الحال آية للناس ورحمة الله من الله لمريم عليها السلام حين تكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال ، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له ستان وكان زكريا الحجة لله عز وجل على الناس بعد صمت عيسى (ع) بستين ثم مات زكريا (ع) فوثره إبنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عز وجل : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ، فلما بلغ عيسى سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة على الناس منذ خلق الله آدم (ع) وأسكنه الأرض .

فلو أنه كان يكلم الناس رسالياً بينهما كما فيها لكان صحيح العبارة عنه « ويكلم الناس طول عمره - او - منذ مهده إلى صعوده » ولكنه « في المهد وكهلاً » كما يقال مرجعنا مرجع للتقليد في ايران وفي باكستان ، حيث لا يعني أنه كذلك مرجع في البلاد الفاصلة بينهما فان حق تعبيره - إذا - في ايران الى باكستان .

فقد كان تكليمه الناس « في المهد » بشارة تمهيدية لرسالته كهلاً ، وذوداً عن ميلاده وصمة الرجس ، فهو يحمل خارقة حالية في أصل تكليمه وهو وليد سويغات ، وأخرى إستقبالية حيث يكلمهم رسالياً « كهلاً » .

كما وأن تكليمه « كهلاً » وهو في نفسه خارقة ، تحقيقاً لكلامه في المهد ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء .

ونرى كهلاً يحض فقط السني الثلاث لرسالته الظاهرة ؟ وهي ثابتة منذ بعثه الى ابتعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إن تكليمه « كهلاً » ينقسم إلى التكليم الرسالي منذ بعثه الى صعوده جاهراً ظاهراً ، وتكليمه برسالته منذ صعوده حتى مبعث الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم وتكلمه بغير الرسالة الفعلية حين ينزل ويصلي خلف الإمام المهدي (عليه السلام) ، فإنه منذ الرسالة المحمدية أصبح من أمته (صلى الله عليه وآله وسلم) دون عزلي عاضلي قاحلي ، وإنما هو انعزال فعلي بشأن الإهتمام بمن هو أفضل منه ، على عصمته وقداسته الرسالية السامية ، حيث العصمة لا تختص بالرسول والإمام معه أو بعده ، فقد حمل العصمة الثالثة بعد الأولى وهي نفسها إلا الرسالة .

ولئن رفع المسيح (عليه السلام) وله ثلاث وثلاثون سنة والكهل ما اجتمع قوته وكمل شبابه مأخوذاً من اكتهل الثبات اذا قوي ، ففي غالب الظن

أنه بدأ بالدعوة الرسالية منذ العشرين ، إلا إذا دل دليل قاطع على أكثر منه ، وقد يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ان سني دعوته الرسالية بشخصه كانت ثلاث وثلاثين سنة ، اذاً فقد يكون صعوده في ثلاث وخمسين من عمره الشريف ، ورسالته منذ كهولته كما تلمحناها من « وكهلاً » ويدل عليه الانجيل^(١) .

وترى ما هو دور « ومن الصالحين » هنا ، بعد « وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » هناك ؟

قد تعني « من الصالحين » الصلوح لتلك الرسالة العظمى والنبوة العليا ، دون مطلق الصلاح الشامل لمطلق الوجهاء والمقربين .

ذلك - وكما يلتزمه سليمان النبي « وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » (٢٧ : ١٩) وأفضل منه ابراهيم من قبل « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » (٢٦ : ٨٣) - « ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » (٢٩ : ٢٧) .

(١) في إنجيل يوحنا ١ : ١٩ : ٢٧ : وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وأقراني لست أنا المسيح لسألوه إذاً ماذا ؟ إيليا أنت ؟ فقال : لست أنا ، النبي أنت ؟ فأجاب لا ، فقالوا من أنت لتعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ في البرية ، قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي وكان المرسلون من الغريسيين فسألوه وقالوا له ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي أجابهم يوحنا قائلاً : أنا أعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعندي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه .

أقول : فقد كان المسيح قائماً بينهم وهم لا يعرفونه بالرسالة الفعلية وكيف يقوم بينهم وهو في المهد صيماً .

هذا - وقد تعني « من الصالحين » فيما عنت تخليق الصلاح على كل كيانه ، كعبارة ناطقة عن كل نبوة الصلاح وحلقاته بعدما ذكر قسم منها عظيم ، فهو إذاً تعميم بعد تخصيص .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^٧ .

« قالت » عتارة من بشارة الولادة « رب » الذي ربيتني تكوينياً لا أنتج ولداً إلا بأسبابه المقررة عندك ، وتشريعياً إذ طهرتني عن كل سوء وفحشاء فد « أنى » بالإمكان عادياً « أن يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » لا حلاً ولا - عوداً بك - حراماً : « أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً » (١٩ : ٢٠) .

« قال كذلك » البعيد في حساب الخلق ، العظيم الكريم في تكريم من يشاء « يخلق ما يشاء » بمشيئة طليقة دونما رادع أو مانع « إذا قضى أمراً » ليكون أياً كان ، فليس يحتاج إلى تقدمات هو مقررهما ومقدرهما في متعود التكوين « فإنما يقول له كن » وهو قول الإرادة الربانية ولا مخاطب له إلا التكوين دون الكائن به فانه من تكوين الكائن « كن فيكون » دونما نظيرة لأمر آخر أو أمر آخر .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾^٨ .

علّ « الكتاب » هنا - وهو جنسه - كل كتابات السماء النازلة قبله ، وذلك من شروط كل رسالة لاحقة أن يُعلّم رسوماً سابقة بسابقتها ، حيث الرسائل ككل هي سلسلة موصولة بعضها ببعض ، صادرة عن مصدر واحد ، واردة إلى أمة واحدة ، مهما اختلفت شكيلات وطقوس ظاهرة فيها .

و « الحكمة » هنا بعد الكتاب ، هي تحكيم عرى الوحدة بين كتابات السماء في خلد الرسول ، كما هو بأحرى تحكيم الإنجيل عن أي إنفلات في لفظه

او معناه ، استفساراً لبعضه ببعض ، واستيحاءً فيما يحتاج الى تفسيره من الله .
وذلك بعد تحكيم فطرته وعقليته وكل ادراكاته وأحاساساته بالعصمة
البشرية والإلهية تحكياً عن كل انفراط وانحطاط ليكون حكيماً في حمل رسالة
السماء والدعوة الرسالية الى الله .

ثم « التورية والانجيل » هما اهم مصاديق « الكتاب » قبل القرآن ، وانماها
رباطاً بالرسالة العيسوية ، حيث التوراة تحمل شريعة الناموس التي لم تبدل في
الانجيل إلا نذراً .

وما يلح له أفراد « التورية والانجيل » وحدة كلٍ منهما ، دون كثرة
مختلفة ولا سيما في الانجيل .

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ
مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآبِرُءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ
وَأَخِي الْمَوْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْجُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٤٩ ﴾ .

أترأه فقط «رسولاً الى بني اسرائيل» دون كافة المكلفين ؟ وكما يروى^(١)
وولاية العزم في رسالة يحملها المسيح تقتضي طليق الرسالة والدعوة دون
اختصاص ! .

إنه «رسولاً الى بني اسرائيل» كمبدء الدعوة ومنطلقها كما كانت لموسى
وابراهيم ونوح (عليهم السلام) ، وكذلك هذا النبي (صلى الله عليه وآله

(١) نور الثقلين ١ : ٣٤٣ في كتاب كمال الدين ونظام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة
الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليها السلام حديث طويل يقول فيه : ثم إن الله عز وجل
أرسل موسى (ع) إلى بني اسرائيل خاصة فكانت نبوته بيت المقدس .

وسلم) الذي بدأت رسالته في العرب ثم الى الناس كافة .

وهذه طبيعة الحال لكل داعية ان يتبنى في البداية كتلة خاصة هم اقرب اليه وأحوج الى الدعوة ام وأخرى لحملها الى سائر المدعوين ، وقد بلغت عامة الرسالة العيسوية لحد « وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » (٤ : ١٥٩) وهي كالرسالة الموسوية : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون » (٢٨ : ٤٣) .

ذلك ! مع تصاريح عدة في آيات ان الرسولين ارسلنا إلى بني اسرائيل كأم الدعوة في قراها توحيداً وتوطيداً لأمراها : « وما كان ربك مهلك القرى حق يبعث في أمها رسولاً » (٢٨ : ٥٩) .

ثم وطبيعة الحال في رسالة ناسخة لما قبلها وإن في حكم واحد ، أن تشمل كافة المكلفين ، ذوداً عن أي ترجيح بلا مرجح ، وتوحيداً للشرعة الحاكمة على العالمين في كل دور من أدوار الشرايع الخمس « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ : ١٣) إذا فكيف بالإمكان تفرق شرعة الله في دور واحد وبأذن الله : « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (١١ : ١١٩) وحاكمية اكثر من شرعة واحدة في دور واحد هي حاكمية الاختلاف القاصد وهو خلاف الرحمة .

واما واقع اتباع شرائع عدة في طائل الزمن الرسالي ، فليس الا من واقع التخلف عن شرعة الله ما لم يأذن به الله ، حيث امرنا « ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

« ورسولاً ... أني » وذلك هو القالة الثانية بعد دعوى الرسالة « أني قد

جئتكم بآية « ربانية على ما ادعيه من رسالة ، آية قاطعة قاصدة أنني رسول من الله ، فليست - إذا - إلا خارقة ربانية لا يستطيع عليها أحد إلا الله : « أني أخلق لكم » كوسيط في تحقيق تخليق الآية الرسالية و « هل من خالق غير الله » (٣٥ : ٣) فنسبة الخالقية إلى المسيح (عليه السلام) ليست إلا بوساطة فيها والخالق هو الله ، كما الوالد والد أصالة وقد يعبر عنه بالخالق وسيطاً لخلق الله « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو » (٤٠ : ٦٢) .

« أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » فهنا إذنان تكوينيان : خلقاً كهيئة الطير وهي الهيئة الجسدانية للطير بالأجزاء الحيوانية عظماً ولحمياً وعروقاً ودماً وريشاً ، ثم نفخاً فيه تكويناً لروح الطير : « ... » وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ... » (٥ : ١١٠) فـ « بإذني ... بإذني » تخلقان على كلا الخلقين : خلق جسم الطير ثم خلق روحها .

إذاً فلا دور للمسيح هنا في « أخلق » إلا اختلاق صورة طينية من الطير ، قد يفوقه فيه عمال التماثيل ، وأما تحول الهيئة الطينية هيئة جسدانية للطير ، ثم نفخ الروح فيها فتكون طيراً ، أما هما فليسا إلا بإذن الله .

ودور المسيح هنا ، الممتاز عن سواه ، أنه يحمل آية ربانية دالة على رسالته ، أن الله يأذن لما صنعه أن يكون كهيئة الطير ، ويأذن بما نفخ فيها أن تكون طيراً ، تدليلاً على اختصاصه بالله ، وما هو هنا إلا رسالة الله .

فلا دور للمسيح في خلق كشريك لله ، أو تحول من عند الله ، وعوضاً بالله ! فلأنما يحمل آية ربانية على اختصاصه بكرامة الرسالة ، دون أن يحيط علماً أو قدرة بآية الله ، وإلا لم تكن آية خاصة بالله ، ليعرف من خلالها رسالة الله .

وهكذا تكون كافة الآيات الرسالية لكافة رسل الله بأسرها في حصرها بالله ، دون تدخل لهم فيها مستقلين فمستقلين ، ولا مخولين ، ولا شركاء لله في آيات الله ، فإنما هم رسل الله فيما يأتون به من آية رسولية أو رسالية ، ليس لهم من الأمر شيء تكويناً ولا تشريعاً ، فإنما هم حملة شرعة الله بعصمة ربانية تعصمهم عن الخطأ في البلاغ بأبعاده تحملاً للوحي وإبلاغاً وتطبيقاً شخصياً وجماعياً .

ذلك ١ وكذلك الثلاثة الأخرى بأضرابها من آيات رسولية أو رسالية : « وأبرى الأكمه » وهو المولود مطموس العين ، أو أعم منه ومن الضرير بعد كونه بصيراً « والأبرص » الأبيض الجلد بعضاً ، وهو داء معروف يصيب الجلد « وأحيى الموتى » وكل ذلك كما الطير في بطنه « ياذن الله » لا سواء : « وتبرىء الأكمه والأبرص ياذاي واذا تخرج الموت ياذاي » (٥ : ١١٠) كذلك « وأنبثكم بما تأكلون وتدخرون في بيوتكم » ياذاي ، آيات أربع تتجارب في كونها آية للرسالة العيسوية « إن في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين »

هذه خطوة أولى لهذه الرسالة السامية تثبت نفسها ، ومن ثم كتصديق لها وبيان لمادتها الأصلية :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٢٠ ﴾ .

فتصديق ما بين يديه من التوراة تصديق لرسالة الإنجيل فإن رسالات السماء تتجارب في جذورها مهما اختلفت في بعض شواكلها ، إلا أن رسالة الإنجيل هي رسالة التوراة اللهم إلا في تحليل بعض المحرمات الابتلائية أو العقابية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . . . » (٤ : ١٦٠) ومن هذه الطيبات : - « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن

البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط
بمعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون « (٦ : ١٤٦) .

ومنها : « وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في
السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك
نبلوهم بما كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) .

فقد تكفي في ولاية العزم بعض الاختلاف بين أحكام الشرعتين نسخاً أو
تكميلاً ، توسيعاً أو تضييقاً ، وشريعة الإنجيل تابعة لشريعة التوراة إلا في تحليل
البعض مما حرم في التوراة .

لذلك ترى رسل الجن يعتبرون شرعة القرآن بعد التوراة دون ذكر
للإنجيل : « قالوا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ... » (٤٦ : ٢٩) .

فإنما الدعوة الرسالية المسيحية تركز على التصليحات الخلقية في الجو
اليهودي القاسي ، وتحلّص التوراة عما تدخّل فيها من تحريفات وتجديفات ،
رفعاً لأعلام شريعة الناموس^(١) .

ذلك - وقد يصدقه الإنجيل نقلاً عن المسيح (عليه السلام) : « لا تظنوا

(١) نور الثقلين ١ : ٣٤٤ في تفسير العياشي عن محمد الحلي عن أبي عبد الله (ع) قال : كان بين داود
وعيسى بن مريم أربعمئة سنة وكان شريعة عيسى (ع) أنه بعث بالتوحيد والإخلاص وبما أوصى به
نوح وإبراهيم وموسى وأنزل عليه الإنجيل وأخذ عليه المشاق الذي أخذ على النبيين وشرع له في
الكتاب إقام الصلاة مع الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم الحرام وتحليل الحلال
 وأنزل عليه في الإنجيل مواظب وأمثال وحدود ليس فيها قصاص ولا أحكام حدود ولا فرض
موازيث وأنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى في التوراة وهو قول الله في الذي قال عيسى ابن
مريم لبني إسرائيل « ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم » وأمر عيسى من معه من أتبعه المؤمنين
أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل .

أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات » (متى ٥ : ١٧ - ١٩)^(١) .

فالإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ، ولروح الدين المطموسة في قلوب بني إسرائيل .

فالتوراة هي قاعدة الإنجيل ، حيث تحمل الشرعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل ، فإنما هو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب وتلين للضمير القاسي الإسرائيلي .

ثم « وجئكم بآية من ربكم » تعني الآية الرسالية وعديدها ومديدها كوحيدها لأنها تتجه إلى جهة واحدة مهما توحدت أو كثرت .

فلما اكتملت الأدلة الرسولية والرسالية وتبين القصد من هذه الرسالة ، إذا « فاتقوا الله » عن خلافي « واطيعون » فيما أدعوا إليه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعِيبُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾^(٢) .

ذلك هو أول الأحكام العقائدية المسيحية وكما في (مرقس ١٢ : ٢٩) : « أول الأحكام أن نعترف أن إلهنا واحد » و « أن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية وإن المسيح رسوله » (يوحنا ١٧ : ٣) .

ذلك ! فالهرطقات الدخيلة الكنسية الانجيلية في انه « ابن الله » (متى ٣ : ١٧) و « أول مواليده » (رعب ١ : ٩) وانه « هو الله والكلمة »

(١) وقد يشير هنا السيد المسيح (ع) بمن هتم بناية شريعة الناموس وهو بولص ومعناه الصغير .

(يسوحنا ١ : ١) « الأزلي » (وعب ٩ : ١٤) ومثل يهوه : « الله » (متى ٢٣ : ٣٤ ولوقا ١١ : ٤٩) وما أشبه ، هذه الخرافات المتخلفة عن شرعة الله هي من الدخائل الشركية المتسربة المترسبة في الأناجيل ! أم مؤولة ، فقد تعني الكلمة التي هو الله كلمة القدرة الذاتية ، والتي عند الله كلمة القدرة الفعلية ومن مظاهرها السيد المسيح وسائر الخليقة .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ٥٢ .

لقد « أحس عيسى منهم الكفر » بقالاته الرسالية الخمس وأهمها خامستها : « وإن الله ربي وربكم » ولم يكن الكفر فقط من اليهود الناكرين لرسالته ، المتهمين إياه أنه وليد السفاح ، بل ومن صدقه ولكنه غالى فيه أنه ابن الله أو الله ، فقد هلك فيه إثنان محب غال ومبغض قال ، معركة مصيرية صاخبة لا بد من علاجها الصارم ، ليس يقوم به وحده فليطلب أنصاراً إلى الله ، ف : « قال مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ »

« أنصاري إلى الله » لا « أنصاري مع الله » خلاف ما قد يُهرف بما لا يُعرف من مداليل الكلام توجيهاً لـ « إلى المرافق » في آية الوضوء لتكون « مع المرافق » تحويلاً عالياً لدلالته المزعومة على غاية الغسل في اليدين وهي تعني غاية المغسول « إغسلوا أيديكم » الكائنة « إلى المرافق » .

أجل « أنصاري إلى الله » إذ لا معية في نصرته الله أن يستنصر المسيح كتلة مع الله ، شركاء ثلاث فيما يريد الله ! ولا معنى للمعية هنا فان الله غاية في مسرح التوحيد وليس سبيلاً .

فلنمّا تعني « أنصاري إلى الله » هنا ما تعنيه في الصف : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل

وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (١٤) أن يتناصروا في سبيل الله والحفاظ على دين الله ، لا أن يشاركوا الله في النصره الى الله (١) .

إن نصره الله لا تعني إلا نصره دين الله ، وأما النصره مع الله فقد تكون إشراكاً بالله « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » (٢٩ : ٢٢) « وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » (٤ : ٤٥) .

وانما سميت النصرارى نصارى لانهم - في ذلك المسرح الحاسم - أصبحوا انصار المسيح إلى الله فهم - إذاً - أنصار الله بنفس المعنى لا أنهم انصاره مع الله .

فـ « انصار الله » هم انصار إلى الله وفي الله ، وليسوا انصار المسيح أمن سواء مع الله ، وتقدير « مع » غير وارد في الاضافه بتاتاً ، فانما المقدر فيه بين « من - إلى - في » والأوسط هو المعنى هنا كما تطلبه المسيح (عليه السلام) مهما صحت « في » .

وكما تعني « انصار الله » انصاراً إلى الله ، كذلك تعنيه « آمنا بالله واشهد باننا مسلمون » فهل انهم بعد انصار مع الله ، ايماناً مع الله بالله ؟ فبمن يؤمن الله والمسيح والأنصار ١٩

فـ « انصارى إلى الله » و « انصار الله » و « آمنا بالله » تعبيرات ثلاث عما تطلبه المسيح (عليه السلام) منهم في هذه المعركة الصاخبة .

فلقد كانت ضرورة رسولية ورسالية ذلك الاستنصار في بزوغ الدعوة

(١) راجع تفسير آية الفرقان (٢٨ : ٣١٩ - ٣٢١) .

حيث ابتليت بإحساس الكفر وهو ظهوره ، وهذه هي قضية كل دعوة أنها إذا بزغت عارضته النكران والمعارضة ، فلا بد للداعية أن يستخلص من الجموع كتلة مؤمنة صامدة ليمضي معهم قدماً في دعوته ، فلا تذهب هماً وسدى منذ بدايته ، وكما فعله رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيعة العقبة والرضوان ، تركيزاً للطاقات وتجميعاً للقوات لاستقامة امر الدعوة .

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ٥٣ .

وتلك هي غاية الايمان بالرسول ان يكونوا معه انصاراً الى الله ، ايماناً بالله اسلاماً لله وايماناً بما انزل الله وبرسول الله ، وقد يكون ذلك الايمان الصامد ايجاء لهم من الله اضافة الى ايمانهم سلفاً بالله : « واذا اوحيت الى الخواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا بالله واشهد باننا مسلمون » (٥ : ١١١) مما يدل على قمة الايمان والاسلام بالوحي ، فهم - إذاً - أصبحوا رسلاً مع المسيح تحت ظله ، ولا تعبد تنديداً بهم في الذكر الحكيم إلا تبجيلاً وتجليلاً بمثلث الوحي والايمان والاسلام .

وترى « فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » تعني شهادة الأعمال يوم يقوم الأشهاد ، علّه هو مهما عنت معه سواء ، فكما المسيح شاهد من الشهود يوم يقوم الأشهاد « فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » هناك ومنهم السيد المسيح إذ نحن معه انصار الى الله .

وقد تعني - مع ما عنت - الشهادة على تبليغ الرسالة بعد ما شهدوا على حقيقتها ، فهذه معية مثلثة بمثلث الشهادات ، بفارق ان العبارة عن الآخرين « من الشَّاهِدِينَ » وتختص « مع » بالأولى .

وقد تعني رابعة هي الشهادة على التوحيد في الشَّاهِدِينَ « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » طلباً ان يكتبهم مع اولي العلم : النبيين ، في تلك الشهادة الغالية .

وخامسة هي شهود الله ببصيرة القلب وحقيقة اليقين وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : اعبد ربك كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

وسادسة هي شهود العراقيين ، وتحملها في سبيل الدعوة ، أماهيه من شهادات لا بقة لا ثقة بمن هو من انصار الله .

﴿ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

« ومكروا » هؤلاء الذين كفروا واحس عيسى منهم الكفر ، دون الحوارين - وعوداً بالله - إذ هم حقاً آمنوا بالله كما وصدقهم الله ، فانما الماكرون هم الكافرون من اليهود حيث اشتروهم بثمن بخس دراهم معدودة وسلموه - فيها زعموه - الى الصليب ، وكما يندبهم في الآية التالية « ومطهرك من الذين كفروا » ويعظم موقف الحوارين « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ... » .

لقد اغتالته اليهود ليقتلوه ويصلبوه بمكر مكروه « ومكر الله والله خير الماكرين » : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (٤ : ١٥٩) .

وتراهم كيف مكروا ؟ وليس القتل والصلب مكرأً إلا تخفياً واغتيالاً ؟!

« ولكن شبه لهم » في القدر المعلوم مما تعنيه تبين « ومكر الله » أنه ألقى صورة المسيح على ما كره فصلب بدلاً عنه ورفع الله ، فليس الرفع الجاهر مكرأً ، انما هو بعد إلقاء صورة المسيح على ما كره ورفع خفية فـ « شبه لهم »

ان المصلوب هو المسيح بما مكروا « ما لهم به من علم الاتباع الظن . . . ! » واما كيف مكروا ؟ « ولكن شبه لهم » تلمح انهم دلوا عليه حيلة وغيلة .

والمكر في أصله سعي بالفساد في خفية ومداجاة ، وهو هو في الماكرين الضالين من الخلق ، وهو المقابلة بعملية خافية عدلاً وجزاء وفاقاً من الله إصلاحاً لما افسد الماكرون .

وقد يروى ان المسيح مع تلاميذه كانوا في غرفة منعزلة عن بأس اليهود المتربصين به دائرة السوء فدلهم واحد منهم او من اليهود وهو « يهوذا أسخر يوطي »^(١) على مكانه فالتقى الله شبهه عليه فُصِّلَ بدلاً عنه ، ورواية الصلب المفصلة عائدة الى آية النساء ، وعندها قول فصل حول تلك المحاولة الماكرة وما مكروهم الله ذوداً عن ساحة المسيح (عليه السلام) .

هنا « شبه لهم » دون « عليهم » لتلا يخيل اليها انه مجرد شبهتهم في قتله او

مركز تحقيق الدراسات والبحوث

(١) اتفقت النصارى على أن يهوذا الأسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح (ع) وكان رجلاً عامياً من بلدة « خريوت » في أرض يهوذا ، تبع المسيح وصار من خواص أتباعه وحوارييه الإثني عشر ومن الغريب أنه كان يشبه المسيح في خلقه كما نقل (جورج سايل) الإنكليزي في ترجمته للقرآن فيما علقه على سورة آل عمران ، نقل وعزى هذا القول إلى (السيرنثين والكربوكراتيين) من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح وصرّحوا بأن الذي صُلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبيهاً تاماً .

أقول : في كون يهوذا من الحواريين وأنه كان يشبه المسيح (ع) نظر ، حيث أن الحواريين عمدوحون في القرآن وموحى إليهم في الإيمان بالمسيح فهم رسل المسيح من قبل الله لا يتطرق إليهم أي فسوق فضلاً عن تلك الخيانة الكبرى .

ثم « شبه لهم » صريحة في حدوث تلك الشبهة ، فتتأني كونه شبيهاً خلقاً .

فالظاهر أنه كان من اليهود الذين دخلوا بين المؤمنين غير الحواريين ، فمكر مكروه ومكر الله والله خير الماكرين .

صلبه ، بل و « شبه » غير المسيح كالمسيح « لهم » هؤلاء الذين ارادوا قتله ، واما الحواريون فقد بشرهم المسيح ان الله رافعه اليه وان « ايدي اليهود لم تمسه » :
« فارسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه . فقال لهم يسوع انا معكم زماناً يسيراً بعدُ ثم امضي الى الذي ارسلني ستطلبوني ولا تهدوني وحيث اكون انا لا تقدرون انتم ان تأتوا » (يوحنا ٧ : ٣٢ - ٣٤) .

وفرية المكر على بعض حوارى المسيح (عليه السلام) تدفعها صيانة الحواريين حسب القرآن ، وأن ضمير الجمع في « مكروا » راجع الى « الذين كفروا » مهما تقدم واحد منهم لتحقيق مكرهم أن دلهم على مكانه مكرراً بما اشتروه منه بثمان بخص دراهم معدودة ليحققوا مكر القتل والصلب بحقه او وان يهوذا كان حسب الظاهر من حواريه منافقاً في مظهره فدل على مكانه .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَُعْكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

« ومكروا ومكر الله اذ قال الله « فالمران هما متقارنان ، وتوفيه (عليه السلام) ورفعهما من تنمة مكر الله حيث « شبه لهم » أولاً ورفع اخيراً فنجاه من بأسهم وبؤسهم .

وترى « إني متوفيك » تعني توفي الموت ؟ وهو حسب اللغة ومصطلح القرآن اعم من الموت ! فهو لغوياً الأخذ وافياً ، سواء كان توفياً يخلق على الإنسان إماتة : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » (٣٢ : ١١) حيث يأخذ الأرواح والأجساد في قبضة الصيانة فلا تضل عنه مهما ضلت عن سواه ، ام إنامة : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » (٣٩ : ٤٢) حيث تضم النوم الى خضم التوفي وهو اخذ الروح الانسانية عن البدن والروح

الحيوانية باقية بـقـية للحياة ، وهما يتشاركان في اخذ الروح الانسانية عن البدن كاملة .

ذلك ، ومن التوفي أخذ الإنسان بكلا جزئيه عن مسرح الحياة الارضية الى حياة سماوية دون إماتة موتاً ام نوماً وهذا هو المستفاد من جماع الآيات بحق المسيح (عليه السلام) ، فليس التوفي هو الإماتة بعينها مهما كانت منها حيث يتوفي الموت : « فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت » (٤ : ١٥) والموت لا يميت وانما يأخذ الانسان وافياً طليقاً كما يأخذه النوم نسبياً غير طليق ، وثالث يأخذه وافياً دون إماتة ولا إنامة .

فهنا « ورافعك إلي » تعني مسرح الأمن عن بأس الكفار « ومطهرك » أمن عن لعنة الصلب المختلفة بينهم ، وقد يكفي رفعه الى سماء تطهيراً له عن بأسه في بُعدي الصلب ، قتلاً ولعنساً... صحيح ان الله ليس له مكان حتى تعني « ورافعك الي » مكاناً لله ، ولكنه قد يعني مكاناً علياً كما تعنيه في ادريس (عليه السلام) : « ورفعناه مكاناً علياً » (١٩ : ٥٧) وكما تعنيه - ايضاً - آيات الرجوع الى الله ، والحياة عند الله « بل هم احياء عند ربهم يرزقون » والرحمة لدى الله ، اذاً فـ « ورافعك الي » رفع له الى مكان الأمن ومكانة الرحمة غير الخليطة بأية زحمة وكما وصفت « وإن لك الا تجمع فيها ولا تعرى . وانك لا نظماً فيها ولا تضحى » .

ذلك ، وتزيده وضوحاً آية النساء : « ... وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله الله إليه . . . وإن من اهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (١٥٩) .

فلأن اهل الكتاب حتى المسيحيين منهم لم يؤمنوا به حتى الآن فهو - اذاً - حي الى الآن وسوف يؤمنون به زمن القائم المهدي (عليه السلام) لما يزونه

يصلي وراءه (عليه السلام) ، وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لليهود إن عيسى لم يميت وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة (١) .

ثم التحول من مسرح الحياة الأرضية لا يخرج عن خمس تحولات : قتلاً - صلباً - موتاً - نوماً - وانتقالاً الى حياة فوق الارضية في جنة من الكواكب (٢) قد

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٦ قال الحسن قال رسول الله (ص) لليهود ...

وفي نور الثقلين ١ : ٥٧١ شهر بن حوشب يسأله الحجاج يا شهر اية في كتاب الله قد اهتمني ، قال : ايها الأمير اية آية هي ؟ فقال قوله : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » والله إنني لأمر باليهودي والنصراني فتضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يحمد فقلت أصلى الله الأمير ليس على ما تأولت قال : كيف هو ؟ قلت : إن عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملة يهودي ولا غيره إلا آمن به قبل موته. ويصلي خلف المهدي (ع) قال : ويحك أنى لك هذا ومن أين جئت به ؟ فقلت : حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، فقال : جئت والله بها من عين صافية .

(٢) البحار ١٤ : ٣٣٥ - لى : بإسناده عن حبيب بن عمر قال : لما توفي أمير المؤمنين (ع) قام الحسن خطيباً فقال : ايها الناس في هذه الليلة رفع عيسى بن مريم عليهما السلام .

وفيه ٣٣٦ عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليهما السلام قال : إن عيسى وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه فاجتمعوا إليه عند المساء وهم إثنا عشر رجلاً فادخلهم بيتاً ثم خرج عليهم من حين في زاوية البيت وهو ينفخ رأسه من الماء فقال : إن الله أوحى إلي أنه رافعي إليه الساعة ومطهري من اليهود ...

وفيه ٣٣٧ بسند عن جعفر عن آبائه عن النبي (ص) قال : لما اجتمعت اليهود على عيسى (ع) ليقتلوه بزعمهم أثناء جبرئيل (ع) فغشاه بجناحه وطمع عيسى ببصره فإذا هو بكتاب في جناح جبرئيل :

« اللهم إني أدعوك بإسمك الواحد الأعز وأدعوك اللهم بإسمك الصمد وأدعوك اللهم بإسمك العظيم الوتر وأدعوك اللهم بإسمك الكبير المتعال الذي ثبت أركانك كلها أن تكشف عني ما أصبحت وأمست فيه فلما دعا به عيسى (ع) أوحى الله تعالى إلى جبرئيل : ارفعه عندي ثم قال رسول الله (ص) يا بني عبد المطلب سلوا ربكم هؤلاء الكلمات فوالذي نفسي بيده ما دعا بهن عبد -

تكون هي جنة آدم وقد رفع اليها المسيح (عليه السلام) .

والأولان منفيان بآية النساء : « وما قتلوه وما صلبوه » وكل من النوم والموت له صيفته الخاصة ، فلا يعني رفعه اليه - كما هنا وفي آية النساء - إلا رفعه عن ذلك المسرح النكد البائس ، تطهيراً لساحته عن مكر الذين كفروا ، وذوداً عن سماحته لعنة الصلب ، المزعومة لدى الكنسيين البولسيين ، فقد توفاه الله اخذاً وافياً سليماً عن بأسهم ثم رفعه اليه استمراراً لتوفيه .

فليس رفعه اليه تعالى - فقط - رفعاً معنوياً إذ كان رفيعاً في معناه ومغزاه ، كما لا يعني رفعه عن الحياة ، بل هو رفع عن الحياة الأرضية الى حياة سماوية سامية عاشها ابوانا الأولان سويحات ، ويعيشها السيد المسيح (عليه السلام) قروناً طائلة حتى ينزل الى الأرض زمن المهدي (عليه السلام) . تلك هي الميزة العيسوية ، ومن ثم للذين اتبعوه :

« وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » الفوقية هنا الى يوم القيامة قد لا تشمل نفس القيامة فهي - إذاً - فوقية تناسب الحياة الدنيا تشريعياً وتكوينياً ، والأول يخلق على كافة الكرامات والاختصاصات في حقل الأحكام الشرعية ، والثاني قد يعني تفوقاً بالحجة ، ثم تفوقاً زمنياً إن قاموا بشروط النصرة الربانية .

و « الذين اتبعوك » هم المؤمنون به كما آمن الحواريون ، فهم - إذاً -

« بإخلاص دينه إلا اهتز له العرش ولأ قال الله ملائكته : اشهدوا أني استجبت له بهن وأعطيته سؤله في عاجل دنياه وأجل آخرته ثم قال لأصحابه : سلوا بها ولا تستبطثوا الإجابة . وفيه ٣٣٨ عن أبي عبد الله (ع) قال : رفع عيسى بن مريم عليها السلام بمدرعة صوف من غزل مريم ومن نسج مريم ومن خياطة مريم عليها السلام فلما انتهى إلى السماء نودي : يا عيسى ألق عنك زينة الدنيا .

المسيحيون الحقيقيون المتبعون للسيد المسيح عقيدياً وخلقياً وعملياً على مختلف درجاتهم ، ما دامت رسالته وشرعته محكمة ، ولما جاء رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم المسلمون منهم ومن سواهم ، حيث الايمان بشرعة القرآن هو من قضايا الايمان بشرعة الإنجيل ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « إنما لن تبرح عصابة من امتي يقاتلون على الحق ظاهرين على الناس حتى يأتي امر الله وهم على ذلك ثم قرأ هذه الآية (١) .

ذلك وقد تعني هذه الفوقية - بما عنت - فوقية المسيحيين الملتزمين على الكافرين بالمسيح ، مهما لم يسلموا ، شرط ألا يعاندوا من آمن به المسيح (عليه السلام) وهو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولقد نرى تفوق المسيحيين على اليهود قبل الإسلام وبعده حتى الآن ، مهما اختلقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زمن قريب ، فانها من عملاء الإستعمار المسيحي .

والنقطة الرئيسية في ذلك التفوق الموعود توفية اجور المؤمنين والعذاب الشديد للكافرين منذ الدنيا الى يوم الدين كما تبين الآيتان التاليتان ، المفرعتان هذه التوفية على ذلك التفوق ، بما انه من اهم درجاته واعظم مكرماته .

فهذه فوقية روحية مضمونة للذين آمنوا وخلافها على الذين كفروا على طول خط الحياة في الأولى والأخرى ، وقد تجاوزها الفوقية الزمنية إن قاموا بشرائط الايمان كمالاً ولم يتركوها هملاً وكما قال الله « لن يضروكم إلا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » . حيث المخاطبون هم المعنيون بآيات

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٧ - أخرج ابن عساکر عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله (ص)

سابقة في خطابات لتحقيق حيوات الإيمان^(١) .

وأخيراً فـ « العاقبة للمتقين » وهي الدولة العاقبة كل الدول بقيادة المهدي من آل محمد (عليهم السلام) كما تعدنا آيات وروايات متواترات .

ومن ناحية أخرى يقرر ربنا سوم العذاب على كفرة اليهود على طول خط الحياة : « وإذا تأذن ربك ليعشن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم » (٧ : ١٦٧) .

ويقرر بالنهاية سحقاً ماحقاً لهم في تلك الدولة الكريمة : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوموا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علواً تنبيراً » (١٧ : ٩) .

وقد « ضربت عليهم الذلة إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبياعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٣ : ١٠٩) .

ذلك ، ولدرجات الايمان مدخل عظيم في ذلك التفوق في الأولى والأخرى ، فهؤلاء هم فوق الذين كفروا الى يوم القيامة في ميزان الله ، كما انهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر - بكل حقوله - بحقيقة الايمان ، والذين يتبعون محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ مبعثه هم في الوقت ذاته اتبعوا مواكب الرسل ومنهم المسيح (عليه السلام) .

« ثم الى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » :

(١) وهي ألا يطعموا الكافرين ويعتصموا بالله ويتقوا الله حق تقاته ويعتصموا بحبل الله جميعاً دون تفرق ويكن فيهم أمة داعية إلى الخير أمرة ناهية - أمامه ؟ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥٧ ﴾

هنا الايمان والكفر طليقان ، ايماناً بالمسيح وسواء وكفراً به وسواء ، وإنما الاصل هو الايمان وعمل الصالحات لتوفية الأجور في الأخرى ، ثم الكفر لتوفية العذاب فيها .

﴿ ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥٨ ﴾

« ذلك » العميق المدى الظاهرة الهدى « تتلوه عليك » يا رسول الهدى « من الآيات » الباهرة من كتابات السماء « والذكر الحكيم » وهو القرآن العظيم .

والآيات هنا نعم الآيات الرسولية والرسالية ، تكوينية وتشريعية ، « والذكر الحكيم » خصوصاً بعد عموم يعني القرآن الكريم فإنه راية بين الآيات وهو غاية الغايات إذ تحمله خاتمة الرسالات .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ لَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ

مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ

لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ
الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾
قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْعًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٢﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَحْجُجُون فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٥﴾ إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ
وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
 يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ
 تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
 وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ
 النَّهَارِ وَانْكُفُّوا ؕ آخِرَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا
 إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِن آهَدَيْتُ هَدَى اللَّهِ أَن يُؤْتِي
 أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِن
 الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
 يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿ إِن مَثَلٌ حَسْبَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ٧٤

مثل حسي عند المغالين بحقه يختلف حقاً عن مثله عند الله ، فهم يزعمونه ابن الله او الله المتجسد في الناسوت ، فهو من جوهره الالهية ، ومثله عند الله « كمثل آدم خلقه من تراب ... » .

فإذا كان خلق المسيح خارقة أن لم يكن له والد ، فخلق آدم خارقتان أن لم يكن له والدان ، والمما « خلقه من تراب » في جثمانه هيكلاً ترايبياً مثال الإنسان « ثم قال له كن » إنساناً في الجسم والروح « فيكون » ما كونه الله آدم وسواء كما قال الله ، وقد يعني « خلقه من تراب » خلق جسمه « ثم قال له كن » قولاً تكوينياً موجهاً الى جسمه أن كُن إنساناً فهو تكوين روحه من جسمه ، وهذه عبارة اخرى عن « ثم انشأناه خلقاً آخر » في تخليق بنيه .

وقد تكون « فيكون » بديلاً عن « فكان » إشارة الى استمرارية هذه الكينونة الخارقة للمألوف ، دون اختصاص بآدم ، حيث ثني بالمسيح (عليه السلام) ، ومن ثم في كافة الآيات المعجزات .

فان كان المسيح لخلقته دون أب إيناً لله فليكن آدم المخلوق دون ابوين أنخاً لله ، وان كان المسيح لذلك هو الله فليكن آدم أباً لله ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، ثم وان كان المسيح يستحق الولادة مجازياً تشريفاً ، فليشرف آدم بسمه الأخوة لله .

ذلك ! ولا يصح المجاز إلا فيما يمكن حقيقته ، واذ ليس بالامكان ابن او اخ لله ، فلا تشريف - اذاً - بمجاز وسواء ، حيث المجاز هو الحقيقة المجاز اذ يجوز اللفظ ويعبر منه الى ما يشابهه .

تنزل هذه الآية جواباً عما سألته جماعة من اهل نجران « هل رأيت مثل عيسى أو أنبتت به ؟ » (١) فقد تحمل اجابة وافية قاطعة لأعداء مؤلفي المسيح

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٧ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس من اهل نجران قدموا على النبي (ص) وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا : ما شأنك تذكر صاحبنا قال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله قال : أجل إنه عبد الله قالوا فهل رأيت ... فجاء جبرئيل فقال : قل لهم إذا أتوك : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ...

ومتبنيه ، ومختلفي انتسالي آدم من إنسان ام ارتقاء من حيوان ١ .

وذلك التساؤل حدث بعد ما كتب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الى اهل نجران يدعوهم فيه الى الإسلام (١) .

وهنا المماثلة بين آدم والمسيح (عليهما السلام) ليست إلا في فقد الأب ، ثم يختص آدم بفقد الأم ايضاً وخلق رأساً من تراب ، وقد نابت النطفة الرجولية في خلق المسيح مناب اللقاح الرجولي ، ان خلقها الله تعالى دون صلب وألقاها نفخاً الى رحم البتولة العذراء وكما فصلناه في سورة مريم ، وآدم خلق

= وفيه عن قتادة أنها لقيا نبي الله فسألاه عن عيسى فقالا : كل آدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له فانزل الله فيه هذه الآية .

وفيه أنه (ص) منهم أربعة من خيارهم فسألوه ما تقول في عيسى قال : هو عبد الله وروحه وكلمته قالوا هم : لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره فهل رأيت إنساناً خلق من غير أب فانزل الله هذه الآية .

(١) أخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده أن رسول الله (ص) كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان : بسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران إن أسلمتم فإني أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدهوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، أدهوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فقد أذنتم بحرب والسلام ، فلما قرء الأسقف الكتاب فطع به وذعر ذعراً شديداً فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول الله (ص) فقرأ فقال له الأسقف ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله تعالى إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبياً وليس لي في النبوة رأي لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلّمهم قال مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يعيشوا شرحبيل وعبد الله ابنه وحيار بن قنص فيأتوهم بخبر رسول الله (ص) فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله (ص) فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا : ما تقول في عيسى بن مريم ؟ فقال رسول الله (ص) ما عندي فيه شيء يومي هذا =

دوئما صلب ورحم او نطفة ا .

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ٦٠ .

اترى ان رسول الهدى إمترى في الحق من ربه ، ومنه مثل عيسى في خلقه حتى يخاطب بـ « فلا تكن من الممترين ؟ » طبعاً لا وألف كلاً ، فانما ذلك التعبير هو قضية الموقف حيث المتسائلون لم يكونوا ليسكتوا عن قيلاتهم ، وكان ذلك المثل لا يحمل حقاً من الله .

لذلك يخاطب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من باب « إياك اعني واسمعي يا جاره » تأكيداً لحق الجواب ، حسماً لكل مربة هي بعيدة عن جادة الصواب .

فهو - اذاً - كـ « لئن اشركت ليجفن عملك » - « ولا تكونن من المشركين » وكيف يجوز الامتراء والشك والشك على من باشر برد اليقين وتلقى عن الروح الامين .. او ان الخطاب في « ربك » ليس ليختص بمن لا يمتري ، بل هو كل من يجوز في حقه الامتراء وهو كل مخاطب سامع للبرهان من المكلفين . كائناً من كان، فهو خطاب الأفراد شاملاً كل الأفراد على سبيل الأبدال فيشمل الذين قالوا - فيما غالوا بحق المسيح (عليه السلام) - انه الله او ابن الله ، فـ « الحق » كله « من ربك » الذي ربك يا رسول الهدى ، وكل من يصح خطابه ، دون الغالين الدجالين « فلا تكن من الممترين » بحق الحق ، ولا تمار فيه مجادلاً عن الباطل ، ومحاجاً ضد الحق ، وقد فعلوا فنزلت آية المباهلة .

= فاتموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغداة فأنزل الله هذه الآية إلى « فنجعل لعنة الله على الكاذبين » فأبوا أن يقرؤا بذلك فلما أصبح رسول الله (ص) الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في حملة له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعة ... » .

ووجه ثالث - علّه معني مع الأولين - ان ليس الامتراء هو الشك فقط بل وهو المماراة والمجادلة بشأن الحق الجلي مع من لا يخضع لبرهان ، فلماذا - اذاً - المماراة مع المعاندين « فلا تكن من الممترين » فكل أمرك الى رب العالمين مع من حاجك حول الحق اليقين ، الناصع الأمين :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ﴾^١.

هذه من غرر الآيات بشأن الغر الكرام من آل الكساء (عليهم السلام) ،
حيث تعبر عن علي (عليه السلام) بـ « أنفسنا » وعن فاطمة (عليها السلام) بـ « نساءنا » وعن الحسين (عليهما السلام) بـ « أبناءنا » مما يدل على اخص
الإختصاصات لهؤلاء بالرسالة القدسية المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) .

هنا « من بعد ما جاءك من العلم » دون « ما اوحينا اليك » يحمل توسيعاً
لدائرة العلم ، فهو علم الوحي بعد العلم العقلي وقد حصلنا معاً بتلك الماثلة
في « ان مثل عيسى ... »

وذلك مما يؤكد عدم عناية الشك من امتراءه (صلى الله عليه وآله وسلم)
لوانه المخاطب بـ « فلا تكن من الممترين » .

« فمن حاجك فيه » في الحق من ربك ، الذي لامرية فيه ولا ريبة تعتربه
« فقل تعالوا ... » وهذه دعوة صارخة صارخة في هذه الاذاعة القرآنية الى
مباهلة الكاذبين المصيرين على كذبهم بعد صراح الحق المبين ، فقد تجوز المباهلة
وتفيد حين تتوفر شروطها^(١) ، إذ ليس الحق ليقف مكتوف الأيدي أمام

(١) نور الثقلين ١ : ٣٥١ عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن ...

الناكرين المكذبين ، فلما تقبله ببرهان أم دخول في لعنة الله على الكاذبين .

ولقد دعى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين كانوا يحاجونه في قصة المسيح (عليه السلام) الى اجتماع حاشد من أعز الملاصقين من الجانبيين ، ليبتهل الجميع الى الله في دعاء قاصع قاطع ان ينزل لعنته على الكاذبين فخافوا العاقبة وابوا المباهلة^(١) وتبين الحق واضحاً وضح الشمس في رابعة النهار .

ولأن الابتهاال هو التأكد في الدعاء - من البهل : الدعاء - وليس إلا في مسرح الإضطرار ، ولا أحق من حق الله عند اهله - حين يُنكر ويكذب ولا ينفع الدليل - ان يستجاب في ابتهاال وقد وعد الله المضطرين الاجابة « أمن يجب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » .

= حكيم عن أبي مشرق (مسروق) عن أبي عبد الله (ع) قال : قلت : إنا نكلم الناس فنحتاج عليهم بقول الله عز وجل : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولو الأمر منكم » فيقولون نزلت في امراء السرايا ، فنحتاج عليهم بقوله عز وجل « إنا وليكم الله ورسوله .. » فيقولون : نزلت في المؤمنين ونحتاج عليهم بقول الله عز وجل « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فيقولون : نزلت في قرى المسلمين ، قال : فلم ادع شيئاً مما حضرني ذكره من هذا أو شبهه إلا ذكرته فقال لي : إذا كان كذلك فادعهم إلى المباهلة قلت : وكيف أصنع ؟ قال : أصلح نفسك ثلاثاً - وأظنه قال : صم واغتسل - وأبرز أنت وهو إلى الجبان فشبك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه ثم انصفه وأبدأ بنفسك وقل : اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع عالم الغيب والشهادة إن كان أبو مسترق جحد حقاً وادعى باطلاً فأنزل عليه حساباً من السماء وعذاباً ألياً ، ثم رد الدعوة عليه فقل : وإن كان فلان جحد حقاً وادعى باطلاً فأنزل عليه حساباً من السماء أو عذاباً ألياً ثم قال لي : فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه فوالله ما وجدت خلقاً يبيهي إليه .

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٩ - أخرج عبد الرزاق والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لو باهل أهل نجران رسول الله (ص) لرجعوا لا يمدون أهلاً ولا مالاً .

وحين تستجاب الدعاء بحقنا فهلاً تستجاب بحق الحق ولا سيما من رسول الحق في هذه المعركة الصاخبة ومعه اخص اهل الطاهرين ! والمدعوون في هذه المباهلة ثلاثة « أبناءنا وأبناءكم - نساءنا ونسائكم - أنفسنا وأنفسكم » يدعو كل من الطرفين أخصاءه الثلاثة ، وقد « دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - حسب متواتر الأثر - علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي » (١) .

- (١) المصدر أخرج مسلم والترمذي وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله (ص) . . . وفيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحر الشكري قال : لما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله (ص) إلى علي وفاطمة وإنيهما الحسن والحسين . . . وأخرجه مثله الحافظ أحمد بن حنبل في مسنده ١٥ : ١٨٥ والطبري في تفسيره ٣ : ١٩٢ بطرق أربع ، وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن ٢ : ١٦ قال : إن رواية السير لم يختلفوا في أن النبي (ص) أخذ بيد الحسين وعلي وفاطمة ودعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة . . والحاكم في المستدرک ٣ : ١٥٠ وفي مصنفه علوم الحديث ٥٠ ، والثعلبي في تفسيره كما في العمدة لابن بطريق ٩٥ والحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة ٢٩٧ والواحدي النيسابوري في الباب النزول ٧٤ وابن المغازلي الواسطي كما في العمدة لابن بطريق ٩٦ والبغوي في معالم التنزيل ١ : ٣٠٢ وفي مصابيح السنة ٢ : ٢٠٤ والزغشري في الكشف ١ : ١٩٣ وابن العربي الأندلسي في أحكام القرآن ١ : ١١٥ والإمام الرازي في تفسيره ٨ : ٩٥ وابن الأثير في جامع الأصول ٩ : ٤٧ والذهبي في تلخيصه المطبوع في ذيل مستدرک الحاكم ٣ : ١٥٠ وابن طلحة الشامي في مطالب السؤول ص ٧ وابن الأثير في أسد الغابة ٤ : ٢٥ وسبط ابن الجوزي في التذكرة ص ١٧ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣ : ١٠٤ والبيضاوي في تفسيره ٢ : ٢٢ والطبري في ذخائر العقبى ص ٢٥ ومسلم في صحيحه من عدة طرق منها ج ٤ باب فضائل أمير المؤمنين (ع) في تفسير هذه الآية ورواه الحميري في الجمع بين الصحيحين في مسند سعد بن أبي وقاص والثعلبي في تفسيره هذه الآية عن مقاتل الكلبي وأخرجه في الدر المنثور نقلاً عن الحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر عنه (ص) والبيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده عنه (ص) وأبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن أبي -

= شعبة وسعيد بن منصور وعبيد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن الشعبي والترمذي عن سعد عنه (ص) ومحمد بن جرير عن علباء بن أحمد اليشكري وروى ابن بطريق في العمدة ٩٥ : ٩٦ نزول هذه الآية فيهم بأسانيد من صحيح مسلم وتفسير الثعلبي ومناقب ابن المغازلي وابن الأثير في جامع الأصول من صحيح مسلم عن سعد والبيضاوي في تفسيره ٢ : ٢٢ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وفي الرياض النضرة ١٨٨ والنسفي في تفسيره ١ : ١٣٦ والمهايني في تبصير الرحمن وتيسير المنان ١ : ١١٤ والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٥٦٨ والخطيب الشربيني في تفسير سراج المنير ١ : ١٨٢ والنیشابوري في تفسيره ٣ : ٢٠٦ والخازن في تفسيره ١ : ٣٠٢ وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ٢ : ٤٧٩ وعبد الدين أبو الفداء بن كثير في تفسيره ١ : ٣٧ وفي البداية والنهاية ٥ : ٥٢ وابن الملك في ميسر الأزهري في شرح مشارق الأنوار للصنعاني ٢ : ٣٥٦ والعسقلاني في الإصابة ٢ : ٥٠٣ وفي الكاف الشاف في فخر ج أحاديث الكشف ص ٢٦ وابن الصباغ في الفصول المهمة ١٠٨ وملايين الكاشفي في معارج النبوة ١ : ٣١٥ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ١١٥ وفي الإكليل ٥٣ وفي الجلالين ١ : ٣٣ وابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة ١١٩ وأبو السعود أفندي في تفسيره ٢ : ١٤٣ والجلبي في السيرة النبوية ٣ : ٣٥ وأبو السعود محمد أفندي العمادي في تفسيره ، والشاه عبد الحق في مدارج النبوة ٥٠٠ والكشفي الترمذي في مناقب مرتضى ٤٤ والشبروي في الأنحاف بحب الإشراف ٥ والشوكاني في فتح القدير ١ : ٣١٦ والألوسي في تفسير روح المعاني ٣ : ١٦٧ والعلوي الحضرمي في رشفة الصادي ٣٥ وابن المغازلي في مناقب كما في كفاية الخصام ٣٨٨ والسيد صديق حسن خان في كتاب حسن الأسوة ٣٢ السيد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية المطبوعة بهامش السيرة الحلبية ٣ : ٤ وعياض المغربي في الشفاء ٢ : ٤١ والبيهقي في السنن الكبرى ٦٣ وابن تيمية في منهاج السنة ٣٤ والبرزنجي في مقاصد الطالب ١١ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٨٥ وسعيد بن محمد بن مسعود الشافعي في المتقى في سيرة المصطفى ١٨٨ والشيخ أبو الحسن الكازروني في صفوة الزلال المعين والشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في ذخائر المواريث ١ : ٢٢٦ والقرماني في أخبار الدول والشيبياني في تيسير الوصول ٢ : ١٦٠ والقندوسي الحنفي في سنن الهندي ٥٦٣ والنقشبلي في مناقب العترة ١٨٩ والشيخ حسن النجار في أنحاف ذوي النجابة ١٥٤ والحسيبي البصري في إنتهاء الأقسام ١٩٧ والشيبياني في المختار في مناقب الأخيار ص ٣ والسيد صديق محمد حسنخان ملك بهريال في فتح =

ولأن المباهلة هي ذات جهتين : الدعاء ، واستدعاء اللعن على الكاذب ، فلا بد - إذاً - ان يكون الأبناء والنساء والأنفس المدعوون فيها من أعزهم وأصدقهم بالداعين وأقربهم الى الله استجابة للدعاء .

فليس ضم الأبناء والنساء والأنفس إلا لتأكيد الاستجابة والدلالة على الحق ، ثقة بالحال وتصديقاً للمقال واستيفاءً على خصومه بصدقه وكذبهم ، حيث يستجره على تعريض أعز أعزته وأفلاذ كبده .

لقد خص هنا الأبناء والنساء بالدعوة لذلك المسرح الخطير لأنهم أعز الأهل وأصدقهم بالقلب ولربما فداهم الرجل نفسه وكل نفيسه .

لذلك كانوا في الحرب يسوقون مع انفسهم الطعائين لتمنعهم من الهرب ويسمون الذادة عنها حماة الحقائق .

ثم خص أحض خواصه المعبر عنه هنا بـ « انفسنا » رمزاً الى انه لنفسه المقدسة كأنه هو ، فقد يته مع نفسه في هذه المعركة الصاخبة توضحية لنفسه مرتين ، كما أن فدية النساء والأبناء تمثل فدية أخرى ثالثة .

فآية المباهلة هي من ابرز الآيات الدالات على موقف الامام علي (عليه السلام) المنقطع النظير مع البشير النذير ، أن لو كان للرسول (صلى الله

= البيان ٢ : ٥٥ والشيخ عبيد الله الأمرتري في أرجح المطالب ٣٧ والسيد أحمد بن سودة الإدريسي

في رفع اللبس والشبهات ٤٠ وخواجه خواندمير في علم الكتاب .

أقول : ذلك وإلى مشآت من الرواة والمصنفين والمفسرين (راجع ملحقات أحقاق الحق للمرجع

الدينني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٣ ص ٤٦ - ٧٦ وج ٩ ص ٧١ - ٩١ ، تجدد في

خمين صفحة من هذه الموسوعة بحراً ملتطماً من الأحاديث حول آية المباهلة التي ذكرت علماً (ع)

نفس الرسول (ص) .

عليه وآله وسلم) انفس او نفس أخرى لكانت علياً (عليه السلام) دون من سواه ، وقد اجمع المفسرون والمحدثون والحفاظ انه لم يصاحبه (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ابنه الحسين وبنته فاطمة (عليهم السلام) إلا علي صلوات الله عليه .

فلم يكن من أبناءه إلا سبطيه ولا من نساءه إلا فاطمته ولا من نفسه إلا عليه ، حيث لا يدعو الانسان - فيما يدعو - نفسه ، اللهم إلا من هو كنفسه ، ولم يكن معه آنذاك من يمثل نفسه إلا علي (عليه السلام) .

وهنا تجاوب لا حول عنه بين الآية ومتواتر النقل ، كل يؤيد الآخر ويتأيد هو الآخر بالآخر... فـ « قل » يا محمد لمن حاجك فيه « تعالوا ندع » نحن ندعو أبناءنا ونساءنا وانفسنا وانتم تدعون كما ندعوا .

ولكن « ندع » في جانب الرسول واحد هو الرسول ، وفي جانبهم جمع المحاجين ، وليس « ندع » إلا اعتباراً بالطرفين وهما معاً - لا محالة - جمع مهما كان الطرف الأول مفرداً .

فـ « أبناءنا » تعني اعز الأبناء في الجانيين دون تحليق على كل الأبناء ، ولقد انحصروا في جانب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحسين (عليهما السلام) ، مما يبرهن على صحة انتساب أبناء البنات الى الجدود ، وكما نسب المسيح (عليه السلام) إلى ابراهيم « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم... ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون... وذكرياً ويحيى وعيسى... » (٦ : ٨٥) وهكذا يستدل الذرية المعصومة بالذكر الحكيم أمام الناكرين^(١) .

(١) في العيون بإسناده إلى موسى بن جعفر عليهما السلام في حديث له مع الرشيد قال الرشيد له : كيف =

فاختصاص سهم السادة بالمتسبين بالأب - فقط - الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرافة لا تملك برهاناً من كتاب او سنة ، بل هما يعارضان ذلك الإختصاص .

= قلت : إنا ذرية النبي والنبي لم يعقب وإنما العقب للذكر لا للأنثى وأنتم ولد البنت ولا يكون له عقب ؟ فقلت : أسأله بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما أعفاني عن هذه المسألة ، فقال : تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم كذا أنني إلي وليست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله وأنتم تدعون بعشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو إلا تأويله عندكم واحتججتم بقوله عز وجل : ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم .

فقلت : تأذن لي في الجواب ؟ فقال : هات ، قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « ومن ذريته داود وسليمان . . . وعيسى » من أبو عيسى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس له أب ، فقلت : إنما الحق به بذراري الأنبياء من طريق مريم وكذلك ألحقنا الله تعالى بذراري النبي من أمنا فاطمة ، أزيدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هات ، قلت : قول الله عز وجل « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا . . » ولم يدع أحد أنه أدخل النبي (ص) تحت الكساء عند المباهلة مع النصاري إلا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فكان تأويل قوله : أبناءنا - الحسن والحسين ، ونساءنا : فاطمة ، وأنفسنا : علي بن أبي طالب .

وفي نور الثقلين ١ : ٣٤٩ من الخصال في احتجاج علي (ع) على أبي بكر قال : فأنشدك بالله أبي برز رسول الله (ص) وبأهلي وولدي في مباهلة المشركين من النصاري أم بك وبأهلك وولدك ؟ قال : بكم ، وفيه أيضاً من مناقب أمير المؤمنين (ع) وتعدادها قال (ع) : وأما الرابعة والثلاثون فإن النصاري ادعوا أمرا فأنزل الله عز وجل فيه « فمن حاجك . . » فكأنت نفسي نفس رسول الله (ص) والنساء فاطمة والأبناء الحسن والحسين ثم ندم القوم فسألوا رسول الله (ص) الإعفاء عنهم وقال : « والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد لو باهلونا لمسخطهم الله قرعة وخنازير » وفيه عن عيون أخبار الرضا (ع) عن النبي (ص) حديث طويل يقول فيه : يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبك فقد سبني لأنك مني كنفسني وروحك من روحي وطيتتك من طيبي .

و « نساءنا » حيث تعني كل النساء الأهلآت للانتساب إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) دون خصوص الأزواج ، نراهن أختصرن واحتصرن في قرة عينه وفلذة كبده فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، مما يبرهن على فضلها ، وانها تجمع في نفسها الخاصة كل الانتسابات الرسالية بين نساء بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي - اذاً - مفضلة على كل ازواجه وسواهن من النساء المنتسبات إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ثم « وانفسنا » هي في جانب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتمثل في نفس واحدة هي نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يكن معه في مباہلته من غير فاطمته وحسنه إلا عليّ (عليهم السلام) .

فلو كان للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انفس يمثلونه لكان علياً (عليه السلام) لا سواه .

ذلك وقد تواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله بحق هذه المماثلة السامية والمباغضة الحاقية : « علي مني وأنا منه لا يؤدي عني إلا علي » ^(١) - « علي مني مثل رأسي من بدني » ^(٢) - « منزلة علي مني منزلة من

(١) حديث صحيح رجاله كلهم ثقات أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ : ١٦٤ و ١٦٥ بأسانيد أربعة والحافظ ابن ماجة القزويني في سننه ١ : ٥٧ والحافظ أبو عيسى الترمذي في جامع الشافعي في المناقب بأسانيد وفيرة والبخوي في المصابيح ٢ : ٢١٣ والنسائي في خصائصه ٦٢ و ٢٧ وابن المغازلي ١٣ : ١٦٩ و ٢ : ٤٦٠ وفي صحيحه ٢ : ٢١٣ والنسائي في خصائصه ٦٢ و ٢٧ وابن المغازلي ١٣ : ١٦٩ وفي الكفاية ٥٥٧ والنووي في تهذيب الأسماء واللغات والمحجب الطبري في الرياض ٣ : ٧٤ عن الحفاظ السلفي وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن كثير في تاريخه والسخاري في المقاصد الحسنة والمتاوي في كنوز الدقائق ٩٢ والحموي في فرائد السمطين ب ٧ والسيوطي في الجامع الصغير وجمع الجوامع وابن حجر في الصواعق ٧٣ والمتقي الهندي في كنز العمال عن (١١) حافظاً والبدرخشاني في نزل الأبرار ٩ والفقير شيخ بن العيدروس =

الله^(١) مما يؤكد هذه النفسية النفيسة العلوية المحمدية .

فكون علي (عليه السلام) نفس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدل فقط على افضليته على سائر الأمة بأسرهم ، بل وعلى افضليته على كافة السابقين والمقربين وأولي العزم من النبيين صلوات الله عليهم اجمعين ، ولا فارق بين محمد وعلي (عليهما السلام) إلا في الرسالة ، فهو يساميه فيها سواها من العصمة القمة وسائر المداخل القدسية الروحية والزمنية بأسرها .

ومهما يكن من أمر فقد « خرج (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه مرط من شعر أسود وكان قد احتضن الحسين (عليه السلام) وأخذ بيد الحسن (عليه السلام) وفاطمة تمشي خلفه وعلي (عليه السلام) خلفها وهو يقول : اذا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يا معشر النصاري إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرائي الى يوم القيامة »^(٢)

= في العقد النبوي والشبلنجي في نور الأبصار ٧٨ والصبيان في الاسعاف هامش نور الأبصار ١٥٥

كلهم أخرجه ورووه عن حبشي بن جنادة وعمران وأبي ذر الغفاري عن رسول الله ((ص)) .

وروى مثله البخاري في ٤ من صحيحه عن عمر بن الخطاب وفي الجمع بين الصحاح ج ٣ من عدة

طرق ومنها ما عن ابن جنادة عن رسول الله (ص) أنه قال : علي مني وأنا منه .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن المغازلي بالإسناد عنه (ص) وابن الأثير في جامع الأصول عن

البخاري ومسلم بسنديهما عن البراء بن عازب عنه (ص) (البحار ٣٨ : ٣٢٨) .

(١) أمالي الطوسي عن ابن مسعود ، وأخرجه الحافظ ابن المغازلي كما في العملة لابن بطريق ٥٣

بإسناده عن بكر بن سودة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله

عنه (ص) والسيرة الحلبية ٣ : ٣٩١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ٨ : ٨٠ روى أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصاري نجران ثم انهم

أصروا على جهلهم فقال عليه السلام : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم فقالوا : يا أبا =

وما أبلفه حجة ان يباهلهم بعد برهانه المبين ، تعريضاً عريضاً على كذبهم دونه بجمع « الكاذبين » تأكيداً أنهم هم جمع النجرانيين دونه (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ كان واحداً في تلك المجابهة مهما حمل معه حسنيه وفاطمة وعليه (عليهم السلام) تأكيداً للحجة وايضاحاً للمحجة .

ذلك ا وكما أن في « ونجعل » دون « ونسأل » تأكيداً بنزول اللعنة لا محاله ، ولم يكن إحضار هؤلاء الأربعة كنماذج عن الباقين ، وإلا لكان المقروض احضار اقل الجمع من كل من الثلاث ، ولكن الجمع الاول اختص في مسرح المباهلة بحسنيه والجمع الثاني بفاطمة والجمع الثالث بعليه مما يدل على حصر تلك الأهلية فيهم وحسرها عن سواهم .

= القاسم بل نرجع فتنظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الإستئصال فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله (ص) خرج وعليه مرط . . . ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نفرك على دينك فقال (ص) فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فأبوا فقال (ص) فإني أناجزكم القتال فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك هل أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كل عام ألف حلة : ألفاً في صفر وألفاً في رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال : والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لا عنوا لمسخوا قرعة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا .

قال : وروي أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود فجاء الحسن (ع) فأدخله ثم جاء الحسين (ع) فأدخله ثم فاطمة ثم علي عليهما السلام ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وليطهركم تطهيراً ، واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث .

ومن الطريف حوار بين الامام الرضا (عليه السلام) والمأمون حيث قال : ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب ؟ قال : آية انفسنا ، قال : لولا نساءنا قال : لولا أبناءنا^(١) .

فقد عني المأمون بـ « لولا نساءنا » انها دليل كون الأنفس هم كل الذكور بقرينة المقابلة فليسوا هم علياً فحسب ، فأجاب « لولا أبناءنا » ان لوعني بـ « انفسنا » الذكور لشملت الأبناء ، فإفراد الأبناء دليل اختصاص « انفسنا » بذكور خصوص ، وهو رجل خاص : علي (عليه السلام) ، حيث حمل كل نفسيات الرسول في شخصه الشخيص ، فلو كان هناك انفس للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يمثلونه لم تكن إلا علياً (عليه السلام) الذي هو بدوره نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا في رسالته ، فلا دور لما اورده بعض المجاهيل على انطباق أبناءنا على الحسين لمكان الثنية ونساءنا وانفسنا على فاطمة

(١) ومثله ما في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي ص ١١٢ قال : ومن شجون هذه المسألة ما حكى عن القاسم بن سهل النوشجاني قال : كنت بين المأمون في ديوان أبي مسلم بمرو وعلي بن موسى الرضا عليهما السلام قاعد عن يمينه فقال لي المأمون يا قاسم أي فضائل صاحبك أفضل ؟ فقلت ليس شيء منها أفضل من آية المائدة فإن الله سبحانه جعل نفس رسوله (ص) ونفس علي واحدة فقال لي : إن قال لك خصمك : إن الناس قد عرفوا الأبناء في هذه الآية والنساء وهم الحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام وأما النفس فهي نفس رسول الله (ص) وحده بأي شيء تحببه ؟ قال النوشجاني : فأظلم علي ما بينه وبينه وأمسكت لا أهندي بحجة فقال المأمون للرضا (ع) ما تقول فيها يا أبا الحسن (ع) فقال له : في هذا شيء لا مذهب عنه قال : وما هو ، قال : هو أنه رسول الله (ص) داع ولذلك قال الله سبحانه : « قل تعالوا . . » والداعي لا يدعو نفسه إنما يدعو غيره ، قلما دعا الأبناء والنساء ولم يصح أن يدعو نفسه لم يصح أن يتوجه دعاء الأنفس إلا إلى علي بن أبي طالب (ع) إذ لم يكن بحضرته - بعد من ذكرناه - غيره ممن يجوز توجه دعاء الأنفس إليه ولو لم يكن ذلك كذلك لبطل معنى الآية ، قال النوشجاني : فأنجلي عن بصري وأمسك المأمون قليلاً ثم قال له يا أبا الحسن إذا أصيب الصواب انقطع الجواب .

وعلي (عليهما السلام) لمكان الأفراد ، لأن ذلك من باب الإنطباق دون الدلالة اللغوية .

فقد عني من « نساءنا » أخص النساء والصقهن بالمباهلين فانحصرن للنبي بفاطمة (عليها السلام) ومن أبناءنا أخص الابناء فانحصروا بالحسنين ، بل ولم يكن له أبناء غيرهما ، ثم ومن أنفسنا خير الممثلين للمباهلين ولم يكن للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا علي (عليه السلام) ، وأما نساءكم وأبناءكم وانفسكم فهم كثرة حسب عديد المباهلين الكاذبين مهما لم يكونوا حضوراً اذ طلب منهم إحضارهم ولكنهم تحاشوا عن ذلك المسرح الخطير بقية على أنفسهم وأهليهم .

ولقد نرى من ذكر الجمع وإرادة مصداق واحد عديداً في الذكر الحكيم ، كـ « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (٥ : ٥٥) ولا مصداق له إلا علي (عليه السلام) حيث زكى في ركوع الصلاة ، فكان « الذين آمنوا » عنواناً مشيراً إلى خصوص ذلك المصداق .

وكذلك الجموع التي نزلت بشأن الوحدات تعميماً للأحكام التي تضمنها كـ « الذين يظاهرون منكم من نساءهم ما هن امهاتهم » (٥٨ : ٢) « والذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا »^(١) « لقد سمع الله قول الذين قالوا

(١) الشعر الجاهلي هو

بنونا بنوا أبناءنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأغارب
والحديث ما في الوسائل ٦ : ١٨٨ مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال :
ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحمل له وليس له من الخمس شيء
فإن الله يقول : « اعودهم لأبائهم » .

أقول هذه آية الأحزاب . . . وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق =

ان الله فقير ونحن اغنياء » (٣ : ١٨١) « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٢ : ٢١٩) وما أشبهها من آيات تذكر جموعاً وموارد النزول وحدات ، ام تعني وحدات تجمع في انفسها كيان الجموع كما « ان ابراهيم كان امة » (١٦ : ١٢٠) أمأهيه ؟ .

ذلك - وحين نرى الإخوة في الدين - ككل - هم حسب القرآن انفس اخوانهم كما « ولا تلمزوا انفسكم » « واذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم » اجراءً للإخوة بالديانة مجرى الاخوة في القرابة ، فبأحرى ان يكون علي (عليه السلام) نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بل أنفسه لو كانت له انفس او من يمثلونه .

واذا وقعت النفس في بليغ العبارة على البعيد النسب كانت أجرى ان تقع على القريب النسب والسبب .

ومن غريب التهريف في التحريف أن علياً (عليه السلام) اريد هنا من « أبناءنا » دون « أنفسنا » فراراً عن الاقرار له بتلك المنزلة الكريمة ، ثم ويمأذا يفسر « أنفسنا » والداعي اول الحضور فكيف يدعو نفسه ؟ .

فأية المباهلة - اذاً - هي من اظهر الآيات البينات على القدسية القمة لهؤلاء الأربعة ولا سيما علي (عليه السلام) حيث احتل في قدسيته القمة المحمدية وكأنه نفسه المقدسة ، فهما - اذاً - روح واحدة مهما تعددا في البدن ، وتفارقا في ظاهر الرسالة الأخيرة ! .

= وهو يعني السبيل (٤) ولا تعني إلا الادعياء ، فهل إن أبناء البنات من الادعياء ، أم ترى أن الحسين عليهما السلام وسائر الأئمة عليهم السلام هم من ادعياء الرسول (ص) ؟ إن هي إلا فرية جاهلة وقحة !

ومما تدل عليه آية المباهلة ان ابناء البنت هم ابناء ابيها كما هم آباءهم فان « ابناءنا » لا تعني الا الحسين .

اذاً فكل ابناء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من فاطمة هم ذريته دون فرق بين المنتسبين بالآب والأم او المنتسبين باحدهما اليها سلام الله عليها .

ولا دليل لمن يختص سهم السادة بالمنتسبين اليها بآباءهم الا الشعر والحديث الجاهليين فليضربا عرض الحائط فان « ادعوهم لآباءهم » انما هي للادعاء ، فهل ان الحسين - كذلك - من الادعاء ؟ .

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٦٣) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ^(٦٤)

« القصص » ككل هو اتباع الأثر تحسناً عما فيه أثر لتبني الحياة الحسنى ، وهكذا يقص القرآن القصص الحق الذي لا مرية فيه ، رفضاً للقصص الباطل الذي ملا الأجواء المضللة .

« ان هذا » الذي قص من قصة الحوار بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصارى نجران « هو القصص الحق » وهو المختصر المختصر « وما من إله إلا الله وان الله هو العزيز الحكيم » - « فان تولَّوا » عن ذلك التوحيد الوحيد ، الى توحيد الثالث - بزعمهم - الوهيد « فان الله عليم بالمفسدين » عقيدياً - ف :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٦٥)

الشرائع الكتابية مهما اختلفت في البعض من طقوسها العبادية ليست

لتختلف في توحيد المعبود ، فانه الميزة البارزة القمة للشرعة الكتابية عن الإشراك بالله والإلحاد في الله ، فالتزام الكتابي بتوحيد الله حق مشترك لا حِوَل عنه إلا للمرتد عن كتب الله الداعية إلى توحيد الله ، وانها كلمة جامعة جامعة وقد أتت في كتابات للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو فيها الملوك والشيوخ والزعماء إلى الاسلام وكما نقره في كتابه الى هرقل عظيم الروم^(١) .

وهذه الدعوة هي القاطعة القاصعة في كل حوار ان يتبنى المحاورون كلمة سواء بينهم ، ولا سواء بين الكتابيين أفضل وأحرى بالبناء من كلمة التوحيد ، وهكذا ندرس من القرآن كيف نحاور معارضينا كحجة أخيرة حين لا تنفع سائر الحجج وكما نراها هنا بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والكتابيين .

وكما أن كلمة التوحيد هي كلمة سواء بيننا وبين كافة الموحدين ، كذلك القرآن كلمة سواء بيننا نحن المسلمين ، فنحن المتابعون للقرآن كاصل هورأس الزاوية في كل الاسلاميات ، نقول للذين اخلدوا الى دراسات غير قرآنية ، تعالوا إلى كلمة القرآن وهي سواء بيننا وبينكم ، أن نتبناه في كافة الاصول والفروع .

أستم تقولون إن القرآن هو الدليل الاول والمحور الاصيل ، فلماذا لا

(١) الدر المنثور ١ : ٤٠ - أخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله (ص) فقرأه فلذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً - إلى قوله - إشهدوا بأننا مسلمون » وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله (ص) إلى الكفار « تعالوا إلى كلمة سواء . . » وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريح في الآية قال بلغني أن النبي (ص) دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك فأبوا عليه فجاءهم حتى أتوا بالجزية .

نجدّه اصيلاً في دراساتكم الحوزوية ، واذا أقبل طلاب مظلومون الى ذلك الكتاب المظلوم تتقولون في نواديكم المنكرة انهم ليسوا من طلاب الحوزة الرسميين ؟ ! .

وترى « اهل الكتاب » ككل كانوا يعبدون غير الله ، والشرعة الكتابية - ككل - هي شرعة التوحيد وهم كانوا يطعنون في رأي من عبد غير الله تعالى من مشركة الأمم ومؤلفي الصنم ؟ .

اجل فإن منهم من يعبدون المسيح كما الله حيث اعتقدوا فيه انه الله او ابن الله ، فعبادته - إذا - هي عبادة الله ! : « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » (١١٦ : ٥) .

ومن ثم فهم عظموا رؤساءهم ورحبوا علماءهم وقلدوهم في التحليل والتحرير والتأخير والتقديم وتقحموا ما قحموهم من فاسد العقيدة والمذاهب الرديئة ، قلدوهم كأنهم آلهة إلا الله ، تقليداً طليقاً يخلق على ما ينأحر العقلية الكتابية ونصوصها : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ... » (٣١ : ٥) .

ذلك وكما نراهم يركعون ويسجدون للصليب ولتمثال المسيح ، بل ولعلماءهم ، سجوداً وتكفيراً وتضائلاً وخضوعاً بالغاً - كما لله - لكبرائهم وديانهم واولي التقدم في دينهم ، وكذلك ملاك امورهم زمنياً او اقتصادياً او ثقافياً ، يطيعونهم حين لا يطيعون الله ، فالربوبيات الواقعية تربوياً لا بد وان تنتهي الى ربوبية الله دوغاً عمادة ومشاقة .

ففيما يسئل رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما كنا نعبدكم يا رسول الله ! يقول : أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال :

نعم فقال : هو ذاك^(١) .

فالتوحيد الحق هو جماع التوحيد المحلّق على وحدة الذات وهي مع الصفات والصفات مع بعضها البعض ، ووحدة الخالقية والمعبودية والطاعة وما الى ذلك من شؤون الألوهية والربوبية في وحدات ، فمن نقض واحدة منها فقد نقض كامل التوحيد ، داخلاً في الإشراف بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

« فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » الله في كامل توحيده وانتم غير مسلمين له .

فالمسلمون لله هم المعتقدون المحققون كامل درجات التوحيد ، خصيصة تميزهم عن سواهم ، واهم مراحل التوحيد هي توحيد العبودية والطاعة ، فهو التحرر الطليق عن كل عبودية او طاعة سوى الله ، اللهم إلا بأمر الله كطاعة رسول الله ، وأما العبودية فكلاً .

في حقول الانظمة الأرضية تتوفر عبادة من دون الله واتخاذ بعض بعضاً ارباباً من دون الله ، سواء أكان في أرقى الديمقراطيات ام في أحط الدكتاتوريات ، مهما كانت تلك العبوديات في سجود او ركوع ام في طاعات طليقة لغير الله .

ولكن النظام الاسلامي السامي يحرر الانسان عن كل عبودية وطاعة لمن سوى الله ، حيوية سليمة طليقة في بعد واحد هو الله .

ولقد تركزت الدعوة التوحيدية الموجهة الى اهل الكتاب الى مثلثة الجهات ، رفضاً لثالوث العبوديات .

١ « ألا نعبد إلا الله » في أية مرحلة من مراحل العبودية ، في السيرة

(١) نور الثقلين ١ : ٣٥٢ وقد روى أنه لما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم : ...

والصورة ، في حالة أمهية .

٢ « ولا نشرك به شيئاً » فيما يختص بساحة الربوبية ، في اية دركة من دركات الإشراف بالله حالة وفعالة ، عبادة وطاعة وتأثيراً في تكوين أو تشريع .

٣ « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » في الربوبية الخاصة بالله ، وسائر الربوبيات المناخرة لربوبية الله .

وفي « بعضنا بعضاً » برهانان اثنان أحدهما على بطلان الربوبية في هذا البين لمكان المباغضة ، اذ لا يمتاز بعض عن بعض لمشاركتها في الكيان ايأ كان ، وثانيهما على ان الله ليس كمثله شيء فلا مباغضة بين الرب والمربوبين فلذلك يستحق هو الربوبية لا سواء .

فهما كان لبعض على بعض - في المشاركين - فضل ، ليس ليأهل ربوبية على قسيمه ، فانها غنى مطلقة والربوبية فقر مطلق .

فيا له برهاناً ما أوضحه على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » في جميع شؤون الألوهية ، كلمة سواء في العقلية الإنسانية والكتابية ، فالتولي عنها متول عنها على سواء .

وقد ينضم ثالث السلب في « لا إله » كما توحيد الايجاب في « إلا الله » ولا تعني ساير كلمات التوحيد وعباراته إلا كلمة الاخلاص هذه « لا إله إلا الله » .

وخطاب اهل الكتاب - ككل - بكلمة سواء ، تنديد بهم في كافة الانحرافات والانجرافات عن التوحيد الحق ، هوداً كانوا او نصارى ام مسلمين : « وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

فليست صيغة «الاسلام - و- المسلمون» مما تصوغ كامل التوحيد ، كما وأن صيغة اليهود والتنصر ليست لتصوغ الإشراف بالله ، ف« ليس بأمانيكف ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوء يجر به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » (١٢٣ : ٤) .

وليسف « كلمة سواء » - فقط - لفظة تقال مفا تأولوها بما لا فعنيه كتحفد التلثف او الفثفة أماهفة ، ام كانت اعمالهم وانفاهاتهم فضاذهام ام لا ففجاب معها ، فقد فعف كلمة الفوفف بفء قالها فاهاماف واعمالها فف كافة مءارفها ، فففى الفف فقول الله عنها « كلمة لا إله إلا الله فصفى ففن فءفل فصفى أمن من عذابى » .

وباف له فواراً ما أجمله وانصفه ان فءفل الرسول (صلى الله علفه وآله وسلم) نفسه والففن معه فف جموع اهل الكتاب لـ « كلمة سواء » فون ان ففففهم بمثلث الفف ، لئلا فكون فعرفضاً علفهم صراحاً ، فانما هو ففام للففءال بالفف فف افسن بأنصف الفصفة وهو الإلفزام بما هو لفزام الشرعة الففابفة لأهلها هوذا ونصارى ومسلمفن .

ثم واففراً « فان فولوا » عن « كلمة سواء » - « فقولوا اففءوا بأنا مسلمون » فونكم فون « انتم كافرون » .

وهنا فءرس من اءب الفوار الرسالف لكل فاعفة أنه - ككل - اسفجاشة للففرة والعقلفة الانسانية والوفاوفة الففابفة ما ففرب الى الفق ، او- لأقل فففر- لا ففرب عنه ، فونما سباب او انففام فف الففصام .

فرغم عءم السواء فف كلمة الفوفف ففبنا وفبفهم واقعياً فوففهم الله الفها مباءياً ففابياً ، ف« سواء ففبنا وفبفكم » بسنء الشرعة الففابفة بفء سناء الففرة

والعقلية الانسانية فالمتخلف عنها متخلف عن الكلمة سواء مهما كان مسلماً او من هود او نصارى .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥) .

لقد حاج أهل الكتاب رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) في إبراهيم كانه يهودي أو نصراني ، حجة واقعية من الرسالة الإبراهيمية المقبولة لدى الكل ، فتهوده او تنصره قد يقضي على « كلمة سواء » او يتهافتان .

ولكنهم محجوجون في هذا المسرح قبل كل شيء بأنه « ما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده » فكيف يعقل تهووده و تنصره « أفلا تعقلون » « ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً او نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن اظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله » (٢ : ١٤٠) .

ذلك ولقد جرت العادة للمتغطلين ان يضموا انفسهم الى قيادة المحققين لكي يبرروا باطلهم كأنه حق ، حينما كلت كل حججهم عن إثبات الباطل وتزييف الحق .

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦) .

المحاجة الحققة الصادقة هي التي تتبنى العلم ، والتي لا تتبناه هي من الباطل ، فلتكن لأهل الكتاب محاجتان اثنتان حققة وباطلة ، فما هي الأولى ؟ والأخيرة ظاهرة من تلك الحوار ، من المحاجة الحققة للنصارى ما احتجوا به لإثبات رسالة السيد المسيح على اليهود وهم ناكروها ، ومنها لليهود عليهم ما احتجوا به لإبطال ألوهية المسيح والتثليث أماذا من حججيات حققة بينهم أنفسهم .

ومن الباطلة احتجاجها على المسلمين بالتهود والتنصر لإبراهيم الخليل
تثبيتاً لاختلافاتهم المعارضة للشرعة الكتابية ، والحجاج الحقّة ليست لتثبت الحق
في الحجاج الباطلة ، وإنما يقدر كل بقدره .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٧) .

لأن التهود والتنصر اختلفا منذ نزول التوراة والانجيل ، وهما - دون
ريب - أنزلتا بعد إبراهيم (عليه السلام) فمن المستحيل كون إبراهيم يهودياً
او نصرانياً حتى يتمسك في صحتها بشيخ المرسلين .

ولكن يبقى سؤال : كيف يشك أي ذي مسكة أو سفية أن إبراهيم الذي
عاش قبل نزول الكتابين بقرون هو يهودي او نصراني ، حتى يتطلب ذلك
النقاش العريض في عديد من آي الذكر الحكيم ؟ .

والجواب أن كلاً من اليهود والنصارى كانوا - ولا يزالون - يدعون أن
الشرعة الإلهية هي شرعة التوراة او الانجيل ، امتداداً زمنياً خلفياً وأمامياً مهما
جاء بهما الرسولان ، فليكن إبراهيم ومَن قبله ومَن بعده إلى يوم القيامة هوداً او
نصارى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى » فالنبيون
الأولون والآخرين والذين معهم هم هود في الأصل او نصارى حتى يستحقوا
دخول الجنة .

ومن الإمتداد الخلفي المدعى : « أم تقولون ان إبراهيم واسماعيل
واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً او نصارى .. » (٢ : ١٤٠) .

فبناءً على هذه الضابطة المدعاة إبراهيم الخليل (عليه السلام) هو من
الهود او النصارى ، وقضية الشرعة التوراتية أو الإنجيلية هذه التي نعتقدها
فنحن - اذاً - من أتباع إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

والقرآن يزيف في آيات عذّة أولاً نزول التوراة والانجيل إلّا من بعد
إبراهيم ، ثم وفي أخرى يصرح بعدد الشرايع الإلهية : « لكل جعلنا منكم
شرعة ومنهاجاً » (٥ : ٤٨) « لكل أمة جعلنا منسكاًهم ناسكوه فلا ينازعنك في
الأمر » (٢٢ : ٦٧) .

وذلك هو الشأن الشائن لكل الطائفتين المتصليين ، كأن شرعتهم هي
شرعة الكل ، فالتخلف عنها خارج عن شرعة الله ، تنديداً بسائر كتابات
الوحي ورسالاته بأجمعها .

وترى « حنيفاً مسلماً » ليس رجوعاً الى مثل الدعوى وقد أنزل القرآن من
بعده ؟ .

كلّا ، حيث الإسلام هو التسليم لله في كافة الأدوار الرسالية ، فالنبيون
والذين معهم كلهم كانوا مسلمين لله وكما في آيات عدة ، وما اختصاص
المسلمين الآخرين باسم الإسلام ، إلا للمقابلته بالذين يكفرون بشرعة القرآن ،
وانها لم تحرف أو تبدل فحفظ إسلامه سليماً كما أنزل دون سائر كتابات الوحي
حيث حُرِفَتْ عن جهات اشراعتها اصلية وفرعية .

« وما كان من المشركين » تأييد أكيد للمعنى من إسلام إبراهيم ، فإن
قضيته التقسيم إلى مسلم ومشرك ، وكل المسلمين لله في الادوار الرسالية مسلمون
ومن سواهم مشركون او ملحدون .

وهنا تنحل المشكلة في محاجتهم فيما ليس لهم به علم ، إذ كانوا يعلمون
نزول التوراة والإنجيل ولكنهم يجهلون ان ليسا هما كتابي الشرعة الإلهية
المدودين خلفياً وأمامياً .

هذا إبراهيم ، ثم ومن هو أولى به انتساباً روحياً هو الأولى في كل الحقول
الروحية :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٨) .

ليس الأولى بإبراهيم من يدعون تهوذه وتنصره كذباً وزوراً ، ولا المنتسبون إليه سبياً أو نسباً ، إنما هم الذين اتبعوه في حنفه وإسلامه « وهذا النبي ... » .

فلقد اختصت الأولوية هنا بالذين اتبعوه وبهذا النبي الذي هو في الحق متبوعة في محمّد الإسلام ، « والله ولي المؤمنين » على طول خط الرسالات دون فارق بين مؤمن ومؤمن إلا بفارق درجات الايمان ، دون سائر الفوارق المختلفة المختلفة ، عنصرية أو اقليمية أو طائفية أماهيه .

ذلك - فكذلك إن أولى الناس بمحمد للذين اتبعوه ، لا الذين انتسبوا اليه بسبب أو نسب أم عاصروه وصاحبوه ، مهما كان الأولى بالقرابة والطاعة أولى من وليه بالطاعة لانه مجمع التورين وكما يروى عن علي (عليه السلام) :
فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة (١) .

ويروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « ان ولي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من اطاع الله ورسوله وان بعدت لحمته وان عدو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من عصي الله ورسوله وان قربت قرابته » (٢) و : « إن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا انتم بسبيل ذلك فانظروا لا يلقاني الناس

(١) المصدر عن نهج البلاغة من كتاب له (ع) إلى معاوية جواباً وكتاب الله يجمع لنا ما شذعنا وهو قوله سبحانه « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقوله تعالى « ان أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٥٣ عن المجمع قال أمير المؤمنين علي (ع) ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ثم تل هذه الآية وقال : ...

يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فاصد عنكم بوجهي ثم قرأ هذه الآية^(١) .

فصاحب الطاعة أولى بالني (صلى الله عليه وآله وسلم) من صاحب القربة ، والجامع بينهما أولى من صاحب الطاعة ، كما وان القريب العاصي أغرب من الغريب العاصي وكما قال الله في نساء النبي : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن . . يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً فأن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

وانها ضابطة ثابتة على مدار الزمن الرسالي ، أن الاصل في الأولوية إيجابية وسلبية هي الطاعة إيجابية وسلبية ، ثم تزيدها القربة بدرجاتها درجات أم دركات .

وهذه الصورة الوضائية المشرقة هي ارق صورة للتجمع الانساني لمجمع واحد ، تميزاً له من القطيع ، صورة تسمح بتلك الوحدة العريقة غير الوهيدة دون قيود إلا ما يختاره الانسان من صالح العقيدة والعملية .

فبامكان الإنسان أياً كان أن يغير عقيدته وعمله من طالح الى صالح او من صالح الى طالح فيدخل نفسه في صالحين ام طالحين ، وليس بامكانه ان يغير لونه وميلاده ونسبه ، مهما كان يملك ان يغير لفته او شغله او طبقته بصعوبة ، فتبقى الحواجز - اذاً - سارية المفعول لولا عامل الوحدة العقيدية التي يقرب كل غريب ويغرب كل قريب .

(١) الدر المنثور ٢ : ٤٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول الله (ص) قال : يا

معشر قريش : ...

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٩) .

« ودت .. لو » تحيل ذلك الإضلال المرتجى « إن كنتم مؤمنين » و « لا يضلون » في ودهم هذا « إلا أنفسهم » حيث يتضاعف ضلالهم وعذابهم بما ودوا « وما يشعرون » أنهم « ما يضلون إلا أنفسهم » .

ذلك وحتى « لو يضلونكم » إن لم تقوموا بشرائط الإيمان فإضلالهم راجع بالنتيجة إلى أنفسهم حيث يزدادون جزاءً وفاقاً : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » (٢٩ : ١٣) « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الأساء ما يزررون » (١٦ : ٢٥) .

ففيها لا يضل منكم بإضلالهم فالحصر حقيقي دون ريب ، اذ ظلت محاولة الإضلال فاشلة إلا في أنفسهم إذ يزدادون ضلالاً ، وفيها يضل البعض ، فليس الرجوع الى المضلل إلا ضلال إلى ضلال ، والمضلل إنما ضل بسوء اختياره ، فالحصر نسبي والخاسر الأصيل هو المضلل فـ « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » (٤١ : ٤٦) « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » (٣٠ : ٤٤) .

ذلك ! ولأن ذلك الود المضلل ليس عن إيمان بباطلهم وكفر بحقهم وإنما حسداً وليكونوا سواء : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم » (٢ : ١٠٩) « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » (٤ : ٨٩) .

ومن إضلالهم إياهم قولتهم : انتم تؤمنون بموسى والمسيح كما نحن مؤمنون فيما هو برهانكم على رسالة محمد ونحن به كافرون ؟ والجواب أننا نؤمن بالمسيح الذي بشر بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا المسيح الله او ابن الله

او خاتم الرسل الناصر لرسالة خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ومنه ان النسخ قول بالبداء وان الله يجهل ثم يعلم ، والجواب انه يبين
أمد الحكم السابق قضية المصالح الوقتية في الأحكام المتبدلة ، ثم لا نسخ في
أصول الدين وجذور الأحكام . . .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٧٠) .

« اهل الكتاب » هم كلهم ، و « تكفرون » لا تعني - فيما عنت - صراح
الكفر بالله ، فانما آيات الله مهما استلزم الكفر بالله .

و « آيات الله » نعم آيات الربوبية والآيات الرسولية والرسالية ، ومنها هنا
آيات البشارات بالرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) الموجودة في
كتابات المهديين عتيقة وجديدة ، كما ومنها الآيات التي كانوا يحرفونها ، وقضية
الأهلية الكتابية تصديق ساير آيات الوحي ثم « وانتم تشهدون » ها، أنها آيات
الله ، لأنها في كتاباتكم ، ولأنها في هذه الرسالة تشبه سائر الآيات الرسالية
وزيادة .

« وانتم تشهدون » مشاهد المسلمين بهذه الرسالة ، وإذا خلا بعضكم إلى
بعض تصدقون ، « وانتم تشهدون » انطباق آيات البشارات على هذه الرسالة
السامية .

« وانتم تشهدون » بهذه الآيات أنها حقة في انفسكم وفيما بينكم .

« وانتم تشهدون » عليها في مشهد المسلمين ، فكل هذه الشهادات هنا
معنية حيث المتعلق المحذوف لـ « تشهدون » طليق يليق أن يكون كلاً من هذه
الأربع مهما اختلفت معانيها ، حيث تتوحد في التنديد بذلك الكفر الماكر ، وانه
من أنحس الكفر وأتعهه .

إنهم يكفرون بآيات الله - مطلعين على البشارات وغير مطلعين - لا لنقص في الدليل ولكنه المصلحية والتضليل ، فتقرعهم بينات الآيات بواقع موقفهم المريب المعيب .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧١)

ولقد كانوا يلبسون الحق ويغمرونه في غمار الباطل ، الأمر الذي درجوا عليه منذ البداية وحتى اللحظات الحاضرة ، يقدمهم اليهود ويتبعهم النصارى ، و« إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبسّد يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى » (١) .

فلبس الحق بلباس الباطل ولبس الباطل بلباس الحق شيطنة مدروسة على مدار الزمن الرسالي يصطاد بها السذج البله الذين لم يعرفوا الباطل والحق حقهما فهم همج رعاع ، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ولا يلجأون إلى ركن وثيق .

والمهمة الأولى والأخيرة لهؤلاء المناكيد كتمان الحق حتى لا يُتبع ، أن يلبس بالباطل كما يلبس الباطل بالحق ، والحق ضائع في المسرّحين .

« لم تلبسون ... وأنتم تعلمون ، لبسكم ، و« تعلمون » الحق والباطل ، وأنتم أهل الكتاب الذي يعرفكم الحق والباطل فلم تلبسون ؟ »

(١) من خطب للإمام علي أمير المؤمنين (ع) برواية الكافي وفي النهج مثلها بضاوت يسير .

لقد نرى - منذ بزوغ الإسلام حتى الآن جموعاً من اهل الكتاب - ولا سيما المستشرقين والمبشرين الصليبيين-يبدسون في التراث الإسلامي ككل ، اللهم إلا القرآن المصون عن كل تحريف بما وعد الله ، دساً في الأحاديث والأحداث والتاريخ وعامة التراث وحتى في مختلف التفسير للقرآن لحد تركوه تيهاً لا يكاد الباحث غير الدقيق يهتدي فيه إلى معالم الحق .

فهناك شخصيات مدسوسة على الأمة الإسلامية ، مغروسة في أصول حقوقها ليؤدوا لأعداء الإسلام من خدمات هامة لا يملكها الأعداء الظاهرون .

وفي الحق إنهم هم حملة الفتن الهدامة في أمة الإسلام ، وعلى أعقابهم كتلٌ ساذجة جاهلة او متجاهلة يحسبون هذه الدسائس من صلب الإسلام ، ويتهمون ناكريها بأنهم خارجون عن الدين : أنتكر حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أنت منكر روايات الائمة من آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وانت انت وحدك ترد ما اشتهر بين جماهير المسلمين ، وجادت به اقلام المؤلفين ١٢ .

وليتهم في خضم هذه المعارك الصاخبة رجعوا الى عقليتهم الإسلامية ، إلى القرآن الناطق بالحق ، الفرقان بين كل باطل وحق ، وكما أمرهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يقول « فاذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه حبل الله المتين وسببه الامين . . . » .

ولو ان القرآن احتل الأوساط العلمية والعقيدية اختل الدس والتجديف في كل حقوله ، ولكننا المحاولة المستمرة في الوسط الاسلامي - وحتى الحوزات العلمية - مستمدة من الوسط الكتابي المستعمر المستحمر ، إنها لا تزال تعمل في إبعاد القرآن وتفسيره عن حوزة الامة وحيازتها ، اكتفاء بقراءته وتجويده في عبارته ، وتجاهلاً عن حق دراسته وممارسته .

نرى لبسهم الحق بلباس الباطل بمختلف المحاولات المضللة من قالات وفعالات ومنها :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الدِّينِ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاتَّكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢) .

وقد تعني الآية وجوها يتحملها الادب لفظياً ومعنوياً ان :

١ « آمنوا بما انزل على الذين آمنوا » ككل « آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » .

٢ « آمنوا بما انزل وجه النهار » « واكفروا » به « آخره » .

٣ « آمنوا بما انزل وجه النهار » « واكفروا » بما انزل عليهم « آخره » .

والجمع المعني منها هو الايمان النفاق البارز ببديل الكفر عن الايمان « لعلهم يرجعون » .

وهذه المناققة اللثيمة مما تؤثر بطبيعة الحال في الذين لم يقع الايمان موقعه المكين في قلوبهم ، فحين يرون طائفة من اهل الكتاب يؤمنون يزددون إيماناً ، وحين يرونهم يكفرون بعد إيمانهم يرجعون .

ولقد خاب سعيهم بما أوضح الله من كامن كيدهم وميدهم ، أن سراع الكفر بعد الإيمان ليس من صادق الإيمان ، وليتنبه المسلمون على طول الخط أنه من مكائد الكتائبين - اللثيمة - فلا يدخلوا في هواتهم بغواتهم .

وهذا أمكر طريقه وأنكرها في تضليل البسطاء وضعاف العقول ، حيث يوقعهم في البلبال ، اذ يظنون أن اهل الكتاب اعرف منهم بالبيئة الكتابية ، فإذا ارتدوا بعد إيمانهم لم يكن ذلك الإرتداد إلا بسبب اطلاعهم - بعد تطلعهم الصحيح - على بطلان هذا الدين ! .

ولقد تطرقوا في هذا الكيد اللثيم طرقاً شتى تناسب مختلف الحقول وشتى العقول ، فاختلقوا جيشاً جراراً بصورة مثقفين فائقين في مختلف العلوم وهم يحملون اسم الإسلام لا لشيء إلا لانهادهم من سلالة اسلامية ، رغم انهادهم عن سلالة الإسلام .

فهم قد يدقون على تقديمية الإسلام وأخرى على رجعيةها دعاية ضالة للتفلت عنه ، وإبعادها عن مختلف مجالات الحياة وجلواتها إشفاقاً عليها .

ولا فحسب في ميادين العلوم التجريبية ، بل وفي العلوم الإسلامية نفسها حيث يحورون القيلات الشتات التي هي ويلات على المسلمين ، تاركين كتاب الله وراءهم ظهرياً .

فهؤلاء وأولاء - وهم مسلمون ا - يشاركون - جاهلين او متجاهلين ام ومعاندين - يشاركون رأس الثالث الماكر وهم طائفة مستشرقة ومبشرة من اهل الكتاب ، فهم شركاء ثلاث في سالوسهم بالوثهم تأدية لدور التضييل .

﴿ وَلَا تَوَمِّنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَهْدَىٰ اللَّهُ يَهْدِيَ اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣) .

« ولا تؤمنوا » من خطاب أهل الكتاب بعضهم بعضاً « إلا لمن تبع دينكم » من المسلمين المضللين ومن اخوانكم - ككل - في الدين ، والايمان له ليس كالايمان به او ايمانه او معه ، انما هو الوثوق والاطمئنان إلى اخوتهم في دينهم ، فأسروا اليهم وجاهروهم كما تحبون .

« قل ان الهدى هدى الله » لا هدى الهوى التي أنتم تبغونها ، فهدى الله تعالى طليقة عن عنصريات وقوميات وطائفيات أو لغات ، ومن هدى الله طليقة

« أن يؤتى أحدٌ » سواكم « مثل ما أوتيتهم » من شرعة الله وسلطانهِ ، ولا تعني هذه المماثلة إلا في أصل الوحي والشرعة دون درجاتها .

فإذا « يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم » فآمنوا به ولهم « أو » إذا توليتهم « يحاجوكم عند ربكم » لماذا كفرتم به وانكروتموه ، الآن فضل الله بأيديكم ؟ « قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء » لا من تشاءون « والله ذو الفضل العظيم » دونكم انتم اللثام المتضايقون الأضنة .

إن الشراسة الاسرائيلية وتصلبها العنصري كانت ولا تزال تحيّل إليهم أنهم هم الشعب المختار ، إختار الله لهم شرعته إلى يوم الدين ، دونما أية حجة وبيّنة ، صدأ عن سبيل الله وسدأ عن فضل الله وهداه إلا لهم أنفسهم ، فمن سواهم أتباعهم على طول الخط الرسالي ، كلاً ! « والله واسع عليم » :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤) .

اختصاصاً في الأدوار الرسالية لكل رسالة برسول ، واختصاصاً للرسالة الأخيرة بخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

« أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٤٣ : ٣٢) « قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي لأمسكنكم خشية الانفاق » (١٧ : ١٠٠) .

ذلك ! وليس اهل الكتاب كلهم كفرة ناكرون ماكرون بل هم كما يقول

الله :

* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
 عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ
 سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
 بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ
 لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
 إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
 وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُنَ السِّتْرَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ
 الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرَ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
 وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
 كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ
أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِسْطٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَيْدِنَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمِينِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٥ .

مثال ماثل بين أيدينا لغايتي الأمانة والخيانة الكتابية ، فمنهم « مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِسْطٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ » كالذين ائتمنوا كتاب الله فادوه إلى اهل الله بكل البشائر المددوعة فيه لأهليه « ومنهم مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَيْدِنَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ » بخلاً عن أداء أمانته على قلتها « إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » تقوم على أمانة البشارة وسواها بحجة كتابية لا جَوَل عنها ، و « ذَلِكَ » البعيد البعيد « بأنهم » الخونة لا كلهم « قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وهم غير الكتابيين أنفسهم ، سلباً لسبيل القيادة الروحية وسواها وسائر الحقوق عن بني اسماعيل الأميين كأنها محصورة في الكتابيين أنفسهم محصورة عن سواهم ! « ويقولون على الله الكذب » دوماً تقوى في طغواهم « وهم يعلمون » الحق وانهم كاذبون في نكرانه : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً » (٤ : ٥٣) تعني - فيما تعنيه - الملك الروحي ، فكان لهم نصيباً من ذلك الملك يملكونه فيختصون به أنفسهم ولا يؤتون سائر الناس منه نقيراً ! .

وقد يعني المثال الأول قسماً من النصارى والثاني اليهود فـ « لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشرکوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (٥ : ٨٢) .

وقد تعني « ليس علينا في الأميين سبيل » كل حق هو لهم ، فلا علينا ان نؤدي حقهم مهما كانت امانة ، فلما نزلت قال النبي (صلى الله عليه وآله

وسلم) : كذب اعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فانها مؤداة الى البر والفاجر^(١) .

واما كيف خص الله تعالى أهل الكتاب بتلك الخاصة وفي غيرهم - كما هم - الخائن والأمين والثقة والظنين ؟ .

لأنه لا يعني - فقط - أمانة المال ، بل والأصل هو الممثل له : أمانة الوحي المخصوص بأهل الكتاب ، ولكيلا يغتر المسلمون بأنهم أهل الكتاب فيأمنوهم على ما ينقلونه لهم من وحي الكتاب .

ثم ولا نحسبهم على سواء في خيانة الأمانة ، فلا تمنعنا المشاقة لهم من أن نشهد أن فيهم الثقة وان كانت الظنة غالباً عليهم ، وان فيهم الأمين وان كانت الخيانة اشبه بطرائقهم .

ولقد سموا المسلمين أميين زعماً منهم ألا كتاب لهم حيث يحصرونه بالعهدين .

ولقد كان بين اليهود وبين أقوام من العرب بيوع وقروض فلما أسلموا قالوا : ليس علينا ان نقضيكم أموالكم لأنكم قد انتقلتم عن دينكم واستبدلتم بمعتقدكم ، حيلة تسلب أموالهم ومطال ديونهم ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : كذب اعداء الله ...

ومن قيلة اليهود الغيلة ان غيرنا عبيد لنا يحل لنا أكل أموالهم وهتك اعراضهم و« ليس علينا في الأميين سبيل » مهما اكلنا من أموالهم وظلمناهم في سائر حقوقهم .

(١) الدر المنثور ٢ : ٤٤ - أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر

قال لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) : ...

إذا فـ « ليس علينا في الأمين سبيل » تعني كل سبيل روحي او زمني او مالي أم اي حق ، فنحن اصحاب الحق المطلق ، وهم ليس لهم علينا أي حق ، وكما يلوح كل ذلك من طيات الآيات التي تحكي عن مزاعمهم التفوقية على كل الأمم ، لحد يحسبونهم حيواناً خلقهم الله بصورة الانسان لكي يصلحوا لخدماتهم .

هنا « ويقولون على الله الكذب » تلمح انهم ينسبون هذه الفوقية العنصرية الى الله وهم يعلمون كذبهم فيه .

وذلك من أخطر الخطر على الانسانية ، ان تحصر حقوقها - الفطرية والعقلية والشرعية اماميه - قبلاً واحداً من عامة الناس هم بنو اسرائيل آمن هم ، لا الحق إلا دعوى مكرورة على السن واقلام سامة تكدرجو الحياة على من سواهم .

فرغم أن الانسانية أمانة ربانية لهم وعليهم ككل ، هم يختصون فضائلها وفواضلها بكل حقوقها بأنفسهم ، احتلالاً قاحلاً جاهلاً لشرف الإنسانية وميزاتها .

ولقد برزت هذه الأنانية الحمقاء بين اليهود كأصل على مدار الزمن ، ومن ثم بين سائر الإختصاصيين من المستعمرين المستثمرين المستحمرين المستبدين المستكبرين المستضعفين المستخفين، أصحاب الأبواب السبع الجهنمية على مدار التاريخ الإنساني .

والقرآن يحرف هذه الخرافات الزور الغرور بكلمة واحدة : « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ثم وليست الكرامة عند الله بما يحمل التقى على الطغوى ، فانما هي تقوى امام الله وامام عباد الله وحتى بالنسبة للحيوانات والنباتات .

كلا والـف كلا ! ليست هذه الأنانية مسموحة في آية فطرة او عقلية انسانية فضلاً عن شرعة الله .

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٧٦ .

« بلى من أوفى » من هود او نصارى او مسلمين « من أوفى بعهدہ » عهد الله ، الذي عاهد عليه الله فظرياً وشرعياً ، وعهدہ نفسه ، والذي عاهد الله عليه ام عاهد عباد الله ام عاهدوه عليه وتقبله بحق « واتقى » الله في عهوده كلها « فان الله يحب المتقين » سواء حملوا اسم الاسلام او سواء ولقد عهد الله على عبادہ « ألا تعبدوا الشيطان انه عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » .

فليست كرامة الحب الربانية بذلك المتذلل الفوضى حتى ينالها كل مدع زوراً وغروراً دوغماً تقوى ، بكل قيلة وادعاء وويلة في طغوى الحياة ، ان « ليس علينا في الأميين سبيل » « نحن أبناء الله وأوليائه » - « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى » و « تلك أمانيتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وهنا نعرف ان الوفاء بالعهد له صلة وثيقة بتقوى الله ، فلا يتغير في التعامل مع عدو او صديق ، اذ ليس الوفاء بالعهد مسألة مصلحة ، انما هو تعامل مع الله .

أجل ليس هو المصلحة ، ولا عرف المجموعة ، ولا قضية ظروف ، بل قضية واقع الخلق الصالحة الإسلامية السليمة ، اللهم إلا في عهود متخلفة فإنها في الأصل باطلة في ميزان الله فضلاً عن الوفاء بها .

﴿ إِنَّ الدِّينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٧٧ .

هنا الرباط بين عهد الله وإيمانهم ، انهم قد يشترون بالعهد وإيمانهم ليصدقوا ، على ان لكل وزراً ..

« يشترون بعهد الله » في مربعه ولا سيما الذي عاهدهم الله عليه من وحي الكتاب بشارته وسواها « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن » ولكنهم اشتروا به ثمناً قليلاً .

« وإيمانهم » على الوفاء بعهد الله ، يشترون بهما « ثمناً قليلاً » وكل ثمن بعهد الله قليل في كل قليل وجليل : « قل متاع الدنيا قليل » (٤ : ٧٧) من حظوة الرئاسة وزخرفات مالية أماهيه ، فان عهد الله لا يساوى او يسامى بأي ثمن .

ولماذا « يشترون » وهم يشرون عهد الله ، لأن المشتري يهيمه الثمن المشتري ، فلذلك لا يهيمه قليله وجليله ، وهؤلاء الأنكاد وصلوا في هتكهم لحرمت الله الى تقديم كل حظوة فانية في هذه الدانية عليها .

لذلك « أولئك » البعاد البعاد « لا خلاق لهم » ولا نصيب « في الآخرة » « فمن لم يكن له نصيب في الآخرة فبأي شيء يدخل الجنة ؟ » (١) « حيث شروا بعهد الله هذا الأركس الأدنى فهم - اذاً - إنما تهيمهم هذه الأدنى دون الأخرى و « من كان يريد الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا ينجسون . أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١١ : ١٦) و « اللهم إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » فأولئك لهم خلاق .

(١) نور العقول ١ : ٣٥٦ بسند متصل عن أبي جعفر عليها السلام حديث طويل يقول فيه : وأنزل في

العهد « إن الذين ... » فمن ...

ذلك ! وهؤلاء الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً هم أنحس من أولاء وأنكى إذ باعوا بالدين الدنيا .

فـ « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة » كلام عطف ونظر لطف ورحمة^(١) اللهم إلا « اخسئوا فيها ولا تكلمون » و « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها » كما « ولا يزيكهم » بتوبة أو شفاعة أو تكفير سيئات بحسنات إذ حبطت اعمالهم التي كانوا يرونها صالحة ، فـ « لا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » - « ولهم عذاب أليم » .

وهذه السليبات الأربع من حظوة الآخرة لهؤلاء الأنكاد هي - بطبيعة الحال - ايجابيات للمتقين ، فلهم في الآخرة خلاق كما سعوها ويكلمهم الله عطفاً وينظر إليهم لطفاً ويزكيهم بمختلف التركيات ، ولهم ثواب عظيم .
هنا « عهد الله » معني في كل حقوله ، وكذلك « أيمانهم » لله ام لعباد الله ، وكما العهد الفاجر يخلف العذاب كذلك اليمين الفاجرة ، مهما اختلفت المراحل في كل منهما وفاءً ونقضاً .

وقد رويت عن رسول المهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) روايات عدة بشأن اليمين الفاجرة الشائنة منها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان . . . »^(٢) فضلاً عن اقتطاع حق من الله في زعمه فأغضب واشجى ! .

(١) المصدر في كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين (ع) يقول فيه - وقد سأله رجل عما اشتهبه عليه من الآيات ، وأما قوله « ولا ينظر إليهم يوم القيامة » ، يخبر أنه لا يصيبهم بخير وقد تقول العرب والله ما ينظر إلينا فلان وإنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير فذلك النظر ههنا من الله تبارك وتعالى إلى خلقه فنظره إليهم رحمة لهم .

(٢) الدر المنثور ٢ : ٤٤ - أخرج جماعة عن ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) : . . . فقال =

اجل و « ان اليمين الغموس »^(١) اهتضام لحق الناس واهتدام لكرامة الله .

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ

= الأشعث بن قيس في والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجمحتني فقدمته إلى النبي (ص) فقال لي رسول الله (ص) ألك بينة ؟ قلت : لا فقال لليهودي احلف فقلت يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي فأنزل الله « إن الذين ... » ، وفيه أخرجه ابن جرير عن ابن جريح أن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله (ص) في أرض كانت في يده لذلك الرجل أخذها في الجاهلية فقال رسول الله (ص) اقم بيتك قال الرجل ليس يشهد لي أحد على الأشعث قال فلك يمينه فقال الأشعث نحلف فأنزل الله « إن الذين ... » فنكل الأشعث وقال : إلى أشهد الله وأشهدكم أن خصمي صادق فرد إليه أرضه وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة ، وفيه أخرجه ابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن الحرث بن البرصاء سمعت رسول الله (ص) في الحج بين الجمرتين وهو يقول : من اقتطع مال أخيه بيمين فاجره فليتبؤ مقعده من النار ليلبلغ شاهدكم غالبكم مرتين أو ثلاثاً ، وفيه أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي (ص) قال : اليمين الفاجرة تذهب المال ، وفيه أخرجه البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) ليس مما عصى الله به هو أصجل عقاباً من البغي وما من شيء أطيع الله فيه أسرع ثواباً من الصلة واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع .

وفيه أخرجه الحرث بن أبي أسامة والحاكم وصححه عن كعب بن مالك سمعت رسول الله (ص) يقول : من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة كانت نكته سوداء في قلبه لا يغيرها شيء إلى يوم القيامة ، وفيه أخرجه الطبراني والحاكم وصححه عن جابر بن عتيك قال قال رسول الله (ص) من اقتطع مال مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار فليل يا رسول الله (ص) وإن شيئاً يسيراً ؟ قال : وإن كان سواكاً ، وفيه أخرجه عبد الرزاق عن أبي سويد سمعت رسول الله (ص) يقول : إن اليمين الفاجرة تعقم الرحم وتقل العدد وتدع الديار بلاقع .

(١) نور الثقلين ١ : ٢٥٥ في عيون الأخبار عن الرضا (ع) حديث طويل في تعداد الكبائر وبيانها من كتاب الله وفيه يقول الصادق (ع) : واليمين الغموس لأن الله تعالى يقول : « إن الذين يشترون ... » .

مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

اللي هو عطف الشيء ورده عن الإستقامة إلى الأعوجاج ، ولواه به عطفه بما سواء ليحسب مما سواء .

طرف آخر من مكائد البعض من اهل الكتاب هو تحريفه بألستهم إقحاماً لما ليس من الكتاب في الكتاب ام تحريفاً بزيادة او نقيصة في أي الكتاب او إعرابه ، ولي الألسنة بكتاب يشملهما ولا سيما الثاني خلطاً بما ليس منه فيه بنفس العبارة الكتابية لغة وجملة ولحناً وكما في «راعنا ليا بألستهم وطعناً في الدين» «لتحسبوه» انتم المسلمين غير العارفين بلغة الكتاب «من الكتاب» ويقولون «هو من عند الله وما هو» فيما يلون «من الكتاب» «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» كذبهم ، وذلك ايضاً «بانهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل» فلكي يصدوا كل سبيل للحجة على أنفسهم يستحلون الفرية على الله حيث الغاية - بزعمهم - تبرر الوسيلة .

كما ولهم لي في كتب الكتاب وثالث في تفسير الكتاب تحريفاً عن جهات أشراعه ، ورابع في تخلفهم عملياً عن الكتاب ، قواعد اربع يتبنون عليها عرش السلطة الروحية الكتابية ا .

واللي الأول يعم ما حرفوه من الكتاب كتباً وسواء ، ومثلث الكتاب يعني كتاب الوحي توراة وإنجيلاً ، ولأن الملوي باللسان لتحسبوه من الكتاب قد يكون من عند الله في وحي السنة فقد نفى كونه من عند الله ، تكذيباً ثانياً لما يلون ، وثالث يؤكدها ويسمهم بسمه الكذب على أية حال «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» .

وذلك اللي والإشتراء والحيانة في أمانة الوحي وسواء من تهديفات - هي

بطبيعة الحال - من رجال الدين ، والعلماء العملاء لتشويه سمعة الدين .

فآفة رجال الدين وعماهتهم على الدين والدينين حين يفسدون هي ان يصبحوا أداة لتشويه الدين باسم الدين ، ليأ بالكتاب ضده وبالسنة ضدها .

هؤلاء الذين يحترفون الدين فيهرفون فيما يحرفون ضد الدين تلبية لأهواءهم وأهواء آخرين عن يستفيدون من أموالهم ومالهم من رغبات وشهوات ، فيحملون نصوصاً من الكتاب ويلهثون بها وراء تلك الأهواء الجهنمية ، ليأ لأعناق هذه النصوص لتوافق أهوائهم السائدة المايذة ، فإنهم - لكي تتحقق أهوائهم من وراء الكتاب - ييذلون جهوداً لاهثة باحثة عن كل تمحل وكل تصيد لأدنى ملابسة لفظية أماهيه ، ليلبسوها من أهوائهم ما ييغون .

والله يحذر المسلمين من هذا المزلق الوهي الذي انتهى بانتزاع أمانة القيادة الروحية من بين اسرائيل .

ولقد نرى ليأ وبيثاً في الآيات الانجيلية المؤولة الى ثالثهم وان المسيح ابن الله ، وهم فاضحون فيما يفتعلون^(١) .

(١) يصرح الإنجيل في ثمانين موضعاً أن المسيح (ع) عبد الله ورسوله كما يقول : إن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية وأن المسيح رسوله (يوحنا ١٧ : ٣) و أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد « (مرقس ١٢ : ٢٩) وهو يتحاشى عن أن يخاطب بالرب كما يندد ببطرس لما قال له : حاشاك يا رب ، فالتفت إليه وقال اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣) ويعتبر أيضاً من يظنه إلهاً أو ابنه من المجانين : « . . فلما عرفوه أخذوا يصرخون : مرحباً بك يا إلهنا وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله فتنفس الصعداء وقال : إنصرفوا عني أيها المجانين لاني أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم المفقوت ، لذلك إرتاع الشعب وطفقوا ييكون » (برنابا ٩٢ : ١٩ - ٢٠) .

وحقاً انه لا يوجد في الأنجيل ما يدل صراحاً على النبوة والألوهية والثالث المسيحية اللهم إلا إختلافات ليأ بالسنتهم وطعناً في الدين .

ـ فمثل « أنا والآب واحد » (لوقا ١٠ : ٣٠) من التشابهات التي تفسرها محكمات كالتى سلفت فالوحدة هنا توحد العبد مع ربه في الدعوة إليه ، فلودعا إلى نفسه لم يكن معه واحداً . وكذلك : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . والنور يضي في الظلمة والظلمة لم تدركه » (يوحنا : ٥) .

فإن لم تكن هذه الحاقية ليست لتعني الكلمة فيها المسيح بل هي كلمة « كن » التكوينية التي كانت عند الله فإنها القدرة الفعلية ، ثم « كان الكلمة الله من حيث القدرة الذاتية وهي من صفات الذات .

فللقدره كما العلم واجهتان ذاتيتان هما من صفات الله التي هي عين الذات ، فعليتها عند الله لأنها من صفات الفعل .

ثم لا نجد في الإنجيل ما يوهم التثليث إلا كلمة الآب والإبن والآب تعني الخالق والإبن هو ابن الإنسان كما في ثمانين موضعاً .

وأما في الرسالة الأولى ليوحنا ٥ : ٦ - ٨ : ١١ : هذا هو الذي أتى بجاء ودم المسيح . لا بالماء فقط بل بالماء والدم . والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق . فإن الذين يشهدون (في السماء) هم ثلاثة (الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد . والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة) الروح والماء والدم والثلاثة هم واحد ؛

فما بين الهالين منها : الآب . . . إلى - هم ثلاثة - مما كتبت أيديهم كذباً وزوراً ولا توجد في أقدم النسخ وكما لا تصرح به الترجمة العربية من الأصل اليوناني المطبوعة في المطبعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٦ وهي مدار النقل عندنا في كتبنا الثلاثة : عقائدنا - المقارنات - رسول الإسلام في الكتب السماوية - فالتنبيه الموجود في أول هذه النسخة : والهالان () يدلان على أن الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في أقدم النسخ وأصحها ، هذا التنبيه دليل أنه التثليث المذكور فيه مقدم وكما يقول به كبار المحققين من علماء الإنجيل مثل كريستاج وشولز وهورن المفسر الشهير للإنجيل ، رغم تمصبه في الحفاظ على الأناجيل حيث يقول : هذه الجملة - يعني ما بين القوسين - الحاقية يجب حذفها عن الإنجيل ، وتبعه جامعون تفسرون هنري وإسكات وآدم كلارك ، ثم إكستائن وهو من أعلم علماء التثليث ومرجعهم لا ينقل هذه العبارة في رسالاته العشر التي كتبها حول هذه الرسالة -

من ذلك لي « الأب » وهو لغة يونانية بمعنى الخالق ، الى « الأب » مع الحفاظ على مده في اصل الكتاب ، يلوون ألسنتهم بالأب أباً لتحسبوه من الكتاب نصاً على ابوة الله للمسيح (عليه السلام) وليس الأب من الكتاب وإنما هو الأب فالابن معه ام سواء هو ابن الانسان ، فقلوه (عليه السلام) لمريم المجدلية : امضي الى اخوتي وقولي لهم : إني صاعد الى أبي الذي هو أبوكم وإلهي الذي هو أهلكم (يوحنا : ٢٠) لا يعني من « الأب » إلا الخالق مهما اسقطوا مدها ام أثبتوها وكما يؤيده ثانياً « إلهي وأهلكم » .

ذلك ! وكما يلوون ألسنتهم بـ « بريكليطوس » التي تعني غاية الحمد : أحمد ومحمد - فيلفظونها « باراكليطوس » : المسلي ، ليحرفوها عن محمد النبي الى المسلي الروح القدس ، و « بريكليطوس » هي المسجلة في الأناجيل قبل الإسلام

= الإنجيلية ، رغم أنه من أسس أساس التثليث ، فلم تكن - إذا - هذه العبارة في الإنجيل حتى القرن الرابع زمن إكسنتائن وإلا لكانت من أوضح أدلة على التثليث ! وقد تكلف في مناظرته مع فرقة ليسرين المنكرين للتثليث في الآية (٨) فكتب أن المعني من الماء هو الأب والدم هو الابن والروح هو الروح القدس ! .

فلو كانت عبارة التثليث : الأب والكلمة والروح القدس - موجودة في زمنه وأن في نسخة مجهولة ساقطة لكان يثبت بها ولم يسقط في هوة هذا التأويل البارد .

ومن يصرح بذلك الإلحاق الدكتور فندر الألماني مؤلف ميزان الحق في رده - بزعمه - على الإسلام ، ويكتب المفسر الشهير هورن ١٢ صفحة في التفتيش عن هذه الجملة وقد لخصها جامعون تفسير هنري والاسكات كالتالي : الأدلة المثبتة لكونها الحاقية بما يلي :

- ١ - لا توجد هذه العبارة في النسخ اليونانية قبل القرن ١٦ فهي - إذا - ملحقة في هذا القرن .
- ٢ - لا توجد في المطبوعات الأولى ثم نراها بعدها .
- ٣ - لا توجد في شيء من التراجم إلا اللاتينية قليلاً .
- ٤ - لم يستدل بها أحد من القدماء والمؤرخين الكنسيين .
- ٥ - زعماء بروتستانت الروحيون بين مسقط لهذه العبارة ومبق لها بضميمة علامة الريب والتزييف ض .

ثم حرفت الى « باراكليطوس » بعد الإسلام .

ومن ليهم في تراجم الكتاب اسقاط « مِيقَرِبْ » في بشارة سفر التثنية بنبي اسماعيلي حيث تقول : « نَابِيءْ آقِيمْ لَاهِمْ مِيقَرِبْ إِجِيحْمْ كَمَوْشِيَّة .. » : نبي آقيم لهم من أقرباء أخيههم كموسى » ثم نرى سائر التراجم كالتفقة على إسقاط « مِيقَرِبْ » حيث تقول « من وسط بني اسرائيل من إخوتهم مثلك - من إخوتك مثلي » ترجمة مرتجفة مريبة رغم وحدة الأصل في « مِيقَرِبْ » تنحية لهذه البشارة عن النبي الإسماعيلي الذي بعث من أقرباء أخيههم ، فـ « أخيههم » هو بنو عيص كما في « تث ٢٨ : ٨ » وأمر القوم وقل لهم إنكم لحد إخوانكم بني عيص ، وأقرباء بني عيص هم بنوا اسماعيل ، فإن عيص نفسه كان صهراً لإسماعيل^(١) .

ومن ليهم ترجمة « بِمَثْدُ مِثْدُ شَنِيمْ عَاسَارْ نَسِيثِيمْ يُولَدُ .. » : بمحمد واثني عشر اماماً يلدهم - حيث ترجموها بـ « الكثير جداً واثني عشر رئيساً »^(٢) .
هذه واشباهها كما نجد قسماً منها في كتابنا « رسول الإسلام في الكتب السماوية » .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾^{٧٩} .

لقد نزلت هذه الآية في خضم الحوار مع نصارى نجران حين سئل : « اتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ، فقال رجل من

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ٣٣ - ٣٩ .

(٢) المصدر ٤٠ - ٤٣ .

اهل نجران نصراني : أو ذاك تريد هـنا يا محمد فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : معاذ الله ان نعبد غير الله أو تأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا بذلك امرني ^(١) .

وكما قال له رجل « يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله فأنزل الله هذه الآية ^(٢) ، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل ان يتخذني نبياً ^(٣) .

وهنا « ما كان » تنفي عن اعماق الزمان بمثلثة الدعوة المعاكسة لتوحيد الله لرسول الله وانبيائه ، أن يرتقوا زوراً وغروراً عن الرسالة الإلهية الى الإلهية نفسها ، نفياً في استحالة ذات بعدين ، ان يبعث الله من يحاده في ألوهيته ، وأن يتبدل المألوه إلهاً .

وليست « لبشر » هنا تختص النفي ببشر ، وإنما لأن المدعى ألوهيته هنا بشر ، وان البشر - وهو في أحسن تقويم - إذا لم يصلح له ان يكون معبوداً من

(١) الدر المنثور ١ : ٤٦ - أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله (ص) ودعاهم إلى الإسلام : أتريد ...

(٢) المصدر أخرجه عبد بن حميد عن الحسن قال بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله (ص) : ..

(٣) نور الثقلين ١ : ٣٥٧ في عيون الأخبار في حديث سلسلة الذهب قال المأمون يا أبا الحسن (ع) بلغني أن قوماً يغفلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحد فقال الرضا (ع) حدثني أبي - إلى - قال قال رسول الله (ص) : ... قال الله تعالى « ما كان لبشر .. » وقال علي (ع) يهلك في إثنان ولا ذنب لي مفرط ومبغض مفرط وأنا لبراءة إلى الله تعالى ممن يغفلون فينا لرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم عليهما السلام من النصارى .

دون الله فبأحرى من دونه من سائر الخلق، ثم الآية التالية لها تنفي بوجه عام الألوهية عما سوى الله .

وهنا « ان يؤتیه الله . . ثم يقول » دون « ان آتاه الله ثم قال » مما يؤكد الإستحالة في بعدها ، ان ليس الله يبعث من يتخلف هكذا عن رسالة ، « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » (٦٩ : ٤٥) . وليست تتبدل الرسالة الى المرسل نفسه .

و « الكتاب » هنا هو كتاب الوحي « والحكم » هو الحكم الرسالي بالكتاب ، فقد أوتي المرسل اليهم الكتاب ولم يؤتوا الحكم الرسالي بالكتاب ، ومن ثم « النبوة » هي الرفعة بين المرسلين بالكتاب ، فهي المرحلة القمة الرسالية مهما كانت درجات .

ولقد بلغت دركة الدعاية الشالوية لحد يستجوب الله فيها المسيح (عليه السلام) البريء فيجيب : « واذا قال الله يا عيسى بن مريم ءانت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته . . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . . » (٥ : ١١٧) و « لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . . » (٤ : ١٧٢) .

ان المعرفة البسيطة بالله تمنع العارف عن دعوى الألوهية ، فضلاً عن يؤق الكتاب والحكمة والنبوة ، فإنها تحكّم عرى العبودية ، اذ ليست واردة إلا مورد العبودية القمة .

« ما كان . . . ثم يقول للناس » « كونوا ربانيين » : متسبين الى الرب بمعرفة غالية وعبودية عالية كما نحن المرسلين ، نحن بـ « الكتاب والحكم

والنبوة « ثم انتم » بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون « فاعلم الكتاب الرسالي وتعليمه يجعلكم ربانيين بعيدين عن الدعاوي الخاوية الشركية .

فالربانيون هم القادة الروحانيون ، الحاملون لدعوات الرسل بين المرسل اليهم ، وهم هنا « الناس » المعنيون بيازغ الدعوة ومنطلقها ، حيث يتربون في حجر الوحي الرسالي ، معرفياً وعملياً ثم يربون الناس كما تربوا .

﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخَلِّدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^{٨٠}.

« يأمركم » منصوب عطفاً على « ان يؤتبه الله » : ما كان لبشر . . . « ولا ان يأمركم » ذلك البشر ، « يأمركم » النبي « بالكفر بعد اذ انتم مسلمون » او « يأمركم » الله بالكفر بتلك الرسالة المضادة « بعد اذ انتم مسلمون » .

فكلما تبلغ النبوة ذروة عليا يبلغ النبي الى عبودية أسمى ، ولئن استحق المسيح (عليه السلام) ان يدعو لنفسه لكرامته على الله ، فليبلغ إمامه وامام المرسلين : محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى الامامة على الله ا .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾^{٨١}.

آية غرة ترفع من شأن خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) الى اعلی القمم التي لا تساوى او تسامى حيث تحمله - وهو آخر النبيين - المجيء اليهم كلهم برسالة القدسية .

هنا زوايا اربع لذلك الميثاق ، آخذه وهو الله ، والمأخوذ منهم وهم النبيون فلا ذكر لاعمهم حتى يكونوا هم المعنيين ، والمأخوذ له : « رسول مصدق لما

معكم « واصل الميثاق : « لتؤمنن به ولتنصرنه » وفي أخرى ميثاق آخر غليظ على النبيين ومعهم خاتمهم : « واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم واعد للكافرين عذاباً اليماً » (٣٣ : ٨) فالميثاقان اذاً مختلفان كل ينصب في مصب غير الآخر .

صحيح ان « ميثاق النبيين » ادبياً كما يتحمل كونه من اضافة المصدر الى المفعول كما ذكرناه كذلك اضافة الى الفاعل ليكون ذلك الميثاق للنبيين على امهم ، ولكنه معنوياً هنا لا يناسب إلا الأول لمكان « لتؤمنن به ولتنصرنه » حيث المخاطبون فيهما هم النبيون اذ لا خبر هنا عن امهم ، فقد اخذ الله الميثاق من النبيين عليهم لرسول جاءهم بعدهم مصدق لما معهم .

فذلك - إذا - ميثاق رسالي لصالح الرسالة الأخيرة المحمدية إيماناً به سلفاً ونصرة له ولما يولد ويبعث في ظاهر حاله .

وترى « إذ » تعني زمناً واحداً جمع فيه النبيون لجمع واحد لأخذ ذلك الميثاق منهم عليهم ؟ قد يجوز فيما لا نحيط به علماً^(١) لكن المفهوم لدينا المعلوم عندنا أن زمن ذلك الميثاق موزع على زمن النبيين كلٍ لحدده .

ثم وذلك الزمن الموزع لذلك الميثاق هو « لما آتيتكم ... » ميثاقاً عسيراً لإتيانهم كتاباً وحكمة .

وقد يحتمل أن « إذ » تعني زمن خلق كل من النبيين أن فطرهم الله على

(١) البحار ١٥ : ٢٢ - ٣٦ السرائر عن أبي الحسن الأول (ع) يقول : خلق الله الأنبياء والأوصياء يوم

الجمعة وهو اليوم الذي أخذ الله ميثاقهم ، وقال : خلقنا نحن وشيعتنا من طينة غزونة لا يشذ عنا

شاذ إلى يوم القيامة .

ذلك الميثاق ، ولكن « النبيين » موضوعاً لأخذ الميثاق يبعد ميثاق الفطرة المأخوذ منذ خلقهم لا منذ نبوتهم ، ثم « عاقرتم وأخذتم على ذلكم إصري » يبعده ثانياً حيث الفطري رسالياً أم خلقياً لا يتخلف .

وقد يقال إن مصير الإقرار هنا هو مصير الإقرار بالتوحيد في آية الذر حيث تعني ميثاق الفطرة على التوحيد ، ثم « ميثاق النبيين » غير صريحة ان ذلك الميثاق اخذ عليهم منذ النبوة ، فقد يجوز انه مأخوذ عليهم منذ خلقهم .

ولكن تلك الفطرة الخاصة بالنبيين لا يعبر عنها بأخذ الميثاق ، لكنه لا بأس بكونه ضمن المعنى من اخذ الميثاق عليهم حين نبوتهم تأكيداً لما اخذ عليهم حين خلقهم .

إذاً فكما الله فطر الناس على توحيده منذ خلقهم ، كذلك فطر النبيين على الايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصرته .

أم تعني « إذ » مربع الزمان ، قبل خلقهم في ارواحهم حيث كانوا انواراً روحية ، وعند خلقهم وقبل نبوتهم وعندها ، ميثاق وثيق رفيق عريق مأخوذ عليهم في هذه المواطن الأربع ! .

أترى « ثم جاءكم رسول » تعني كل رسول يتلو نبياً منهم ، فهم - اذاً - كل الرسل ، أخذ الميثاق على كل نبي سبقه أن يؤمن به وينصره ؟ .

و « رسول » بإفراده أمام جمعية النبيين لا يناسب جمعية الرسل ! ثم وكيف يؤخذ ميثاق الايمان من كل نبي لكل رسول والنبوة أعلى محتداً من الرسالة ، إلا ان يكون الرسول مرسلأ الى النبيين فهم كأمته مهبا كانوا قبله ، ومن ثم ليس قضية الرسالة ان يأتي كل رسول تلو سابقة ، بل وكذلك النبيون اللهم إلا أولي العزم منهم .

ثم التعبير الواضح الفاصح عن تنالي الرسل « ثم جاء كلاً منكم رسول مصدق له » دون « ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم » بل « فجاء » دون « ثم » حيث الرسل كانوا تترى دون فصل ، كل هذه واشباهها مما تبعد جمعية الأبدال في « رسول » بل وتحيلها .

هنا مادة الميثاق « لتؤمنن به ولتنصرنه » هي منقطع النظير عن كل بشير ونذير ، إلا من يكون رسولاً الى الرسل وإماماً في جموع النبيين .

نجد « آمن معه » « آمن له » من نبي لنبي ، ثم ولا نجد « لتؤمنن به » إلا هنا « ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به » وبذلك التأكد الأكيد .

صحيح ان على كل رسول سابق تصديق اللاحق ، وعلى كل لاحق تصديق السابق، واما الايمان به فلا يصح إلا لمن هو إمام النبيين ورسول إلى المرسلين كما هنا .

وهنا « النبيين » جمعاً على باللام تعني مستغرق النبوات ، فلا تعني بعضاً دون بعض، ولا كل الرسل إلا بطريقة أولى ، فانما « النبيين » وهم أولو النبوة والرفعة بين المرسلين ومن نبوتهم « لما آتيتكم من كتاب وحكمة »^(١) وليس كل رسول يأتيه كتاب مهما أتمته حكمة، فكما أن أولي العزم من الرسل خمسة ، كذلك النبيون منهم وهم اصحاب كتب الوحي ليسوا إلا قسماً من المرسلين ، فهم الأخصاء المتميزون بين المرسلين .

وهنا « ثم جاءكم رسول » لها دور العناية بختم الرسالة الإلهية - العظمى -

(١) اللام في « لما » للتأكيد و « ما » بمعنى الذي وصلته « آتيتكم » . . . والجملة ظرف تحصل الحكمة الحكيمه لـ « لتؤمنن به » . . . وقد يحتمل أن اللام للقسم ترطبة لبيان حكمة مادة الميثاق ، واللام في « لتؤمنن » جواب القسم .

وانها موجهة الى النبيين سلفاً كما وجهت الى أمة الإسلام الأخيرة خلفاً .

وفي « رسول » هنا رغم نبوته العليا ، عناية خاصة الى رسالته الروحية الواسعة إلى كافة النبيين قبله ، والرسول الى النبيين هو - بطبيعة الحال - يفوقهم رسالة ونبوة .

فـ « جاءكم نبي » لا تعني رسالته اليهم ، وإنما مجيء نبي قد يعني التزاور بينهم ولكن « جاءكم رسول » هو مجيئه بالرسالة الإلهية اليهم .

فموقف الرسالة هو حمل الوحي ببلاغ الدعوة الرسالية كما هنا الى النبيين وفي غيرها الى سائر الأمم الرساليين .

وموقف النبوة هو بيان محتد الرسول النبي في نفسه او بين المرسلين .

و « جاءكم رسول » تضم الموقفين ، أصالة في رسالته إليهم ، ولمحة بمحتد هذه الرسالة السامية انها الى النبيين ، فهو فائق على كافة الرسالات والنبوات .

ونرى القرآن يعبر بـ « الرسول - الرسل » في موقف البلاغ الى المرسل اليهم ، وقد يعبر بـ « النبي - النبيين » في موقفهم الذاتي شخصياً ام بين المرسلين .

والرسالة قد تكون الى مرسل اليهم عاديين فرسالة عادية ، ام والى رسل غير نبيين فأنبي وأعلى ، أم والى نبيين غير اولي العزم وهي الرسالة العليا مختصة باولي العزم من الرسل ، ام والى اولي العزم وهي فوق العليا وهي التي تعنيها « ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم » .

فـ « جاءكم نبي » تثبت فقط نبوته مهما كانت فوق رسالة ، ولكنها لا تثبت رسالة اليهم ، وهي تثبت إمامته الرسالية على النبيين اجمعين .

فالروح الرسالية المحمدية محلقة على كل الأرواح الرسالية قبل خلقها في الجسد ، وهي محلقة عليها بعد خلقها في الجسد ويعثها لرسالتها الختامية .

ومن ميزات هذه الرسالة الى النبيين واجب الايمان به ونصرته كشرط أصيل لإتياءهم كتبهم ، وكما منها رسالته لبلاغ الدين ككل مهما اختلفت شرائعهم مع بعض البعض ومع شريعته ، ومنها زرق الروح البلاغي إستقامة لهم كما أمر، وتضحية في الدعوة كما له وعلى أضواءه القدسية .

و « مصدق لما معكم » تعني تصديق رسالاتهم بكتاباتهم ، فلولا تصديقه لما معهم لما صدقت رسالاتهم ، كما ان « ثم جاءكم » دليل خاتمية الرسالية العليا ، وآية « خاتم النبيين » دليل خاتمية النبوة له ، فهو - اذاً - خاتم النبيين والمرسلين على الاطلاق .

وان خاتمته هي لزام نبوته الرسالية ، فنكرانها - اذاً - نكران لرسالته .
تري ومتى « جاءكم » هذا الرسول الأخير وهو الجائي بعدما مضوا وقضوا برسالاتهم .

« جاءكم » هنا تطوي الطول التاريخي الرسالي وعرضه الجغرافي ، تغاضياً عن فواصل الزمان والمكان ، بياناً لمحتد الرسالة الاخيرة انها لا تحض الأمة الاخيرة ، بل وتشمل بروحيتها العالية كافة النبيين ، ولأنهم بكتبهم وحكمهم تقديرات لقرآن محمد ومحمد القرآن حيث يهيمنان على النبيين بكتاباتهم ، « اما علمت ان الله تبارك وتعالى بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو روح الى الانبياء (عليه السلام) وهم ارواح قبل خلق الخلق ... »^(١) مهما

(١) البحار ١٥ : ١٤ ح ١٧ بسند متصل عن المفضل قال قال لي أبو عبد الله (ع) يا مفضل أما علمت ... بالفي عام ؟ قلت : بلى ، قال : أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته واتباعه

ـ أمره ووعدهم الجنة على ذلك وأوعد من خالف ما أجا بوا إليه وأنكره النار ؟ فقلت : بلى .
الخبر . .

وفيه ح ١٥ ح ١٩ بسند متصل عن ابن نباتة قال قال أمير المؤمنين (ع) ألا إني عبد الله وأخو رسوله
وصديقه الأول قد صدقته وآدم بين الروح والجسد ثم إني صديقه الأول في أمتكم حقاً فنحن
الأولون ونحن الآخرون الخبر .

وفيه ح ٢٠ عن ابن سنان قال قال أبو عبد الله (ع) أول من سبق من الرسل إلى « بلى »
رسول الله (ص) وذلك انه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى .

وفيه ح ٢١ عن أبي عبد الله (ع) قال : إن بعض قريش قال لرسول (ص) بأي شيء سبقت
الأنبياء وفضلت عليهم وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم ؟ قال : إني كنت أول من أقر بربي جل جلاله
وأول من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى
فكنت أول نبي قال « بلى » فسبقتهم إلى الإقرار بالله عز وجل .

وفيه ص ١٨ - ح ٢٨ عن مرزوم عن أبي عبد الله (ع) قال قال الله تبارك وتعالى يا محمد إني خلقتك
وعلياً نوراً - يعني روحاً - بلا بدن قبل أن أخلق سائر بني وأرضي وعرضي وبحري فلم تزل تهللي
وتمجدي ثم جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة فكانت تمجدي وتقديسي وتهللي ثم قسمتهما ثنتين
وقسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة محمد واحد وعلي واحد والحسن والحسين ثنتان ثم خلق الله
فاطمة من نور ابتدأها روحاً بلا بدن ثم مسحنا بيمينه فأففى نوره فينا .

وفيه ٢١ : ٣٤ كتاب فضائل الشيعة بإسناده إلى أبي سعيد الخدري قال : كنا جلوساً مع
رسول الله (ص) إذ أقبل إليه رجل فقال يا رسول الله (ص) أخبرني عن قول الله عز وجل
لإبليس « استكبرت أم كنت من العالين » فمن هم يا رسول الله (ص) الذين هم أعلى من
الملائكة ؟ فقال رسول الله (ص) : أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين كنا في سرادق العرش نسبح
الله وتسبح الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق الله عز وجل آدم بألفي عام فلما خلق الله عز وجل آدم
أمر الملائكة أن يسجدوا له ولم يأمرنا بالسجود فسجدت الملائكة كلهم إلا إبليس فإنه أبى أن يسجد
فقال الله تبارك وتعالى : استكبرت أم كنت من العالين ، أي من هؤلاء الخمس المكتوب أسماؤهم
في سرادق العرش .

وفيه ٢٣ - ٣٩ عن أبي حمزة قال سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول : إن الله عز وجل خلق .

= محمداً (ص) وعلياً والأئمة الأحد عشر عليهم السلام من نور عظمتهم أرواحاً في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق يسبحون الله عز وجل ويقدمون له وهم الأئمة الهادية من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

وفيه ٢٣ - ٤٠ عن الصادق (ع) إن الله تبارك وتعالى خلق أربعة عشر نوراً قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقبل له : يا ابن رسول الله (ص) ومن الأربعة عشر ؟ فقال : محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته فيقتل الدجال ويظهر الأرض من كل جور وظلم .

وفيه ٣٢ - ٤١ عن أبي جعفر عليها السلام قال : يا جابر كان الله ولا شيء غيره لا معلوم ولا مجهول فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمداً (ص) وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمتهم فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر الخبز .

وفيه ح ٤٣ عن جابر بن عبد الله قال قلت لرسول الله (ص) أول شيء خلق الله تعالى ما هو ؟ فقال : نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير ، وعن جابر أيضاً قال قال رسول الله (ص) أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمتهم .

وفيه ح ٤٥ عن الفضل قال قلت لأبي عبد الله (ع) كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة ؟ فقال : يا مفضل كنا عند ربنا ليس أحد غيرنا في ظلة خضراء نسبحه ونقدمه ونهلله ونمجده وما من ملك مقرب ولا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة وغيرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا .

وفيه ح ٤٦ عن أبي عبد الله (ع) قال : إن الله كان إذ لا كان فخلق الكيان والمكان وخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار وأجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً فلم يزل نورين أوليين إذ لا شيء كَوْن قبلهما فلم يزل يجران طاهرين مطهرين في الاصلاص الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب عليهما السلام .

وفيه ح ٤٧ عن جابر بن يزيد قال قال لي أبو جعفر عليها السلام يا جابر إن الله أول ما خلق خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين فكانوا أشباح نور بين يدي الله ، قلت : وما الأشباح ؟ قال : ظل النور ، أبدان نورانية بلا أرواح وكان مؤيداً بروح واحد هي روح القدس كان يعبد الله

جاءهم برسالته اليهم بعدهم مبعثاً ، فهو على حد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أول النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً .

ذلك ، ولكن الآية ليست لتعني الإيمان به والنصرة له قبل خلقهم في الجسد ، إذ لم تكن لهم حينذاك كتب ولا نبوات ولا أنه إذا جاء بعدهم ، فإنه خلق قبلهم .

إنما تعني الإيمان والنصرة « ثم جاءكم » طياً لطول الزمان فعليهم أن يؤمنوا كل في زمنه بهذا الرسول وينصروه ، كما عليهم ذلك الإصر عند الرجعة .

ففي مربع فرض الإيمان والنصرة كمحتملات ، لا تدخل في نطاق الآية إلا ما بعد خلقهم في الجسد .

وتلك الهيمنة الكبرى من قضيتها الإيمان السابق والنصر من كافة النبيين لصاحب هذه الرسالة السامية .

ولقد لمحت أو صرحت آيات عدة بهذه الهيمنة لذلك الرسول كآية الشورى : « شرع لكم من الدين وما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (١٣) .

حيث اعتبر الوحي إلى الأربعة الآخرين من أولي العزم وصية أمام الوحي إلى إمامهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن كتاباتهم تحمل - كأصل - توصيات هذه الرسالة الأخيرة ، مهما حملت شرائع مؤقتة لأمم مضت قبلها .

ذلك وكما نرى « رسولنا » في آياتها الأربع و« رسوله » في الأربع والثمانين ، تعنيان هذا الرسول وكأنه هو الرسول لا سواه ، مهما شملت جمعية الصيغة الرسالية كل الرسل .

وكما نرى - وبأحرى - « النبي » معرّفاً تختص في عديدها الواحد والاربعين بهذا النبي لا سواه .

وليس ذلك الافراد في الرسول والنبي لهذا الرسول النبي صدفة غير مقصودة ، بل هو مقصود لبيان محتده الفريد بين كافة الرسل والنبين .

ففي مثلث الوحي والرسالة والنبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الأصل والكل فروعه ، وكأن الوحي إليه هو الوحي فقط اذا قورن بسواه كما في آية الشورى ، وان الرسالة والنبوة تخصانه كما في كل الايات التي أتت بهما بإفراد .

ولقد خصت الرسالة المحمدية بميّزات بين كافة الرسل وعلى حد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » فكينونات الرسالة المحمدية أربع لا يشترك سائر الرسل إلا في أولها وهي الكينونة الرسالية في علم الله ، دون الثلاثة الأخرى وهي كيان الإيمان به ونصرته بالتبشير به قبل خلقه وبعثه ، وكيان رسالته في الأرواح الرسالية كراس الزاوية ، وكيان الإيمان به ونصرته في رجعته .

وقد نحتمل أن روحه الرسالية كانت مخلوقة قبل الرسل كلهم ، إنبعاثاً إليهم فقط دون سائر المكلفين ، وقد يعنيه المروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب السؤال : متى نبث ؟ نبث وآدم بين الماء والطين - وآدم مجندل في التراب و . . . » .

فقد كانت الروح الرسالية المحمدية مشرفة في واقعها - كما يعلم الله - على ارواح النبين اجمع ، هيمنة عليهم وسياجاً لهم عن أية تبعثرات في رسالاتهم .

وآية الميثاق هذه تذكر من ميزات هذا الرسول النبي انه خاتمهم ومصدقهم والرسول اليهم فعليهم « لما آتيتكم من كتاب وحكمة لتؤمنن به ولتنصرنه » - ثم

ياخذ منهم الاقرار بما اخذ عليهم ميثاقه : « قال : « اقررتم واخذتم على ذلكم إصري » اقراراً بهذه الرسالة الختمية والايمان به ونصرته ، وأخذاً بكامل القوات « على ذلكم » العظيم العظيم ، الثقيل الثقيل « إصري » إصرأً في مثلث التصديق والايمان والنصرة « قالوا أقررنا » إقراراً - بطبيعة الحال - شاملاً لأخذ الإصر « قال فاشهدوا » على ما أقررتم « وأنا معكم من الشاهدين » .

والاصر - ككل - هو الحِمل الثقيل على الأصر وكما « ربنا ولا تحمل علينا إصرأً كما حملته على الذين من قبلنا » (٢ : ٢٨٦) « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (٧ : ١٥٧) .

وترى لو أن الإصر موضوع عن الأمة المرحومة رحمة عليهم كما في آيته فكيف يحمله النبيون أجمعون وهم أخرى بوضع الاصر عنهم ، ثم كيف يصبح واضع الإصر عن أمته إصرأً على زملاءه النبيين ؟ ! .

الإصر لغوياً هو عقد الشيء وجسه بقهره كماصر السفينة الذي يجسها بقهر عن تفلتها ، ولكنه قد يكون عقداً وجساً بشراً أو ما لا طاقة به كما في آيته ، وأخرى بخير وهو يطاق ، وهكذا يكون إصر الاقرار بالتصديق والايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم ونصرته ، فانه يخلق على كل حياتهم الرسالية أن يكرسوها - فيما يكرس - للتعريف والبشارة بهذه الرسالة السامية ، فذلك - إذاً - إصر في حمله على النبيين ، وإصر في حمل أمهم على التصديق به ! .

فالإصر والإصار هما الطنب والأوتاد التي يعمد بها البيت ، والرسالة المحمدية هي عماد كل بيوتات الرسالات ، لولها لما قام لها عمود ، ولولا زندها لما كان لها وقود .

وقد يصعب - بطبيعة الحال - لكل نبي أن يعرف نفسه بين أمته انه - كما

هم - من أمة رسول يأتي بعدهم كلهم ، وكما يصعب على الأمم ان يسمعو منهم ويصفوا كأن رسلهم ليسوا أصلاء في رسالاتهم ، بل هم مبشرون بهذه الرسالة .

ويصعب في الأجواء المتعنتة التي لا تقبل الرسائل التي تعيشها ، ان تبشر بالرسالة الأخيرة .

ثم يصعب الإيمان به ونصرته على طول الخط ، قبل ان يبيّثهم بما يبشرون ويوظفون لمجيئه ، وبعد مجيئه ان يحشروا الحاضر الايمان به ونصرته .

تلك صعوبات وصعوبات يعبر عنها هنا بـ « إصري » الحمل الرباني على كواهل النبيين في مثلث تصديقه والإيمان به ونصرته .

وهنا تنحل مشكلة « ثم جاءكم - لتؤمنن به - ولتنصرنه » كيف جاءهم ثم كيف ينصرونه وقد قضوا نحبهم قبله ؟ .

فإنه « جاءهم » في الروح الرسالي تاماً وطاماً ، ما ينير عليهم دروب الرسائل بما عرفهم ربهم به في الشبح الروحي والقمة الرسالية ، كما « جاءهم » يوم الرجعة فقد يرجع بعدهم كلهم ، رسولاً إليهم، فهم - إذاً - من أمة الرسميين .

و « جاءهم » فيما بشروا به كأنه الحاضر أمامهم وهو إمامهم ، فليبشروا به أمهم وانهم من امته^(١) .

و « جاءهم » وقد قضوا نحبهم إلا مسيحيهم ، فليؤمنوا به بعد موتهم كما آمنوا به قبله ولينصروه .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٥٩ عن المجمع وروي عن علي (ع) أن الله تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا (ص) أن يخبروا أمهم بمبعثه ونعته يشروهم به ويأمروهم بتصديقه .

و « جاءهم » في الرجعة المهدوية حيث يرجع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته المعصومون والنبيون كلهم راجعون أعضاداً لدولة الحق الأخيرة (١) .

ومن ثم « ثم جاءكم » لها بُعد الجمعية والإفراد : ثم جاء كل واحد منكم حين يتنبأ فرداً فرداً ، ومن ثم جاءكم ككل بعد انقضاء النبوات بأسرها ، وتقيد مجيئه إياهم فيما يروى بـ « لئن بعث وهو حي » تفسير بمصداق له مختلف فيه وهو زمن الرجعة (٢) .

فذلك - إذاً - إيمان متواصل به ونصرته في هذه المسارح كلها ، لم يسبق له نظير ولن ، لكل بشير ونذير .

ولقد نرى بشارات له تترى في كتابات الوحي على تحرفها ولا سيما في تلك

(١) المصدر العياشي عن فيض بن أبي شيبه قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول - وتلا هذه الآية - : قال ولتؤمنن برسول الله ولتنصرن أمير المؤمنين ، قلت : ولتنصرن أمير المؤمنين ؟ قال : نعم من آدم فهلم جراً ولا يبعث الله نبياً ولا رسولاً إلا رد إلى الدنيا حتى يقاتل بين يدي أمير المؤمنين (ع) . وفيه عن سلام المستنير عن أبي عبد الله (ع) قال : لقد تسموا باسم ما سمي الله به أحداً إلا علي بن أبي طالب (ع) وما جاء تأويله ، قلت جعلت فداك متى يجيء تأويله ؟ قال : إذا جاءت جمع الله إمامة النبيين والمؤمنين حتى ينصرونه وهو قول الله « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين ... » فهو مثله يدفع رؤية رسول الله (ص) اللواء إلى علي بن أبي طالب (ع) فيكون أمير الخلائق كلهم أجمعين ، يكون الخلائق كلهم تحت لوائه ويكون هو أميرهم فهذا تأويله .

أقول : وذلك من الجري والتأويل كما في نفس الحديث ، فعلي (ع) هو مثل الرسول (ص) في الرجعة كما هو قبلها .

(٢) الدر المختور ١ : ٤٧ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (ع) قال : لم يبعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا هذه الآية .

البشارات ! نراها بعشرات وعشرات هي عشرات للوحي الرسالي على طول الخط ، فيها نبرات الايمان والنصرة من النبيين لهذا النبي العظيم ، نذكر قسماً منها بطلانيات آيات تناسبها ، وقد جمعناها في كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » .

فلقد اخذ الله تعالى ميثاقاً رهيباً عجبياً شهده هو وأشهد عليه أنبياءه ، طياً لكل الفواصل زمانياً ومكانياً بين النبيين المتتابعين في مختلف الأزمنة والأمكنة ، يجمعهم في ذلك المسرح الصارح الصارخ وهو يخاطبهم « أقررتم قالوا أقررنا ... » .

ذلك المشهد الهائل الجليل يرسمه ذلك التعبير العبير ، فيجف له القلب ، وليتذكر السامعون .

وهناك « إصري » لمكان العصبيية الذاتية ، لشخص الرسول رسالياً ولقومه قومياً وعنصرياً ، والاتباع ككل نحلة لهم ، أماذا من عصبيات ، تراها كلها تنحني وتنحني أمام « رسول مصدق لما معهم » تتأكراً لكل الأصار :

« قال فاشهدوا » لدي ولدي أمكم^(١) «وأنا معكم من الشاهدين» لدي الكل .

فذلك المجيء هو غير متعود المجيء بين المرسلين ، فانه المجيء في كل حقوله ، رسالياً ورسولياً : إيماناً به في الروح قبل مجيئه في الجسم ، وهذا ما يعنيه الجائي نفسه في قوله : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » فلا يعني نبوته في علم الله إذ تعم سائر النبيين ، بل نبوته في قسم عظيم من لزاماتها وأهمها الإيمان

(١) الدر المنثور ٢ : ٤٨ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (ع) في قوله تعالى : فاشهدوا يقول : فاشهدوا على أمكم بذلك وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم فأولئك هم الفاسقون هم العاصون في الكفر .

به ، والميثاق للإيمان والنصرة له وكما يروى عنه « انا أول النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً »^(١) .

﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٨٢) .

« فمن تولى » عن خاتمته في رسالته ونبوته « بعد ذلك » الميثاق المؤكد الجمعي « فأولئك هم الفاسقون » لو كانوا من هؤلاء النبيين ولن-وليس هنا « منهم » حتى يختصهم التولي-او كانوا ممن يدعون نبوة قبله او بعده ، ام كانوا من الامم المبشرة بتلك الرسالة الختمية .

ذلك ، فحتى ولو كانوا من النبيين ، فكما لا تصدق نبواتهم إلا بختم وتوقيع من خاتم النبيين ، كذلك لا يؤتون كتاباً وحكمة إلا شريطة الإيمان به ونصرته .

ذلك ! فضلاً عن المرسل إليهم ، فقد انضم النبيون كلهم بأمرهم الى موكب هذه الرسالة السامية رسالة واحدة الى امة واحدة ، كما وان الرسائل واحدة الى امة واحدة : « وإن هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » (٢٣ : ٥٣) .

ولو ان ميثاق الايمان والنصر كان - فقط - بين النبيين انفسهم ، كل لاحق لسابقة ، لم يكن لذلك التهديد دور ، فانما تهدد هنا الأمم الناكرة لخاتم الرسل (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولو ان « ميثاق النبيين » كان ميثاقاً لهم على امهم لكان صحيح التعبير « ميثاقاً للنبيين على امهم » أم لو عني من الخطاب في « ثم جاءكم » الأمم ، لاتي بذكرهم وإن مرة يتيمة ! .

(١) راجع لتفصيل هذه الروايات إلى آية « خاتم النبيين » في الأحزاب .

فالرواية المهارفة المخارفة أن اقرءوها : « وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين »^(١) هي صادرة من مصدر الجهالة والحماقة ، ممن لا يعرف معاني كلام الله ومغازيه فيتورط في ورطة التحريف والتجديف ! ..

ذلك الدين الشرعة الذي يحمله خاتم النبيين هو الدين كله وليس ما سبقته من شرعة إلا شرعة من ذلك الدين :

﴿ أَفْقِرَ دِينَ اللَّهِ يَتَغُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣) .

« دين الله » هو طاعته بمختلف تشكيلات الشرائع الخمس ، وفي كل بأشكال مختلفة الظاهر ، والكل تتوحد في أنها « دين الله » وطاعته ، فالذي ينبغي دين الله عليه أن ينبغي شرعته المتشرعة منه كما يشاء ، دون إخلاد إلى شرعة ألفها ، وتصلب عليها نكراناً لشرعة تلحقها .

والمكلف هو بطبيعة الحال يتبغي ديناً وطاعة إما للرحمن أو الشيطان أم

(١) نور الثقلين ١ : ٣٥٨ في تفسير العياشي عن حبيب السجستاني قال سألت أبا جعفر عليها السلام عن قول الله « وإذا أخذ الله .. » فكيف يؤمن موسى بعيسى وينصره ولم يدركه وكيف يؤمن عيسى بمحمد (ص) وينصره ولم يدركه ؟ فقال : يا حبيب إن القرآن قد طرح منه أي كثيرة ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتب وتوهمتها الرجال وهذا وهم فاقراءوها « وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين .. » هكذا أنزلها الله يا حبيب فوالله ما وفدت أمة من الأمم التي كانت قبل موسى بما أنزل الله عليها من الميثاق لكل نبي بعثه الله بعد نبيها .

أقول : لقد أخطأ الراوي في فهم « ثم جاءكم » زعماً منه أن « رسول » هو كل رسول بعد رسول ، ثم أخطأ في القرية على باقر العلوم في « قد طرح منه أي كثيرة » وهو خلاف العصمة الربانية للقرآن « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ثم لم يزد في « لم يزد فيه إلا حروف » إلا أن القرآن الموجود كله حروف أخطأت بها الكتب وتوهمتها الرجال ، فبعداً للقوم الظالمين المختلفين هذه الروايات الزور والغرور ! .

نفاق بينهما عوان، فالذي يدعي الإيمان، عليه أن يتغني دين الله واصباً لأنه دين الله ، لا لأنه ألفه هو وآبائه الأولون، فالمبتغي دين الله هو في سبيل الحق ولما يصل فانه شك مقدس يتحرى فيه الشاك عن دين اليقين ، والراسب على شرعة منسوخة دون تحرر عن ناسخها او تحرر عليه هو على دين غير مقدس ، فانما ابتغاء دين الله هو الصالح بجنب الله لا سواء مهما نقشف وتزهد في شرعة منسوخة مضى دورها .

فـ « دين الله » هو طاعته بمعرفته ، خالصة غير خليطة بسائر الطاعة ، إذا « أغير دين الله يبغون » من طاعة لما سوى الله، إلحاداً في الله أو إشراكاً بالله ، فالكافر بالشرعة الأخيرة ثقلاً على السابقة هو كافر بدين الله ، متبع لهواه ، تارك لأمر مولاه ، لانه غير مبتغٍ لدين الله ، فانما يتغني هواه مهما أظهرها بمظهر شريعة الله ! .

« وله أسلم » لله ولدين الله « من في السماوات والارض طوعاً » هم المؤمنون الحقيقيون ، إسلاماً لطاعته في كل قليل وجليل « وكرهاً » حيث لا يستطيعون الخروج عن سلطان علمه وقدرته مهما كفروا .

فالإسلام هنا يعم تكوينيه إلى تشريعيه وتشريعيه إلى تكوينيه ، فهما مجتمعان في المؤمنين ويفترقان في الكافرين حيث هم مسلمون كرهاً مهما تركوه طوعاً ، ثم والكل « اليه يرجعون » .

وقد يعني الاسلام طوعاً بالنسبة للكفار ايضاً حيث أسلمت فطرهم بما فطر الله وعقولهم إن كانوا يعقلون ، مهما كفروا بما طغت أهوائهم ، ثم الطوع بالنسبة للمؤمنين فيه زيادة اتباع أهوائهم لفطرهم وعقولهم ووحى الله .

وبوجه عام قد يعني ذلك الإسلام أن ألقوا اليه السلم - كلهم - بما يظهر من حاجتهم إلى إرفاقه وفقرهم الى أرزاقه ، ونقائصهم التي لا تتم إلا بحسن

تدبيره لهم ، ونعمه السابغة عليهم ، فقد دانوا له طوعاً وكرهاً ووهوا إليه فقراً وضعفاً .

فالذين أسلموا له هم الملائكة والنبيون ، ثم المؤمنون ، والذين أسلموا كرهاً هم إبليس وأشباهه من الجن والإنس وكما قال « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » فقد يدل استنظاره على إقراره بأنه مملوك مدبر ومصرف مسخر ، وأنه لا يعتصم من الله بمذهب ولا ينجو بمهرب ولا يبقى إلا أن يُبقية، ولا يأمن إلا أن يؤمنه ، فهو - إذاً - ممن أسلم في وجه مهما كان في آخر شاردة عن طاعته ، مارداً عن قيادته .

ف « وله أسلم » هنا طليق يشمل كل مراحل الاسلام تكويناً وتشريعاً ، طوعاً وكرهاً بحيث لا يفلت عنه قالت ، ولا يفوت عنه فائت .

فكما الإسلام الإيمان هو باكتساب واختيار، كذلك الإسلام التسليم قبل الإيمان كما « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » (٤٩ : ١٤) فإسلام التسليم ظاهراً عن جبن يشمله « وله أسلم » مع إمكانية المنعة والحياص ، مهما كان سببه الخوف والفرق .

وإسلام التسليم طمعا في الرغائب ومنى في الفوائد ايضاً إسلام مهما كان سببه الرجاء ، وإسلام التسليم حباً لله وفي الله إسلام ولا سبب له إلا حب الله ، وهذه ثلاث كلها الإسلام طوعاً .

ثم الاسلام كرهاً كمن يسلم نفسه للموت إذا حان حينه ولم يكن له سبب للفرار عنه وما أشبه .

فابتغاء غير دين الله إنعزال في زاوية بثينة تعيسة تخالف الفطرة والعقلية السليمة وشرعة الحق ، وتختلف عن موكب الكون ككل ، فـ « ان كل من في السماوات والارض الا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدداً . وكلهم

آتيه يوم القيامة فرداً» (١٩ : ٩٥) « والله يسجد من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً » (١٣ : ١٥) « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض » (٢٢ : ١٨) .

هذا إسلام الله على مدار الزمن ، ومن ثم إسلام في دولة المهدي (عليه السلام) فـ « إذا قام القائم (عليه السلام) لا يبقى أرض ألا نودي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) »^(١) .

وهنا طوعاً هو إسلام الايمان وكرهاً هو إسلام الاستسلام ، فلا يبقى - إذا - ملحد في الله او مشرك بالله، مهما بقيت بقية ضئيلة من أهل الكتاب ، ولكن ليس لهم دور دائر ، فانهم في دولة المهدي (عليه السلام) يعيشون تحت ذمة الاسلام ، مراعين شروط الذمة بتمامها .

ولأن دين الله بعد نزول القرآن منحصر فيه ، منحصر عما سواه، فابتغاء ما سواه محظور حتى في دراسة كتابات الوحي اللهم إلا مقارنة بينها وبين القرآن ، تزييفاً لها بما حرفت وتثبيتاً للقرآن .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٦٢ العياشي عن رفاعه بن موسى قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول في الآية : إذا قام القائم (ع) .

وعنه عن ابن بكير قال : سألت أبا الحسن (ع) عن الآية قال : أنزلت في القائم (ع) إذا خرج باليهود والنصارى والصائبين والزنادقة وأهل الردة والكفار في شرق الأرض وغربها فعرض عليهم الإسلام فمن أسلم طوعاً أمره بالصلاة والزكاة وما يؤمر به المسلم ويحب الله عليه ومن لم يسلم ضرب عتقه حتى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلا وحده الله ، قلت له : جعلت فداك إن الخلق أكثر من ذلك فقال : إن الله إذا أراد أمراً قلل الكثير وكثر القليل .

أقول : الإسلام هنا التوحيد ويشهد له « إلا وحده الله » وكذلك الأيتان في بقاء بقية من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة « وألقينا - وأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . . .

لذلك نرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتغير وجهه بما يكتب للخليفة عمر من جوامع التوراة قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتكم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين »^(١) .

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(٨٤) .

« قل » كما هو خطاب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شخصياً كذلك هو خطاب لكل مكلف بدلياً كـ « قل هو الله احد » وما اشبه ، انه رغم العصبية الجاهلة والعنصريات والإقليمية القاحلة وتأريخية الشريعة الكتابية وجغرافيتها الماحلة ، يومر رسول الهدى ان يعلن حقيقة الإسلام والإيمان ، وانها لا يُحَدَّان بآية حدود إلا ابتغاء دين الله ، فيعلن - إذاً - إيمانه والذين معه بجميع الرسائل ، واحترام جميع الرسل ، معرفة بطلاق دين الله الذي لا يقبل الله من المكلفين سواه ، مهما أمر المسلمون الآخرون باتباع شريعة القرآن إتباعاً لأصل الدين كما أمر سائر الأمم قبلها باتباع شرائعهم : « قل آمنا بالله وما انزل علينا » قرآنًا وسنة « وما أنزل على إبراهيم » كشرعية أصيلة ثانية ثم « واسماعيل

(١) الدر المنثور ٢ : ٤٨ - أخرج أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله أي مرتب يأخ لي من قرينة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فسرى ع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ... وفيه أخرج أبو يعلى عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فليتهم لن يهدوكم وقد ضلوا إنكم إما أن تصدقوا بباطل وأما أن تكذبوا بحق وأنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني .

واسحاق ويعقوب والاسباط « كأتباع للشرعة الإبراهيمية .

ومن ثم « ما أوتي موسى وعيسى » كشريعتين أصيلتين بعد الأوليين ، كما وأن بعد الأربعة « ما أنزل علينا » - وما أوتي هامشياً - « النبيون » على مدار الزمن الرسالي « من ربهم » وقد يعني ما أوتي نوح ضمن ما أوتي النبيون ، وعلى عدم اختصاصه بالذكر لانقطاع الخبر الصادق عما أوتي من صحف .

فذلك هو الايمان المحلق على كل كتابات الوحي ورسالاتها « لا نفرق بين أحد منهم » في الإيمان بهم وأنهم رسل الله ، لا يتفرقون في حمل رسالة الله واحدة موحدة في دين الله ، لأنهم في موكبهم الرسالي صادرون من مصدر واحد وإلى أمة واحدة ، لا يتفرقون في أصول الدين وفروعه ، اللهم إلا طقوساً ظاهرية من فروع أحكامية حسب الحكمة العالية الربانية « ليلوكم فيها آتاكم » « ونحن له مسلمون » .

وهنا « أنزل علينا » قد يعني أنخص بما أنزل إليه ، إنزالاً دون وسيط كما في « أنزل معه » فهما يعنيان في سائر القرآن الإنزال الرسالي مهما جاء يتيسراً لغير الرسل « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا » وأنزل إليه هو طليقه الشامل للامة .

وذلك لان النص هنا يعني الرسول كأصل لمكان « قل » مهما شمل الأمة لمكان « آمنا » .

لذلك ترى في أخرى « أنزل إلينا » حيث تعني الأمة مهما عنت الرسل فيما يتلوها : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٢ : ١٣٦) .

ثم « ما أوتي » أعم مما أنزل ، حيث الإتياء يشمل الآيات الكونية لتلك

النبوات ، المتوفرة لموسى وعيسى ومن بينهما من النبيين ، والإنزال قد يختص بالآيات الكتابية شرعة وآية رسالية ، وهكذا تكون الآيات النازلة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم لا تذكر آية كونية لابراهيم إلى الأسباب مهما كانت لهم آيات .

او يقال « والنبيون » الشاملة لهم كلهم تجمع إلى الآيات النازلة عليهم ، الآيات المؤتاة إياهم ، فرسولنا العظيم هو الوحيد المنقطع النظير بينهم في ان ما انزل عليه فيه الكفاية عما يؤتى أي نبي من آيات عينية « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . . . » .

ذلك هو الإسلام في سعته لكل الرسالات الإسلامية ، وفي الإيمان لكافة الرسل وكتاباتهم ، إذاً ف :
﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٨٥) .

فالشرائع الإلهية كلها إسلام لله بدرجاتها ، ولكن لا إسلام بعد الإسلام الأخير ، فابتغاء ما سواه من شرعة غابرة منسوخة او شرعة مدعاة بعده ، إنه ابتغاء لغير الإسلام المرتضى .

وكيف لا وقد « أرسله بحجة كافية وموعظة شافية ودعوة متلاقية ، أظهر به الشرائع المجهولة ، وقمع به البدع المدخولة ، وبيّن به الأحكام المفصولة ، فمن يتبع غير الإسلام ديناً تحقق شقوته ، وتنقص عروته ، وتعظم كبوته ويكون مآله إلى الحزن الطويل والعذاب الويل » (١) .

ف « الاسلام » هنا يخص الإسلام الأخير مورداً وان كان يعم سائر

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع) .

الاسلام وارداً ، فالنص هنا « ومن يتبع » يشمل منذ ذلك الإسلام حتى يوم
القيام ، وأما سابق الإسلام فقد لا يشمله صيغة الاستقبال : « ومن يتبع » مهما
كانت كافة الشرايع إسلاماً ، اللهم إلا أن تعني ضابطة ثابتة من القضايا
الحقيقية التي تخلق على مثلث زمن التكليف ، وذلك أشبه بحق الإسلام
والإسلام الحق .

ذلك هو الإسلام كما يريد الله ، دون الإسلام الذي تريده الأهواء
المتارجفة المتفاوتة في أجيال نكدة من الناس النسناس الخناس ، ولا كما تصوره
أغلبية أعداءه المتربصين به كل دوائر السوء ليجعلوه إسماً بلا معنى أو رسماً بلا
مغزى أو شعاراً بلا شعور ام زاداً - فقط - لأهل القبور ! .

بل هو إسلام الله ، طليقاً في كافة الحقول الحيوية ، فإن الله أحكاماً تخلق
على كل متطلبات الحياة ولزاماتها ورجاجاتها ، دولها حاجة إلى أنظمة مختلفة
مختلفة للحياة .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا

بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَا

أَنَّهُمْ كَفَرُوا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أزدَادُوا
كُفْرًا لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ
مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ؕ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا
مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾
* كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ ؕ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّورَةُ ؕ قُلْ فَاتَّبِعُوا
بِالتَّورَةِ فَاتَّبِعُوا مَا أَنزَلْنَا وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾
قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

اترى ان الله « يهدي قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق
وجاءهم البينات » ؟ أن يهديهم توفيقاً لهم رفيقاً ليتوبوا :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦) .

لا تعني الهداية المنفية هنا التشريعية لأنها عامة غير مخصوصة بفريق دون آخرين ، ولا التكوينية المسيرة لأنها منفية عن القبيلين ، إنما هي هداية التوفيق للتوبة وقبولها ، فإنها خاصة بالصالحين ثم الضالين المتحررين عن الهدى ، فهم « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

أبعد الإيمان بالبينات والشهادة بحق الرسول يكفرون ؟ وفي ذلك عناد للحق وتضليل للمؤمنين ، وهذا من أظلم الظلم في مثله : بأنفسهم وبالحق ويحق الآخرين المتزعزين بذلك الكيد المكين !

مهما كانت هذه الشهادة أقوى والكفر بعدها أغوى - كما في كفر أهل الكتاب بعد إيمانهم - كان الإرتداد أظلم وأطغى ، فالإرتداد دركات كما الإيمان درجات .

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٧) .

« لعنة » تلبسهم وتغمسهم في السارين ، من الله ألا يهديهم سبيل الرشاد ، ومن « الملائكة والناس أجمعين » ألا يطلبوا لهم من الله هدى ، بل لعناً وبئلاً .

وترى هؤلاء ملائكة الله يلعنونهم بسند إيمانهم وكفر هؤلاء ، فكيف يلعنهم « الناس أجمعين » وفيهم كفارهم سناد وعتاد هؤلاء الأنكاد ؟ .

عل « اجمعين » يعني جمع الناس إلى الملائكة والملائكة إلى الناس ، مهما استثني عن الناس نسناس ، ام وهم كل الناس ، فالمؤمنون منهم يلعنون بسند الايمان ، والكافرون منهم المتأثرون بارتدادهم يستلعنون حيث يضاعف العذاب

لهؤلاء المضللين بما ارتدوا عارفين : « ربنا آتاهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » (٣٣ : ٦٨) ، وسائر الكفار ايضاً يلعنونهم يوم الدين ويتلاعنون : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » (٢٩ : ٢٥) « كلما دخلت امة لعنت اختها . . » بل ويوم الدنيا حيث يلعنون الضالين مهما حسبوهم انهم المؤمنون ، ولكن اللعنة تجدد واقع موردها كما يشاء الله .

وحتى إذا عرفوا أنهم أنفسهم الضالون ولكنهم بتأييدهم الكفار يلعنونهم واقعياً حيث يزدادونهم عتواً ونفوراً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٨٨) .

« خالدين فيها » : في ثالث اللعنة ، في نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة « لا يخفف عنهم العذاب » وكما لا يستزاد ، وإنما هو جزاء العدل الوفاق قدر الكفر الواقع ، خلوداً بضاهي خلود الكفر « ولا هم ينظرون » حين الحكم بالعذاب فلات حين مناص ومنافات يوم خلاص .

ذلك للذين لم يتوبوا عما ارتدوا ولم يصلحوا ما أفسدوا بما ارتدوا :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٨٩) .

« تابوا » إلى الله « من بعد ذلك » الإرتداد المضلل « وأصلحوا » ما فسد تحت وطأته ، إصلاحاً لأنفسهم الماردة ولأنفس الآخرين الشاردة عن الإيمان بما ارتدوا (١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٤٩ - أخرج جماعة عن ابن عباس قال : كان رجل من الانصار فأسلم ثم ارتد

ولحق بالمشركين ثم ندم فأرسل إلى قومه أرسلوا إلى رسول الله (ص) هل لي من توبة فتزلت :

كيف يهدي الله - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم « فأرسل إليه قومه فأسلم .

أقول : وأخرج جماعة مثله في أشخاص آخرين ، وليس مورد النزول وهم كلهم من المرتدين ملياً ، =

والقدر المعلوم من عدم قبول التوبة هو الموت على الكفر :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ (٩٠) .

فازدياد الكفر بعد الإرتداد عن إيمان دليل العناد في اللإيمان فهم المضللون - إذاً - لكتلة الايمان و « لن تقبل توبتهم » لاكيد الكفر المعاند ، المضلل للبسطاء .

وليس يعني « ثم ازدادوا كفراً » - فيما يعنيه - إزدیاد الزمان إلى وقت الموت ، حيث تتكفله الآية التالية لها .

فكما لا تقبل توبة الكافر حين يموت على كفره ، كذلك حين يزداد كفراً بعد ارتداده ، ثم تقبل توبات الآخرين على شروطها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَاقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ أَلِيمٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٩١) .

فاستحالة الملكية لـ « ملء الأرض ذهباً » واستحالة الإقتداء به لو ملك ضئيلة بتلك الثروة الهائلة - وقد سئلوا ما هو أيسر من ذلك فضنوا (١) - ثم وعدم قبولها منهم لو اقتدوا ، ذلك المثلث من الإستحالة يفسر قدر الإحالة في « لن » فـ « إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من

= والذي يخص الآية بنفسه فإنما العبرة بعموم الآية دون خصوص المورد ، ولو كان الحكم مختصاً بالمرتد ملأ لا يختص به نصاً أو ظاهراً .

(١) المصدر - أخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأساء والصفات عن أنس عن النبي (ص) : قال يجهاد بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به ؟ فيقول : نعم فيقال : لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك وذلك قوله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » .

عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » (٥ : ٣٦) .

و « أولئك » الأتكاذ البعاد « لهم عذاب أليم » في الآخرة « وما لهم من ناصرين » شفعاء وسواهم - ينفعهم نصرهم لو نصرهم .

وترى توبة المرتد الفطري كما الملى تقبل - ان تاب وأصلح - ظاهراً كما تقبل باطناً ؟ طليق النص « فان الله غفور رحيم » يقتضي طليق القبول في بعده ، فتقبل توبة الفطري ظاهراً كما الباطن كقبول توبة الملى .

فالما الموت على الكفر هو الذي يقطع التوبة عن قبولها وتحقق مفعولها : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢ : ٢١٧) .

فهناك « كفروا بعد إيمانهم » لا تختص بالملى حيث الفطري قد يكفر بعد إيمانه كما الملى ، و « إيمانهم » هو واقعه قبل الكفر فطرياً وملياً . وكذلك هنا « عن دينه » الكائن أياً كان ، ملياً او فطرياً .

اجل قد لا تقبل توبة المرتد وان تاب بعد ارتداده ملياً او فطرياً ، وهو المكرر لارتداده المستزيد في كفره : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » (٤ : ١٣٧) .

وذلك لضخامة كفره ووخامته ، حيث لا يجبرها شيء ، و « لم يكن » نفى مؤكد مؤيد لا يقبل اي استثناء ابداً^(١) .

(١) السيد الشريف الرضي في حقائق التأويل لمشابه التنزيل ص ١٦١ وقد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم ارتدوا مع الحارث بن سويد ابن الصامت الأنصاري ولحقوا بمكة ثم راجع الحارث الإسلام ووفد إلى المدينة فتقبل النبي (ص) توبته فقال من بقي من أصحابه على الردة : نقيم بمكة ما أردنا فإذا صرنا (محدنا) إلى أهلنا رجعنا إلى المدينة وأظهرنا التوبة فقبلت منا كما قبلت من الحارث قبلنا .

فكما لا تقبل توبة المرتد الذي يموت وهو كافر ، كذلك الذي يزداد كفراً بارتداده مرتين ، وهما يعمان الفطري والملي ، ثم من سواهما تقبل توبته فطرياً او ملياً شريطة الإصلاح لما أفسد بارتداده .

ولا ينافي عدم قبول التوبة في الدنيا أو الآخرة وعده تعالى - طليقاً - أنه يقبلها : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » (٤٢ : ٢٥) .

إذ تعني خاصة التوبة بشروطها دون عامتها الفوضى ، فهي غير مقبولة بعد الموت اطلاقاً ، ولا قبل الموت إلا إذا كانت نصوحاً مصلحاً دون ازدياد الكفر بعد كرور الإرتداد ، كما تدل عليها آياتها الأخرى فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض .

تلحيفة بقول فصل حول الواو في « ولو افتدى به » :
لقد اشبعنا الكلام بطيات الفرقان حول ان القول بالزائد في القرآن زائد من القول ، رغم ما تورط فيه ضعفاء العقول

فمن قيلهم ان الواو هنا زائدة لا تعني اي عناية ، وآخرانها مقحمة كما في « حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها حيث تعني » فتحت ابوابها .

والجواب - ككل - تحليقاً على كل ما يزعم زيادته في القرآن - أنه لا شيء من كلمات وحروف جاءت في القرآن إلا لمعنى مفيد ، مهما كان تجويداً لظاهر البيان كما الباء في خبر « ليس » أما أشبه .

فالزيادات والنقائص في الكلام إنما يضطر إليها للمضطرين فيها لضرورة قافية شعرية أماسيه ، مدأ للمقصود وقصراً للمدود ، او زيادة زائدة ونقيصة بائدة ، فحين تهجم القافية ويغل الزمام عن يد الشاعر يضطر الى زيادة او نقيصة .

فأما إذا كان الكلام محلول العقال ، مخلوع العذار ، ممكناً من جري المضمار ، غير محجور بينه وبين غاياته ، فإن شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامعاً ، أو شاء قدع لجامه فوقف جانحاً ، لا يحصره أمد دون أمد ، ولا يقف به حد دون حد ، فلا تكون الزيادة فيه إلا عياً واستراحة ولغوياً وإلاحة .

ولكن كلام الله مرفوع عن كل إلاحة ولغوب ، فانه المتعذر المعوز ، والممتنع المعجز .

ذلك ، بل قد يرتفع عن ذلك كلام الفصحاء فضلاً عما هو أعلى وهو في القمة العليا !...إننا نجد كلام الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو بعد النبي العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء ، نجده على علو طبقتة وحلو طريفته وانفراد طريقتة ، إذا حوّل ليلحق غاية من أداني غايات القرآن وجدناه ناكصاً متقاعساً ، ومقهقراً راجعاً، وواقفاً بليداً، وواقعاً بعيداً ، على أنه كلام يسبق كل المجارين ، عالياً على المسامين .

ذلك ! فضلاً عن كلام من دونه ، فإذا قيس إليه وقرن به شال في ميزانه، وقصر عن رهانه، وصار بالإضافة إليه قالصاً بعد سبوغه، وقاصراً بعد بلوغه، وليصدق قول الصادقين : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٤١ : ٤٢) (١) .

ثم الواو في « ولو افتدى به » تعني - فيما تعنيه - عدم حصر « لن تقبل » على اللافتداء ، كأنه إن لم يفتد بجلء الارض ذهباً - لو ملكه هناك - « لن تقبل » توبته « فيقول هنا « ولو افتدى به » فالمفتدي وسواء سواء في « لن تقبل » توبتهم » .

(١) بين الملأين ملتقطات من كلام السيد الشريف الرضي في كتابه حقائق التأويل في متشابه التزيل ، مع زيادات أو نقيصات منا .

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٩٢) .

« لن » تحيل نيل البر أياً كان « حتى تنفقوا مما تحبون » وأما غير المحبوب مبعوضاً كان او عواناً بينهما فلا ينيل انفاقه خيراً، وعمل العوان - ايضاً - داخل في نطاق « ما تحبون » مهما كان أدناه فان قضيه الملك حبه مهما لم يكن مرغوباً والإنفاق هنا هو في سبيل الله إذ لا خير في غير سبيله تعالى .

و « ما تحبون » يعم النفس والنفس من النواميس الخمس : نفساً وعقلاً وديناً ومالاً وعرضاً أن يُنفق كل في سبيل الله ، إما عن بكرته كالتضحية بالنفس والمال ، ام مع الحفاظ على أصله كالقوات النفسية والفوائد المالية التي تنفق في سبيل الله ، وكذلك الإرشادات العقلية والعلمية ، وتعريض العرض - فيما يجوز - للحفاظ على عرض أعرض كعرض الدين والدينين ، وكل ذلك تشمله « حتى تنفقوا مما تحبون » .

ذلك وكما « مما تحبون » الشرعة التي تعودتموها ان تنفقوها في سبيل الله ومرضااته وتبدلوها بشرعة محكمة بعدها .

ولأن للمحبوب درجات كذلك لنيل الخير في إنفاق الدرجات درجات ، كما والإنفاق في كفه وكيفه ومورده درجات .

ولقد أشار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي ينفق مما يحب ان يجعله في قرابته الفقراء ، فإنه أحب من غيرهم^(١) وهذا « مما تحبون » مورداً .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٠ أخرج جماعة عن أنس قال كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي (ص) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت « لن تنالوا » قال أبو طلحة يا رسول الله (ص) إن الله يقول : لن تنالوا البر

ومن الإنفاق الأحسن كيفية ما كان دون سؤال ولا سيما بالنسبة للوالدين ،
فـ « الإحسان أن تحسن صحبتها وأن لا تكلفها أن يسألك شيئاً مما يحتاجان إليه
وإن كانا مستغنيين ... » (١) .

ومما تنفقون مادة طيبات المكاسب فإن « تحبون » هو الحب على ضوء
الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من
الأرض ولا تيمموا الحبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا
أن الله غني حميد » (٣ : ٢٦٧) .

هنا « مما تحبون » دون « ما تحبون » تبعض الإنفاق كيلاً تصلوا حاسرين
عما تحبون ككل ، والرواية القائلة « ما تحبون » (٢) تخالف النص هنا ، وتخالف
هنالك الآيات في الإنفاق العوان بين الإفراط والتفريط ، ولم يكن إطعام الطعام
من أهل بيت الرسالة القدسية مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إطعاماً لكل المحبوب إذ

« حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحب أموالي إليّ بيتي » وأنها صدقة الله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها
يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله (ص) : « بخ ذلك مال رابع ذلك مال رابع وقد سمعت
ما قلت وإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله (ص) فقسمها أبو
طلحة في أقاربه وبني عمه ، وفيه نقل آخر قال (ص) : « إجمعه في فقراء أهلك . »

وفيه أخرج جماعة عن محمد بن المنكدر قال لما نزلت هذه الآية « لن تنالوا ... » جاء زيد بن حارثة
بفرس له يقال لها شبله لم يكن له مال أحب إليه منها فقال : « هي صدقة فقبلها رسول الله (ص)
وحمل عليه ابنه أسامة فرأى رسول الله (ص) ذلك في وجه زيد فقال إن الله قد قبلها منك ، وفي
نقل آخر فكان زيد أوجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي (ص) قال : « أما إن الله قد قبلها . »

(١) نور الثقلين ١ : ٣٦٣ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي ولاد الخنيط قال : سألت أبا
عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل « وبوالدين إحساناً » ما هذا الإحسان ؟ قال :
الإحسان ... أليس الله عز وجل يقول : « لن تنالوا ... » .

(٢) المصدر في روضة الكافي بسند عن يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله (ع) « لن تنالوا البر حتى
تنفقوا ما تحبون » هكذا فافقوها .

كان عندهم ما يبدلوا به عنه وان على صعوبة فأبدلهم الله بأحسن منه .

وترى ما هي رباط الآية بما قبلها ، المنسدة بالمتصلين على القومية الكتابية ، والمتلونين في الإيمان والكفر ؟ .

علَّها لأن التجاهل والتنازل عما هم عليه من شرعة انتقالاً إلى شرعة أخرى ولا سيما إلى نبي غير إسرائيلي ، هو معدود في عداد الإنفاق مما تحبون ، فإيثار حب الله على ما تحبون يقتضي الانتقال عن كل شرعة سابقة - مهما كانت طُولها وطُولها - إلى الشرعة الأخيرة .

وذلك مما يوسّع نطاق الإنفاق المحبوب في الآية ، دون حصر في إنفاق المال حسراً عن سائر الإنفاق .

إن إنفاق المحبوب في حب الله يختص بما يمكن إنفاقه مشكوراً محبوراً ، وأما غير الممكن أو المنكور والمحظور فلا ، فإنفاق النفس في سبيل الله فيها يتوجب أو يرجح ، وإنفاق المال كذلك عواناً بين الإفراط والتفريط ، وإنفاق العقلية الصالحة والعلم النافع والعظمة الحسنة أماًهيه من إنفاقات صالحة ، إنها كلها مشمولة لطريق الآية دونما تحدد بحد إلا ما حدده الله .

فالإنفاق مما تحب - ولا سيما إذا كان من أحب ما تحب - ذلك رمز إلى أنك تؤثر حب الله على كل حب ، مهما كان ما تحب شيئاً قليلاً ضئيلاً ، كما أن الإنفاق مما لا تحب رمز إلى عدم الإيثار وأنك لا تفضل حب الله على حبك مهما كان ما لا تحب شيئاً كثيراً محبوباً لمن تنفق ، اللهم إلا ألا تجدد إلا ما تنفقه ، وأنك في طوبيتك تفضل محبوب ربك على محبوبك .

إذا فإطعام علي وفاطمة والحسين كسير خبزهم هو من أفضل الإنفاق: « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » (٧٦ : ٨) وفي نفس الوقت إطعامك طعاماً أفضل منه وأنت لا تحبه ليس من أفضله ولا فضيله ،

اللهم إلا أن يحبه المنفق عليه ولذلك ينفقه عليه المنفق .

فالانفاق الصالح يرتكن أولاً على الحب الأفضل ، ثم الإنفاق من الأفضل أو الفضيل دون الرذيل ثم الكيفية الفضلى .

ذلك ، « وما تنفقوا من شيء » في حبه وكيفه وكمه ومورده « فان الله به عليم » لا عليكم أن تبدوه إلا إذا لزم الأمر بعيداً عن الرثاء والسمعة .

ذلك ، فهل ترى الذي ينفق مما لا يحبه ولا يبغضه لا ينال خيراً وقد انفق ؟ انه ينال خيراً اذا تمت اركان السماحة والرجاحة في الإنفاق ، ولكنه لن ينال البر ككل حتى ينفق مما يحب ، والبر هو واسع الخير من البر لا اصل الخير ، وهنا بر بديل بر ، حيث الانفاق مما تحب بر تنال به البر « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

فالمنفق في سبيل الله اذا لم يأت بمحذور في انفاقه مأجور قدر انفاقه ، ولكنه لن ينال البر حتى ينفق مما يحب .
وفي الانفاق في سبيل الله مما يحبون تحرر من شح النفس على النفس والنفيس ، فالمنفقون مما يحبون يصعدون في ذلك المرتقى الراقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء ، لا يرتبطون بشيء إلا الله والحب في سبيل الله ، وهم ينالون البر والخير الواسع حسب السعة في انفاقهم مما يحبون فطوبى لهم وحسن مآب .

وترى حين تحب شيئاً يكرهه الله ، او تكره شيئاً يحبه الله ، فهل تنال البر في انفاق ما تكرهه في حب الله او ما تحبه في كره الله ؟ .

للمحبيب هنا بعدان اثنان « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ويحبه الله ، وكون الانفاق في سبيل الله هو قضية الإيمان بالله يجعل محبوب الله محبوباً لنفسه ، ومحبوه ليس إلا محبواً لله ، وهنا زاوية ثالثة للمحبيب ان يحبه المنفق

عليه حتى يتم مثلث الحب فيتم نيل البر من الله .

فمن ينفق في الله ما يكرهه ويكرهه الله يكرهه الله : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون » (١٦ : ٦٢) .

فالمحور الاصيل في نيل البر « ما تحبون » كمؤمنين ، وقد تشمل الزاوية الثالثة للمنفق عليه كما المنفق في سبيله ، فحين نحب شيئاً يحبه الله ولا يحبه المنفق عليه فعليك ألا تحب انفاقه ، فليست مادة الحب ما تحبه - فقط - لنفسك ، بل ولن تنفق عليه .

« ويطعمون الطعام على حبه » قد تعني مثلثة الجهات ، « على حبه لهم - على حبه للمطعم - وعلى حبه لله وحب الله » وذلك أحسن الانفاق .

ويتلوه ان تنفق ما لا تحبه ويحبه الله انفاقاً ويحبه المنفق عليه سؤلاً .

والمحور الاصيل في « على حبه » هو حب الله وله درجات اعلاها مثلث الحب كما في « ويطعمون الطعام » .

فما لم يكن الانفاق على حب الله « لن تنالوا البر » فيه وليس المؤمن ليحب ما لا يحبه الله .

إذا فـ « مما تحبون » تعني ما تحبون في محبة الله وتحبونه - كذلك - لاهل الله ، وكلما كان الانفاق أحب اليكم كمؤمنين بالله كان البر أبر لكم من الله .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) .

اترى ما هي الرباط بين هذه الآية وما قبلها ، ولا دور للطعام هنا سلباً وإيجاباً على الاطلاق ؟ .

علّها - بمناسبة الحوار الاسلامي الكتابي حول الشريعة الجديدة - وجه الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اعتراض على حلية لحوم الابل والبقر والغنم بكل أجزائها ، ناقمين عليه ذلك التحليل الطليق والتوراة يحرمها ، فأجاب « كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل . . . » .

وهنا « كل الطعام » وليس « كل الطعام » لتعني الطعام المعروف حله في شريعة الاسلام - وطلاق الحل هو مصعب اعتراضهم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - او والطعام الحل في الشريعة الابراهيمية فان بني اسرائيل كسائر المكلفين - هم وانبياءهم - كانوا أتباع الشريعة الابراهيمية « من قبل ان تنزل التوراة » و « كل الطعام » الحل في شريعة ابراهيم هو الحل في شرعنا ، اذ لا تناسخ شرعياً في حل الطعام إلا عقوبياً كما حرم قسم منه في شريعة التوراة .

وهنا يتهدم صرح زعمهم أن النسخ مستحيل ، حيث نخيل إلى اهل التوراة انها هي الشريعة الإلهية منذ البداية الى النهاية ، فلا شريعة - اذاً - بعدها كما لم تكن قبلها ، إلا إعدادات لها ، ونخيل ثانياً ان ما حرم عليهم من الطيبات لم تكن عقوبة .

وقد يروى ان اسرائيل حرم على نفسه لحم الابل - أماذا - مما فيه عروق اذ كان يهيج عليه وجع الخاصرة او نذر إن عافاه الله من جعه ألا يأكل ما فيه عرق حيث تأذى به^(١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥١ عن ابن عباس « كل الطعام . . » قال : العرق أخذه عرق النساء فكان يبيت له زقاء - يعني صياح - فجعل لله عليه إن شفاه أن لا يأكل لحماً فيه عروق فحرمته اليهود ، وفيه عن ابن عباس قال : جاء اليهود فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يداويه إلا لحوم الابل والبهاة فلذلك حرمها ، قالوا : صدقت .

وايا كان التحريم ودوره لم يكن تشريعاً يخص الله تعالى ، ولا حكماً ناسخاً
لشريعة ابراهيم اذ لم يكن اسرائيل من اولي العزم ، فانما كان تحريماً شخصياً
لمصلحة ملزمة كما حرم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما احلّه الله في
شرعته على نفسه من زوجة قضية الفضيحة الدعائية من بعض نساءه حتى كفل
الله أمره فرجع الى الحل .

وقد حرمت التوراة عقوباً على أهلها - طيبات أحلت لهم : « وعلى الذين
هادوا حرماً كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما إلا ما حملت
ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون »
(٦ : ١٤٦) - « فبظلم من الذين هادوا حرماً عليهم طيبات أحلت لهم . . . »
(٤ : ١٦٠) ثم نراها ان المسيح (عليه السلام) أحلها : « ورسولاً إلى بني
اسرائيل . . . ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم . . . » (٣ : ٥٠) .

فالتعام الذي حرّمه اسرائيل على نفسه لمصلحة شخصية وقائية ليس
ليحرم على أحد فضلاً عن أن تحرمه التوراة اتباعاً لما حرم « قل فأتوا بالتوراة
فاتلوها إن كنتم صادقين » ألا نسخ ولا جديد في حكم التوراة تحريماً وسواء ، كما
وترون ليس فيه تحريم ما حرّمه اسرائيل على نفسه اتباعاً لما حرّم بل فيها حل

= وعنه قال : حرم على نفسه العروق ولحوم الإبل كان به عرق النساء فأكل من لحومها فبات ليلة يزقوا
فحلف أن لا يأكله أبداً ، وفيه عن ابن عباس قال قالت اليهود للنبي (ص) نزلت التوراة بتحريم
الذي حرم إسرائيل فقال الله لمحمد (ص) « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، وكذبوا ،
ليس في التوراة وإنما لم يحرم ذلك إلا تغليظاً لمعصية بني إسرائيل بعد نزول التوراة قل فأتوا بالتوراة
فاتلوها إن كنتم صادقين وقالت اليهود لمحمد (ص) كان موسى يهودياً على ديننا وجاءنا في التوراة
تحريم الشحوم وذي الظفر والسبب فقال محمد (ص) : لم يكن موسى يهودياً وليس في التوراة إلا
الإسلام يقول الله : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين أفبه ذلك وما جاءهم بها أنبياءهم
بعد موسى فنزلت في الألواح جملة .

كل الطعام الحلال على المسلمين ، إلا ما حرمت على بني إسرائيل عقوبة لبغيتهم .
وهنا « من قبل ان تنزل التوراة » تلمح بقيلتهم الكذب ان اسرائيل حرم
في التوراة ما حرمه على نفسه ، كقيلتهم ان ابراهيم كان يهودياً ، والقرآن يذب
هذا التحريم الخاص عن التوراة ، لأنه كان « من قبل ان تنزل التوراة » ،
وذلك القبل يعم « حلاً . . . وحرماً » فكلا الحل العام والتحريم الخاص كان من
قبل أن تنزل التورات .

ثم « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها » فيه قضاء حاسم على استحالة النسخ ،
حيث تنسخ التوراة حلية بعض الطيبات ، وعلى مزعمة عدم التحريم عقوبة
لأنهم شعب الله الخصوص .

فقد تصرح التوراة ان للابل منافع كثيرة ووهب اسرائيل ثلاثين ابراً ذات
لبن اخاه عيص « (التكوين ٣٢ : ١٥) ولكنها محرمة في شرعة التوراة »
(اللاويين ١١ : ٤ والشريعة ١٤ : ٧) .

ثم في اللاويين ١١ : هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم
التي على الأرض^٣ كل ما شق ظلفاً وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون^٤
إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف : الجمل لأنه يجتر لكنه لا يشق
ظلفاً فهو نجس لكم والدب والارنب والخنزير . . . وجميع البهائم التي لها ظلف
ولكن لا تشقه شقاً أو لا تجتر فهي نجسة لكم وكل ما يمشي على كفوفا من جميع
الحيوانات الماشية على أربع فهو نجس لكم .

ذلك وكما حرمت عليهم الشحوم (اللاويين ٣ : ١٦ و ١٧
و ٧ : ٢٤ - ٢٧) .

فقد اعترضوا على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما اعترضوا

كيف يأكل لحم الإبل وقد حرمه اسرائيل ، فيجيب القرآن انه من اسرائيل كان تحريماً خاصاً على نفسه وقائماً ، من قبل أن تنزل التوراة ، ثم التوراة حرمه عقوبياً ومن ثم أحله فيما أحله المسيح (عليه السلام) واستمر الحل في الإسلام .

وفي نظرة ثانية إلى الآية نقول « إلا ما حرم اسرائيل على نفسه » استثناء منقطع لأن اسرائيل ليس داخلياً في بنيه ، ولا ما حرمه على نفسه داخلياً في عموم التحريم ، فقد يلحق إنقطاع الاستثناء باستغراق الحل في « كل الطعام » .

ثم « من قبل أن تنزل التوراة » يصح تعلقها بكل من « كان حلاً » و « إلا ما حرم » والجمع أجمع والاول أوقع اذ « كان » هو أصل الكلام والاستثناء - ولا سيما المنقطع كما هنا - فرع لا يأخذ زمام المتعلقات إلا ضمناً إذا صح المعنى .

إذاً « كل الطعام كان حلاً » من قبل أن تنزل التوراة ، فليست المحرمات التوراتية أبدية ، ومنها عقوبة يدل عليه حلها قبل نزول التوراة وبعد نزول الإنجيل وكما في متى : ٣ : ٤ أنه يحل لحم الجمل ولبس وبره وجلده .

كما و « كل الطعام » . إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة « حسماً لزعم أن التوراة حرمت ما حرمه اسرائيل .

« قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » في زعم استحالة النسخ وأبدية التوراة ، وأن محرمات فيها عقوبة لبغيهم « ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » وهم كاذبون في رغم الحرمة الأبدية لما حرم فيها ومنها لحم الإبل حيث كانوا ينددون بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف يأكل ما حرّمته التوراة كشريعة أبدية دائمة .

و « اسرائيل » هي في أصلها العبراني « يسرائيل » : عبد الله ، ولكن

التوراة فسرتها في قصة فنوئيل : صارح الله فصصره فأخذ منه بركة النبوة ! .

﴿ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩٤) .

افتراء الكذب على الله قبل ذلك البيان ظلم ولكنه « من بعد ذلك » كانه الظلم لا سواء « فاولئك هم الظالمون » لانهم على بينة من القرآن بحجته بعد التوراة ، وعلى بينة من صدق هذه الرسالة القرآنية .

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٥) .

« قل صدق الله » في كل قال وانتم كاذبون ، فان كنتم صادقين انكم على ملة ابراهيم « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً » فلا تشركوا بالله فانه « ما كان من المشركين » بالله في أي شأن من شؤون الربوبية .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ

غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية - العالمية - بأولية مطلقة لبیت الله الحرام ، رداً على شطحات يهودية أن القدس أقدس منه (١) فليكن هو المطاف

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال بلغنا أن اليهود قالت بيت =

والقبلة وكما كان في فترة ، والأصل على مدار الزمن الرسالي هو الكعبة المباركة
قبلة ومطافاً للعالمين ! : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع
الرسول ممن ينقلب على عقبيه ... » (٢ : ١٤٢).

يُذكر البيت الحرام في سائر القرآن عشراً مجرداً كما هنا ، وثلاثاً منسوباً فيها
إلى الله ، وثلاثاً أخرى إلى الناس ، مما يدل على أنه ليس لله بيتاً كما للناس ،
فهو للناس بيت قبلة ومطاف ومعتكف ، والله بيت يُعبد فيه ، فهو بيت الله
وبيت الناس^(١) .

وهناك مواصفات لهذا البيت العتيق في عدة آيات ، منها هنا سبع ، عدد
السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع السبع والطواف بالبيت وبالصفاة
والمرورة السبع ، والجمرات السبع ، كما وإن عدد ابواب الجحيم سبع تسكّر
بسبعي الطواف وسبعات الجمرات .

١ ﴿ ان اول بيت وضع للناس ... ﴾

علّ الصلة القريبة لهاتين الآيتين بما قبلهما - ولا سيما واتبعوا ملة إبراهيم
حنيفاً - أن من أهل الكتاب معترضين على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
إذا تأمر باتباع ملة إبراهيم فكيف تستقبل الكعبة وتطوف حولها ونحن نقدر

= المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة فقال المسلمون بل الكعبة
أعظم فبلغ ذلك النبي (ص) فنزلت « إن أول بيت » - إلى قوله - : « فيه آيات بينات » وليس
ذلك في بيت المقدس « ومن دخله كان آمناً » وليس ذلك في بيت المقدس « والله على الناس حج
البيت » وليس ذلك في بيت المقدس .

(١) الثلاث الأولى هي « وطهر بيقي » (٢٢ : ٢٦) « أن طهرا بيقي » (٢ : ١٢٥) « عند بيتك
المحرم » (١٤ : ٣٧) والثانية هنا « أول بيت وضع للناس » « جعل الله الكعبة البيت الحرام
قياماً للناس » (٥ : ٩٧) « وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (٢ : ١٢٥) .

القدس وهو كعبتها وشرعتها من شرعة ابراهيم ؟ فجاء الجواب : « ان أول بيت . . » وكذلك الآيات التي تقول إن ابراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت .

الأول هو السابق الذي لا يسبقه أو يقارنه مثيل له في الممكنات ، أم ولا يتأخر هو عنه كما الله تعالى ، حيث هو الأول لا ثاني له والآخر لا أول قبله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » (٥٧ : ٣) والأول هنا هو من الأول إذ له امثال بعده مهما كانت درجات ، كما هو في الدرجة القمة العليا ، لا يساوي او يسامى .

و « بيت » كمطلقه هو مكان البيتوة والرياحة ، بدنياً او روحياً او هما معاً ، فسواء أكانت أرضاً ملساء ، ام وعليها بناءة ، فليشمل أرض الكعبة وهي مكان البيت كما يشملها بعد عمارتها .

والأولية هنا مطلقة تطم الزمنية والمكانية^(١) وفي المكانة ، مهما كان القصد

(١) هنا روايات متواترة بشأن هاتين الأوليين ففي الدر المنثور ٢ : ٥٢ - أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مهدت منها الأرض . . وعن أبي جعفر (ع) عن آبائه عليهم السلام قال : إن الله بعث ملائكته فقال : ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور (رواه بلفظه الرازي في تفسيره ٨ : ١٥٢ والتهيان بتفاوت يسير ١ : ١٥٧ وبوجه أبسط الخازن ١ : ٢٥٢ عن علي بن الحسين عليهما السلام والأزرق في أخبار مكة عن أبي جعفر (ع) عن أبيه عن علي بن الحسين عليهما السلام ١ : ٣٥ وحسين بن عبد الله بإسالة في تاريخ الكعبة ٤٠ .

وروى الكليني في الصحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (ع) قال : لما أراد الله عز وجل أن يخلق الأرض أمر الرياح ففرب متن الماء حتى صار موجاً ثم أزيد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحى الأرض من تحته وهو قول الله عز وجل : إن أول

= بيت وضع للناس .. وقال تعالى والأرض بعد ذلك دحاها ورواه سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (ع) (انظر الكافي) (١٦ :) والفقيه ٢ : ١٥٤ والأخبار الدالة على دحو الأرض من موضع الكعبة كثيرة انظر العياشي ١ : ١٨٦ والبرهان ١ : ٢٩٧ ونور الثقلين ١ : ٣٠٣ والوسائل الباب ١٨ من أبواب مقدمات الطواف ٢٩٧ و ٢٩٨ والدر المنثور ١ : ١٤٥ - ١٤٧ والطبري ٤ : ٨ وأخبار مكة الأزرق ١ : ٣١ .

والبيت في هذه الأحاديث هو مكان البيت ، فله الأولوية المطلقة على كل بيت كما روى العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال أراد أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم أن يزيد في المسجد فأبوا عليه فأرغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فأتى أبا عبد الله (ع) فقال له : إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وافتيهم لنزيد في المسجد وقد منعوا ذلك فقد غمى غمياً شديداً فقال أبو عبد الله (ع) لم يغمك ذلك وخجنتك عليهم فيه ظاهرة ، قال : وما أحتج عليهم ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : في أي موضع ؟ فقال : قول الله « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة » قد أخبرك الله أن أول بيت وضع هو الذي ببكة فإن كانوا هم نزلوا قبل البيت فلهم افتيهم وإن كان البيت قديماً قبلهم فله فناء فدعاهم أبو جعفر (ع) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له : اصنع ما أحببت .

وفيه عن الحسن بن علي النعمان قال : لما بنى المهدي في المسجد الحرام بقيت دار في تربيعة المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له : أنه لا ينبغي أن تدخل شيئاً في المسجد الحرام غصباً فقال له علي بن يقطين يا أمير المؤمنين إني أكتب إلى موسى بن جعفر عليها السلام لأخبرك بوحى الأمر في ذلك فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليها السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع عليها صاحبها فكيف المخرج من ذلك ؟ فقال ذلك لأبي الحسن (ع) فقال أبو الحسن (ع) فلا بد من الجواب في هذا ؟ فقال له : الأمر لا بد منه فقال له أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالتناس أولى بفنائها وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها ، فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب قبله ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن (ع) فسألوه أن يكتب إلى المهدي كتاباً في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرضع لهم شيئاً فأرضاهم .

وأما ما يروى عن علي (ع) أن رجلاً قال له : أهو أول بيت ؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة وأول من بناه إبراهيم (ع) ثم بناه قوم من =

من « بيت وضع للناس » بيوت العبادة^(١) فالواضع هو الله ، والموضوع لهم هم كل الناس ، فلا بيت يضعه الناس ، بالامكان ان يوضع لكل الناس دوئما اختصاص .

إلا انه يشمل بيوت الناس بجانب بيوت الله ، فهو الأول زماناً اذ وضعه الله للناس قبل كل وضع وموضوع له ، حين دحى الأرض من تحتها .

إن مكان البيت هو الأم لسائر الأمكنة الأرضية ، كما مكة هي أم القرى من الناحية الرسالية ، فلبيت بمكانه أمومتان اثنتان ، فهو « أم القرى » في كافة الجهات ، حيث دحيت كل شرعة إلهية - كأصل - منها ، كما دحيت الأرض كلها من تحتها .

والوضع هنا تكويني وتشريعي ، و« للناس » تعم جميع الناس طول الزمن الرسالي ، مطافاً للطائفتين وقبلة للمصلين ، وكما نرى قبور النبيين وسائر الصالحين قبل الإسلام تجاه الكعبة المباركة دوئما استثناء ، في القدس نفسه وفي الخليل ودمشق ولبنان وإيران أم أياً كان من بلاد تضم قبور هؤلاء الكرام ، وكما حجه النبيون اجمع^(٢) فهذا أقدس بيت على الإطلاق ، فان واضعها هو الله

= العرب من جرهم ثم هدم فبناء قريش ، فقد يعني من المتأخر عن بيوت عمارة البيت لامكانه (رواه في البرهان ١ : ٣٠١ عن ابن شهر آشوب عنه (ع) وأخرجه السيوطي عن ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عنه (ع) والرازي في تفسيره ٨ : ١٥٤ والأزرقي في أخبار مكة ١ : ٦١ و٦٢ عنه (ع) بوجه أبسط .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله (ص) أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى ..

(٢) في روضة المتقين ٤ : ٩٧ قال أبو جعفر (ع) أن آدم (ع) هذا البيت ألف أئمة على قدميه منها سبعمائة حجة وثلاثمائة عمرة وكان يأتيه من ناحية الشام والمكان الذي يبيت فيه الحطيم ..

الجليل ، والمهندس هو جبرئيل ، والباني هو الخليل والتلميذ اسماعيل ، لذلك
 في المقام بمكة سعادته والخروج منها شقوة^(١) وهي «دعامة الاسلام...»^(٢)
 والصلاة فيه تسوي الف الف صلاة^(٣) والطواف به صلوة ، والمقام عنده فيه
 الفضيلة الكبرى ، كما الصوم في رمضان مائة الف^(٤) .

لقد رسم الخط حول مكان البيت وبناء آدم الصفي^(٥) ورفع القواعد منه

= وفيه ١١٤ في الموثق كالصحيح عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر (ع) يقول : مر موسى بن
 عمران (ع) في سبعين نبياً على فجاج الروحاء عليهم العباء القطوانية يقول : ليك عبدك وابن
 عبدك ..

وفيه في الحسن كالصحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله (ع) قال : مر موسى النبي (ص)
 بصفاح الروحاء على جبل أحمر خطامه من ليف عليه عباستان قطوانيتان وهو يقول : ليك يا كريم
 ليك - قال : مريون بن متى بصفاح الروحاء وهو يقول : ليك كشاف الكرب العظام - قال :
 ومر عيسى بن مريم بصفاح الروحاء وهو يقول : ليك عبدك ابن أمتك ومر محمد (ص) بصفاح
 الروحاء يقول ليك ذا المعارج ليك .

وفيه ١١٦ روى زرارة في الصحيح عن أبي جعفر (ع) أن سليمان (ع) قد حج البيت في الجن
 والإنس والطير والرياح وكسى البيت القباطي .

- (١) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج الأزرق عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي (ص) : المقام ...
- (٢) المصدر - أخرج الأزرق والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال :
 هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن
 قبضه أن يدخله الجنة وإن رده أن يردّه بأجر أو غنمة .
- (٣) كما في الوافي عن الفقيه ٨ : ١٠ قال (ص) الصلاة في مسجدي كالف صلاة إلا في المسجد الحرام
 فإنه كالف صلاة في مسجدي .

- (٤) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج الأزرق والجندي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال
 رسول الله (ص) من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف
 رمضان بغير مكة وكتب له كل يوم حسنة وكل ليلة حسنة وكل يوم عتق رقبة وكل ليلة عتق رقبة
 وكل يوم حملان فرس في سبيل الله وكل ليلة حملان فرس في سبيل الله وله بكل يوم دعوة مستجابة .
- (٥) روضة المتقين ٤ : ١١٦ روى أبو بصير في الموثق عن أبي عبد الله (ع) قال : إن آدم هو الذي بنى =

الخليل الوفي ، ووضع الحجر الأسود في مكانه الآن بعد خرابه هذا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويظهر عنده متكئاً ظهره على جداره القائم المهدي (عليه السلام) فأم القرى هي العاصمة الإسلامية الكبرى كما كانت لرسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي على طول خط الرسائل أم القرى لا تساوي أو تساوي .

ولماذا « وضع للناس » وهو « مباركاً وهدى للعالمين » اجمعين ، من الجنة والناس ومن سواهما من المكلفين اجمعين ؟ .

علّه لأنهم هو المحور الاساس في التكوين والتشريع ، والجنة هم على هامش الناس ثم لا خبر لنا عن منائر العالمين .

﴿ للذي بيكة ... ﴾

ولماذا « للذي بيكة » دون « الكعبة » وهي اخصر ، او « مكة » وعلّها أظهر ؟ علّه إذ قد تسمى غيره « كعبة » مهمل اصبحت بعدد علماً له ! وإن « الكعبة » تختص بالمبني عليه تلك البناية ، و « الذي بيكة » تشملها قبل البناية وبعدها ، والأولية الزمنية بالنسبة لبيوت العبادة المبينة ليست للكعبة المشرفة ،

= البيت ووضع أساسه وأول من كساه الشعر وأول من حج إليه ثم كساه تبع بعد آدم الانطاع ثم كساه إبراهيم الخفيف وأول من كساه الثياب سليمان بن داود (ع) ، أقول : فالبيت الحرام هو قبل القدس بقرون فإن أول من خط بيت المقدس واتخذ مسجداً داود (ع) وبناء سليمان من بعده فشاد بنيانه وفسح أعطانه وجاء في الخبر أنه أصاب بني إسرائيل على عهد داود طاعون أسرع فيهم وذهب بعامتهم فخرج داود بالناس إلى موضع بيت المقدس فدعى الله سبحانه أن يرفع عنهم ذلك الموتان فاستجيب له فأتخذ ذلك الموضع مسجداً تبركاً به وتعظيماً له وبدأ بينائه فنودي قبل أن يستتمه بأوصى إلى سليمان (ع) بإستتمامه فعامته من بناء سليمان (ع) (حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي) .

والنما لمكان البيت وبالنسبة لكافة البيوت عبادة وسواها ، مبنية وسواها .

ثم « بكة » من البك وهو الدفع حيث يدفع عنها من يقصد تهديمها هتاكاً من الطغات اللثام لم يقصدها جبار بسوء الا اندقت عنقه ^(١) .

وهو الزحام لأنه مزدحم الحجاج والمعتمرين ، والأول يخص البيت والثاني محطه البيت مهما عم الزحام كل البلد الحرام ، فد « انما سميت مكة بكة لان الناس يتباكون فيها » ^(٢) و « لأنها يبتك بها الرجال والنساء والمرأة تصلي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره في سائر البلدان » ^(٣) و « لان الناس يبك بعضهم بعضاً فيها بالأيدي » ^(٤) لا « لبكاء الناس حولها وفيها » ^(٥) لاختلاف « بك » عن « بكى » في اصل اللغة والمعنى .

واما « مكة » فهي من المك : الدحو والتحريك ، حيث مك الله الأرض من تحتها ، وعمل اختصاص « بكة » بالذكر هنا دون « مكة » وهما تعنيان البلد الحرام ، للتأشير الى أن مظهر البركة والهدى فيها للعالمين يادئ من أذان الحج من بانيها الخليل ، مهما كانت قبلة ومطافاً قبله .

وقد تعني « مكة » البلد الحرام كله ، او الحرم كله ، و « بكة » هي موضع البيت ، او موضع الحجر الذي يبك الناس بعضهم بعضاً .

(١) في الموثق عن أبي جعفر (ع) كانت تسمى بكة لأنها تبتك أعناق الباغين إذا بغوا فيها .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٦٧ في كتاب العلل بإسناده إلى العزمي عن أبي عبد الله (ع) : ..

(٣) المصدر ٣٦٧ عن العلل بسند متصل عن الفضيل عن أبي جعفر (ع) قال : ..

(٤) المصدر ٣٦٧ عن العلل بإسناده إلى عبيد الله بن علي الحلبي قال : سألت أبا عبد الله (ع) لم سميت مكة بكة ؟ قال : ..

(٥) المصدر ٣٦٦ عن العلل وإسناده إلى عبد الله بن سنان قال : سألت أبا عبد الله (ع) لم سميت الكعبة بكة ؟ فقال : لبكاء الناس حولها وفيها ، أقول : : وهذا من المختلقات .

٢-٣ ﴿ مباركاً وهدى للعالمين ﴾

عليهما حالان لمربع المتعلقات : « ان اول بيت : مباركاً وهدى - وضع : مباركاً وهدى - للناس : مباركاً وهدى - للذي بيكة : مباركاً وهدى ، بركات بعضها فوق بعض وهدايات منذ وضعه الله الى يوم الدين .

ثم « مباركاً » اسم مفعول من برك ، والبرك هو في الأصل ثبات الشيء ويستعمل في كل فضل وفيض مادياً او معنوياً او هما معاً فـ « ان للحق دولة وللباطل جولة » فهذا البيت مبارك ثابت النفع دون زوال ، ومنه استقرار العبادة فيه واليه والطواف حوله دوغماً نسخ وتحوير .

وفي الأصل العبراني בָּרַךְ - בָּרַכְתָּ : بَارَكَ = ركع - سجد - أحق الركبة ، و : בָּרַכְתָּ : בָּרַכְתָּ = بَارَكَ - مَجَّد - رَحَّب - حَنَأ - هَنَأ ، و : בָּרַכְתָּ : בָּרַכְתָּ = مَبَارَكَة - تَهْنِئَة - تَحِيَة - تَسْبِيح .

والبيت الذي بيكة فيه كافة البركات مادية ومعنوية : « حرماً آمناً يجيى إليه ثمرات كل شيء » (٥٧ : ٢٨) « وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ... » (٢ : ١٢٦) .

ومن أهمها البركات الجماعية ثقافية وعقيدية وسياسية واقتصادية أماهيه ، فانه : « قياماً للناس - ومثابة وأمناً ... » و « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ... » (٢٢ : ٢٨) .

وتراه كيف يكون « مباركاً وهدى للعالمين » وحتى المسلمين لم يتبركوا به ويبتدوا كما يحق فضلاً عن سائر العالمين ؟ .

إن بركته وهداه للعالمين فرض وواقع ، فرض لمن استطاع اليه سبيلاً ، وواقع لغير المستطيعين من المسلمين ، لو ان الأولين حججوه كما يجب شاهدين فيه

منافع لهم وللكتلة المؤمنة ، ثم واقع بصورة أوسع حيث تؤسس الدولة الإسلامية العالمية على كاهل الكون أيام المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف .

ذلك ! ولأن « الناس » هنا طليقة غير محدودة بناس دون ناس ، نتأكد أنه « وضع للناس » كلهم دون طائفية أو اقليمية أو عنصرية لناس البيت كما في سائر البيوت .

ثم « وضع » دون « بُني » للتدليل على كل وضع فيه تكوينياً وتشريعياً وبركة وقبلة ومطافاً وعبادات أخرى، وسائر البيوت لا أولية لها في هذه الأوضاع ولا تُسامي أو تساوي الكعبة المباركة على الإطلاق .

كما وإن صيغة المجهول مع « الناس » نائباً للفاعل دليل ان الفاعل الواضع ليس من الناس ، اذاً فذلك وضع تكويني وتشريعي من الله تعالى في اولية طليقة حقيقة بالأولوية الطليقة تشريعاً وتكويناً .

« فيه آيات بينات مقام إبراهيم عليه السلام »

وتراها فقط « آيات » تخرق العادات ، دالة على الله بوحدانيتها ، فما هي ؟ ولم يُذكر هنا إلا « مقام إبراهيم » وهي آية واحدة ! .

أم هي علامات مؤشرات الى الأفضلية القمة المرموقة لهذا البيت بالنسبة لأي بيت ؟ وقد لا تسمى العلامات - فقط - آيات ، ولم تأت بمعنى العلامة إلا التي في الشعراء « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » (١٢٨) .

أم هي آيات تشريعية تخصه ، وتكوينية خارقة ، وسواها علماً لاختصاصه بين سائر البيوت بكل هذه الآيات ؟ كأنها هي جمعاً بين المحتملات .

ونجد في مثلث الآيات المذكورات : « مقام إبراهيم - ومن دخله .. - والله على الناس حج البيت » تأشيراً عريضاً إلى كلها ، فـ « مقام إبراهيم » تكوينية ،

« ومن دخله كان آمناً » تعمها والتشريعية « والله على الناس » تشريعية ،
والتكوينية منها تعم الخارق للعادة ومطلق العلامة .

فآية تشريعية منقطعة النظير تدل على أوليته التشريعية « والله على الناس »
ولم يضع الله بيتاً على مدار الزمن الرسالي ، يفرض حجه لمن استطاع إليه سبيلاً
إلا الكعبة المشرفة .

وأخرى هي فرض الأمن لمن دخلها زائداً على ما سواها من بيوت الله
وسواها .

وثالثة تحريم الصيد وقطع الشجر في حرمة دون سواها ، وما إلى ذلك
من محرمات وواجبات فيها وفي إحرام حجها وعمرتها .

وآية تكوينية خارقة العادة هي الرابعة من آياته البينات بك من قصده
بسوء كما حصل في أصحاب الفيل : « ألم يجعل كيدهم في تضليل . وارسل
عليهم طيراً ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ؟ »
وما هُدم حينها هُدم توهيناً كأصحاب الفيل (١) .

(١) فما زالت الكعبة على بناء إبراهيم (ع) حتى جدها بنو جرهم ثم العمالة ثم قريش ، ثم هدمت
الكعبة بالسيل رابعة قيل البعثة بخمس .

وكان البناء على هذه الحال حتى تسلط عبد الله بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه
الحصين قائد يزيد بمكة وأصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدت وأحرقت كسوتها وبعض أخشابها ثم
انكشف عنها لموت يزيد فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها فأتى لها بالحصن النقي من
اليمن وبنائها به وكان فراغه من بناءها ١٧ رجب ٦٤ هجرية .

وهذه الإصابة لم تكن قاصدة إلى هدم البيت وهدم حرمة ، وإنما هي من مخلفات هذه الحرب
الظالمة ، ولو كانت قاصدة ما قصده أصحاب الفيل لأصابهم ما أصابهم .

ثم هنا روايات صحيحة أن البيت لم يفرق في طوفان نوح (ع) كما في الصحيح عن سعيد الأخرج =

وخامسة هي موضع قدم ابراهيم من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن ، إذ أثرت قدمه المباركة حين بنى البيت وحين أذن في الناس بالحج (١) .

وسادسة ان الطيور المحلقة على فضاء المسجد الحرام ، تكسر عند وصولها الى فضاء الكعبة ، اللهم إلا شاردة ماردة ، فقد تراها - ككل - ممتنعة من العلو على البيت الحرام ، فلا يطير طائر إلا حوله من غير ان يعلو فوقه وقد تناصر الخبر وتواتر الأثر بذكره .

ولقد شاهدت أنا عند مقامي بمكة المكرمة في ستين من سني هجري من شر الطاغوت الشاه عليه لعنة الله ، شاهدت متقصداً تلك الآية البينة ، فرأيت امتناع الطير من التحليق فوق البيت ، حتى لقد كنت أرى الطائر يدنو من مكان

= عن أبي عبد الله (ع) قال : إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق وأعتق الحرم معه كف عنه الماء ، (روضة المتقين ٤ : ٤) .

ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائله فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله ودخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع وشيئراً وبقي ذلك الجدار على أساس قريش ، وهذه خامسة .

ولما تولى السلطان سليمان العثماني سنة (٩٠٦) غير سقفها ، ولما تولى السلطان أحمد العثماني سنة (١٠٢١) أحدث فيها ترميماً ، ولما حدث السيل العظيم سنة (١٠٣٩) هدم بعض حوائطها الشمالية والشرقية والغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها ، ولم يزل على ذلك حتى اليوم (١٤٠٥) هجرية ، ولم تعمّر إلا داخلها سنة (١٤٠٠) زمن الملك خالد . فلا نجد في تاريخ الكعبة تهديماً قاصداً هتكاً لحرمتها إلا من أصحاب الفيل ، وقد جعل كيدهم في تضليل ! .

(١) في حسنة ابن سنان أو صحيحه على الأصح قال سألت أبا عبد الله (ع) : « فيه آيات بينات ، ما هذه الآيات البينات ؟ قال : مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماءه ، والحجر الأسود ومنزل إسماعيل .

سحيق ومنزوع عميق في أحد طير أنه وأمد خفقان جناحه حتى اظن أنه قد قطع البيت عالياً عليه وجائزاً به ، فما هو إلا ان يقرب منه حتى ينكسر منحرفاً ويرجع متيامناً او متياسراً فيمر عن يمين البيت او شماله ، كأن لافتاً يلفته او عاكساً يعكسه ، وذلك من أطراف ما شاهدته هناك وجربته ، اللهم عُد بي الى بيتك واجعلني فيه من انصار مهديك القائم عجل الله تعالى فرجه ، وكما رجوته حين أقمت فيه ولكن الله قضى امراً كان مفعولاً .

وسابعة هي بئر زمزم حيث نبع فواراً ارتزياً منذ مس اسماعيل عقبه على أرضه ، ولا يزال نابعاً يزيد ولا ينقص ، ثم وماءه لا يتسنى على طول المكوث مكشوفاً على أية حال .

وثامنة هي قصة الخليل (عليه السلام) لما أمر في المنحر بذبح ابنه اسماعيل ، فأخذ يضغط على المذبة ولكنها لا تقطع حيث «الخليل يأمرني والجليل ينهاني» .

وتاسعة هي ترك الذباب والبراغيث في منى يوم الاضحى ويومين بعدها ، وأرضها مليئة بالأشلاء العفنة والتنتة ، فلا تجد أية مؤذية فيها ! .

وعاشرة هي حصى الجمار التي تؤخذ من المشعر الحرام بالملايين الملايين سنوياً ، وليس سبيل ماء ولا مهب رياح شديدة ! ثم ترى ذهاب تلك الحصى وخلو مواضعه منه على كثرة الرامين به واجتماعه في مواضعه .

وحاد عشرها انها تجبى اليها ثمرات كل شيء ، والبلد الحرام نفسه كان قاحلاً لا ماء فيه ولا كلاء ، وحتى الآن وهما فيه قدر الحاجة لا ثمرات فيه من نفسه إلا من كل اكناف العالم .

وثاني عشرها الأمن النسبي فيه - مهما شد فيه اللاأمن - حيث الحروب وإراقة الدماء بعيدة عنه اكثر من غيره بكثير ، ولحد لا تجد فيه اغتراس السباع

فضلاً عن غيرها ، كما وهو من احكامه تشريعياً .

فترى الوحش والسباع اذا دخلته وصارت في حدوده لا تقتل بعضها بعضاً ، ولا يؤذي بعضها بعضاً ، ولا تصطاد فيه الكلاب والسباع سوانح الوحوش التي جرت عاداتها بالإصطياد لها ، ولا تعدو عليها في أرض الحرم كما تعدو عليها اذا صادفتها خارج الحرم .

فهذه آية عظيمة من آيات الله البينات في هذا البيت المبارك تدل دلالة عظيمة على أن الله تعالى هو الذي أبان هذا البيت بذلك من سائر بقاع الأرض ، حيث حال بين السباع فيها وبين مجاري عاداتها وحوافز طباعها وعمل النفوس السليطة التي ركبت فيها حتى تمنع من مواقع الفرائس وقد اكثبت لها وصارت أخذ أيديها ، بل وتأنس بأضدادها وتأنس الأضداد بها ! .

وقد تعني « مقام ابراهيم » كل هذه الآيات لأنها في مقامه الكعبة حيث رفع قواعدها ، ومقامه الواضع قدمه عليه حيث موضع قدمه ، ومقامه الزمزم حيث مقام اسماعيله بأمه ، ومقامه المنحرومى ، فكل هذه يصدق عليها مقام ابراهيم ، زمان قيامه ومكانه وأصل قيامه بما قام ، وإنما خص بالذكر أمن المقام وفرض حج البيت ، كنموذجين من الآيات التكوينية والتشريعية .

كما وان مقام ابراهيم أياً كان لهذا البيت المبارك هو من الآيات البينات لفضله على القدس وما سواه من البيوت المقدسة طول الرسالات ، حيث ترى موضع قدم الخليل في الصخرة حيث الآن الله سبحانه له أصلادها بعد الصلابة وخلخل أجزاءها بعد الكثافة حتى أثرت قدمه فيها راسخة وتغلغل سائحة كما يتغلغل في الأشياء الرخوة والأرض الخوارة .

فلذلك البيت فضله المنقطع النظير ، لا يخلو قريباً من طائف او مصل ، ولا بعيداً من مستقبل له في صلاة وسواها ، آناء الليل وأطراف النهار ، فان

قضية كروية الأرض دوران الأفاق فتداوم أوقات الصلوات الخمس في كل الأوقات دوغما استثناء .

و « مقام ابراهيم » ادبياً قد يكون مبتدء خبره المحذوف « منها » او بدلاً من « آيات » مع « من دخله - والله . . . » او عطف بيان .

° ﴿ ومن دخله كان آمناً . . . ﴾ .

اتراه آمناً شرعياً ؟ ولا يخص البيت ! فكل داخل في بيت وسواه وخارج عنه آمن في شرعة الله اذا لم يستحق خلاف الأمن كالجاني ! .

ام امناً واقعياً ؟ ولم يأمن فيه سيد الشهداء الحسين بن علي (عليهما السلام) وكثير مثله تقنياً او نفياً وتثريداً ! فكيف يكون الأمن من ميّزاته بين البيوت وسواها من مدخل او مخرج ؟ ١٩ .

وقد سأل ابراهيم أمته : « واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً . . . » (٢ : ١٢٦) فاستجيب له : « واذا جعلنا البيت مثابة للناس وامناً » (١٢٥ : ١) .

قد يعني « آمناً » آمناً زائداً على سواه شرعياً وواقعياً كما هو الواقع طول تاريخه المجيد ، ولم يختص به أصل الأمن بنوعيه ، وإنما أصبح أمته الخاص فيها من ميّزاته .

فالكعبة آمنة كما هنا ، والحرم الحاوي لها وملكة كلها آمن : « أولم نمكن لهم حرماً آمناً » (٢٨ : ٧٥) ولكن ابن أمن من أمن .

فالدخل في الكعبة أو المسجد الحرام آمن مهما كان مجزئاً ، ولكن يضيق عليه في المأكل والمشرب حتى يخرج فيقام عليه الحد ، إلا إذا جنى في نفس المسجد الحرام أو الكعبة المباركة فيقام عليه الحد فيما جنى^(١) والكعبة المباركة

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٥ - أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) من دخل البيت =

هي منقطعة النظير في ذلك الأمن كما في سواه .

ثم « آمناً » يعم بأس الآخرة إلى الدنيا ويأحرى ، إلا إذا دخل غير تائب عما اقترف ، غير خارج عن معصية الله وهو في حرم الله ، فإنه ناقض أمنه ، لأنه ناقص في دخوله (١) .

= دخل في حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له وفيه أنخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال قال رسول الله (ص) من مات في أحد الحرمين بعث آمناً - وفيه عن سلمان قال قال رسول الله (ص) : من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الأمنين .

وفي نور الثقلين ١ : ٣٦٨ عن علي بن عبد العزيز قال : قلت لأبي عبد الله (ع) جعلت فداك قول الله « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » فقد يدخله المرجى والقدرى والحرورى والزندق الذي لا يؤمن بالله ؟ قال : لا ولا كرامة ! قلت : فمه جعلت فداك ؟ قال : من دخله وهو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه وكفى هم الدنيا والآخرة .

وفيه عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي (ص) عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن الله جل جلاله حديث طويل وفيه يقول في حق علي (ع) : « جعلته العلم الهادي من الضلالة وبأبي الذي أوق به منه ويبقى الذي من دخله كان آمناً من ناري .

وفيه في الكافي بسند متصل عن عبد الخالق الصيقل قال سألت أبا عبد الله (ع) عن هذه الآية فقال : لقد سألتني عن شيء ما سألتني أحداً إلا من شاء الله ، قال : من أم هذا البيت وهو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عز وجل به وعرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة .

وفيه عن القمي بسند متصل عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن تدخلها ولا تدخلها بحذاء وتقول إذا دخلت : اللهم إنيك قلت : « ومن دخله كان آمناً » فأمني من عذاب النار وبإسناده إلى سعيد الأعرج عن أبي عبد الله (ع) قال : لا بد للضرورة أن يدخل البيت قبل أن يرجع ، فإذا دخلته فادخله بسكينة ووقار ثم أثت كل زاوية من زواياه ثم قل : اللهم إنيك قلت : « ومن دخله كان آمناً » فأمني من عذاب يوم القيامة .

(١) روى الحلبي في الحسن عن أبي عبد الله (ع) قال سألت عن قول الله عز وجل « ومن دخله كان آمناً » قال : إذا أحدث العبد جنابة في غير الحرم ثم فر إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم =

وأمن الداخل في الكعبة أو المسجد الحرام أومن من الداخل في مكة أو الحرم ، ولم يأت « آمناً » لدخل إلا هنا ، ثم « بلداً - أو - حرماً آمناً » .

وقد يقال ان ضمير الغائب في « دخله » راجع - فقط - الى البيت ، فلا أمن إذاً إلا للدخل في نفس البيت ، دون المسجد الحرام فضلاً عن الحرم كله ؟ .

لكن المرجع الأقرب الصالح لرجوعه إليه هو « مقام ابراهيم » ويسع الحرم كله ، اضافة الى آيات أمن مكة ، والحرم كله وتظافر الروايات ان المأمن هو الحرم كله ^(١) .

والقول ان « فيه » راجع الى البيت ، فمقام ابراهيم لا بد وان يكون - فقط - في نفس البيت فـ « من دخله » يعني مقام ابراهيم وهو نفسه في البيت فلا يعني الحرم كله ؟ .

قد يجاب عنه إضافة الى ما قد مناه أن « فيه » تعني في البيت بما يتعلق به وهو الحرم كله ، كما « ثم محله الى البيت العتيق » لا يعني انه نفسه محل الذبح .
ثم وليس من المتعود دخول نفس البيت إلا للخصوص من الزائرين ، دون العامة فضلاً عن المجرمين .

= ولكن يمنع من السوق فلا يبيع ولا يطعم ولا يكلم فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ وإذا جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم لأنه لم يرع للحرم حرمة ، أقول وبمضمونه أخبار متظافرة قد يصح دعوى التواتر فيها معنوياً .

(١) كما في حسنة عبد الله بن سنان قال سأله عن الآية البيت عني أو الحرم كله ؟ قال : من دخل الحرم مستجيراً من الناس فهو آمن من سخط الله ومن دخله من الوحش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم (التهذيب ٥ : ٤٤٩ والفتاوى ٢ : ١٦٣ والكافي ١ : ٢٢٨ والوافي ٨ : ١٧ والوسائل الباب ١٤ من أبواب مقدمات الطواف ح ١٢) .

وكذلك « مقام ابراهيم » ليس داخل البيت نفسه ، حتى القدر المتيقن منه وهو الحجر المقام فضلاً عن سواء من مقامه الواسع .

ثم « كان آمناً » دون « آمن » وهي أخصر ، قد تلمح لعمق الأمن وثباته الى يوم الدين ، فـ « كان » تضرب الى عمق الماضي ، و « آمناً » الشامل لمثلث الزمان يستجر الأمن الى عمق المستقبل ، فقد يأمن داخله عما مضى من ذنوبه وما يأتي إلا ان يحدث حدثاً يبطل دخوله في البيت .

وترى « من دخله » يخص الناس دون الحيوان ؟ وأمن الإنسان - بطبيعة الحال وبأحرى - أمن للحيوان ، فـ « مَنْ » هنا يشمل كل ذي روح انساناً وحيواناً^(١) ثم وسائر آيات أمن الحرم لا تخص الانسان : « حرماً آمناً ... » .

أو يصح ان يكون حرم الله آمناً للانسان وليس آمناً للحيوان وهي أحوج الى الأمن ؟ ثم الأمن مطلق يعم النفس والعرض والمال ، فلا يطالب المديون في الحرم ولا يروّع^(٢) .

﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً . . ﴾

اللام في « لله » ليست للانتفاع إذ لا ينتفع الله من حج العباد وسواء من فعالمهم ، وإنما لاختصاص العهدة على الناس لله ، فـ « على الناس » ليست

(١) نور الثقلين ١ : ٣٧٠ عن العلل بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) أنه سئل عن طير أهلي أقبل فدخل الحرم ؟ قال : لا يمس لأن الله عز وجل يقول : « ومن دخله كان آمناً » .

وفيه عن الفقيه وسأل محمد بن مسلم أحدهما عليهما السلام عن الظبي يدخل الحرم ؟ فقال : لا يوخذ ولا يمس لأن الله يقول : « ومن دخله كان آمناً » .

(٢) المصدر في الكافي بسند متصل عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله (ع) قال : سألت عن رجل لي عليه مال فغاب عني زماناً فرأيت يطوف حول الكعبة أفانقاضه مالي ؟ قال : لا - لا تسلم عليه ولا تروعه حتى يخرج من الحرم .

لثبت - فقط - فرض الحج على الناس ، بل هو مع العهدة الثابتة عليهم ، فلا تسقط بتركه ولا بالموت إذا استطاع إليه سبيلاً لوقت ما وتركه دون عذر .

و « الناس » هنا كل الناس من مختلف الملل والنحل دوغما تمييز ، وكما أمر ابراهيم الخليل بأذانه العام : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ... » (٢٢ : ٢٧) وآية ثالثة مدنية « وأتموا الحج والعمرة ... » ولكنها لا تخاطب إلا من يحج ، أم هو شاغل بأداء مناسكه ، حيث الإتمام لا يصح إلا فيما اشتغلت به .

ولقد أذن النبي كما أمر في أخريات العهد المدني قبيل الفتح ، مرة للمسلمين حيث أمر المؤذنين أن يؤذّنوا . (١) وأخرى للملئ الستة .

فلما نزلت آية الحج هذه جمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل الأديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركون فخطبهم وقال : « ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فأمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس وقالوا لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله : ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » (٢) .

(١) فروع الكافي ١ : ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : إن رسول الله (ص) أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم أنزل الله سبحانه : « وأذن في الناس بالحج ... » فأمر المؤذنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله (ص) يحج في عامه هذا فعلم من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب .

أقول : وآية الأذان والإستطاعة مدنيان ، فلم يكن تأخير للحج عن فرضه ، وحق لو كان فلجها أمتية أممية ، والرسول أعرف بتكليفه من كل عارف ! .

(٢) الدر المنثور ٢ : ٥٧ - أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك

وترى كيف تفرض فريضة على الناس كلهم من استطاع .. واصل الشروط في صحتها الايمان بالله واليوم الآخر والإسلام ، فكيف تُفرض على المشركين وسواهم من غير المؤمنين ؟ إنها فريضة جاهلية يستطيعها كل من استطاع إليه سبيلاً ، ومن السبيل اليها تحصيل شرطها الأصل وهو الإسلام ، وليس الحج فقط فرضاً على كافة المستطيعين من المكلفين بل هو في كل فرائض الدين كما الصلاة والزكاة : « قالوا ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نكذب بيوم الدين . وكنا نخوض مع الخائضين » (٧٤ : ٤٥) .

وهنا الأساس في فرض الحج هم كافة الناس وعلى هامشهم الجن وسائر المكلفين : « من استطاع إليه سبيلاً » وأما الكفار القصر المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً إلى الايمان غير مقصرين فلا ، كما المسلمون غير البالغين او المجانين او المرضى والفقراء او المحجوزين عن الحج ، أم اياً كانوا ممن لا يستطيع إليه سبيلاً لا يشملهم فرضه كما في سائر الفرائض .

إلا ان الحج فيها تأكيدات اكثر من غيرها إلا الصلاة ، فـ « الله » تأكيد لفرضه أنه من حقوق الألوهية ، و « على الناس » تأكيد ثان، وثالث اذ قدم عامة الناس كأنه فرض عليهم دونما شروط ، ثم استثنى بـ « من استطاع إليه سبيلاً » ظروف الحرج والعسر عن أدائه ، وفي الإبدال تثنية للمراد فتأكيد له حيث يلزم المبدل عنه كأنه فرض مطلق ، ثم البديل بيان لحده ، وذلك تأكيد

= وفي الدر المنثور ٢ : ٥٧ أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عكرمة قال : لما نزلت « ومن يتبع غير الإسلام ديناً .. » قالت اليهود فحنن مسلمون فقال لهم النبي (ص) إن الله فرض على المسلمين حج البيت فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا قال الله : « ومن كفر فإن الله غني عن الكافرين » .

أكيد لفرض الحج على المستطيعين ، ثم « ومن كفر ... » تهديد شديد بالكافر بفرضه ، ثم التارك له على فرضه وهو مؤمن به وهو الكفر عملياً قرناً بكفر عقائدي ! .

« .. حج البيت »

لقد ذكرت هذه الفريضة مرات عشر في القرآن كله ، تسعاً « الحج » فتحاً ، ومرة يتيمة كما هنا « حج البيت » كسراً ، وليس بين التسع آية تحمل فرض الحج كهذه إلا آية الأذان ، فما هو الحج هنا والحج في غيرها ؟ .

« الحج » في الأصل هو القصد ، ثم اصطلاحاً في شرعة الله هي القصد الأصل من الزيارات ، فهو القصد إلى زيارة بيت الله ، وهو كثرة القصد الى من يراد تعظيمه ، وهو الكف ، والغلبة بالحجة ، والقدوم ، وكثرة التردد ، وقد يضمها كلها حج البيت ، فانه القصد الى من تعظمه زيارة لبيته الحرام بديلاً عن زيارته نفسه المستحيلة ، ومن شروطه الأصيلة الكف عن غير الله ، والكف في هذه السبيل عن محارم الله ، وقد يتمثل الكف في تلبيات الإحرام ، وهو الغلبة بدليل على هواك والغلبة بمؤتمره على النسناس ، او ان الناس حضروه كما يجب ، وشهدوا منافع لهم كما يجب ، وقاموا قومتهم الجماهيرية على النسناس المعارضين شرعة الناس ، اذا فالحج حجة وغلبة بالحجة ! ، وهو القدوم الى بيت الله ، وكثرة التردد اليه ، ويجمعها كلها القصد القاطع لزيارة بيت الله .

واما « الحج » فهو اسم لذلك المصدر ، فهو حاصل الحج ، زيارة مقصودة ، فليس لله على الناس - فقط - حج البيت وهو قصده - دون واقعه ، بل حج البيت ، وهو الزيارة المقصودة بكل مناسكها ، والمقصودة بكافة جنباتها السياسية العبادية الجماهيرية .

و « حج البيت » تعم الحج والعمرة ^(١) فهما كالظرف والمجرور اذا اجتماعا افترقا واذا افترقا اجتماعا ، ف « وأتموا الحج والعمرة لله » تفصل بينهما ، والحج بمفردها تشملهما ، فالعمرة واجبة كما الحج ، سواء أكانت مع الحج ، ام مفردة لمن يستطيع الحج معها او لا يستطيعه .

ف « حج البيت » هو زيارة البيت ، عمرة مفردة ، ام تمتعاً مع حجها ، ومن آياتها « وإذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله برئ من المشركين ورسوله » (٩ : ٣) فيقابله الحج الأصغر وهو العمرة مفردة و تمتعاً ، إذا فهي حج كما هو حج .

ومما يفرض العمرة كما الحج « وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما

(١) جامع الأحاديث ١٠ : ٢٢١ حسنة عمر بن أذينة قال كتبت إلى أبي عبد الله (ع) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبي العباس فجاء الجواب بإملائي : سألت عن قول الله عز وجل : والله على الناس حج البيت من استطاع سبيلاً ، يعني به الحج والعمرة جميعاً لأنها مفروضان وسألته عن قول الله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » قال يعني بتمامها إداهما وإتقاهما ما يتقى المحرم فيهما ، وسألته عن الحج الأكبر قال : الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمي الحجار والحج الأصغر العمرة . وفيه ٢٢٢ من دعائم الإسلام عن جعفر بن محمد عليهما السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل : والله على الناس حج البيت . . يعني به الحج دون العمرة ؟ قال : لا ولكن يعني به الحج والعمرة جميعاً لأنها مفروضان وتلا قول الله عز وجل : « وأتموا الحج والعمرة لله » وقال : تمامها أدائها . أقول وفيه أحاديث جمة كلها تفرض العمرة كالحج بسناد آية الاستطاعة وآية العمرة دون فصل بين أقسام العمرة .

وفيه ص ٢٢٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع لأن الله تعالى يقول « وأتموا الحج والعمرة لله » وإنما نزلت العمرة بالمدينة ، قال قلت له : فمن تمتع بالعمرة إلى الحج أيجزي ذلك عنه ؟ قال : نعم - أقول أجزاء عمرة التمتع عن العمرة لا يصلح إلا أن تكون المجزى عنه العمرة المفردة ، ومثله موثقة يعقوب بن شعيب عنه (ع) .

استيسر من الهدي ... (٢ : ١٩٦).

﴿ من استطاع اليه سبيلاً ﴾

« من » هنا بدلٌ عن « الناس » إذا فالناس المستطيعون إليه سبيلاً هم المعنيون بفرض الحج ، وهل إنه أمرٌ بفره فور استطاعته لوقته فلا يجوز تسويفه دون عذر ؟ طبعاً نعم ! فإنه قضية أصل الأمر ، ولا سيما المحلّد بالإستطاعة الحاصلة ، فليؤد فورها لموسمه .

وهل تكفي حجة الإسلام مرة واحدة طول عمر التكليف ؟ طبعاً نعم ! فلو كانت فرضاً أكثر منها أم كل سنة ما دامت الإستطاعة لصرحت بها الآية ، والآي بها مرة مستطاعة لم يكفر بها عملياً إذ حققها ، فلا تندد به « ومن كفر » و « حج البيت » ليست لتدل على أكثر من مرة واحدة ، إلا إذا صرحت الآية أو صرحت به السنة ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول جواباً عن سؤال : « أفي كل عام يا رسول الله ؟ لو قلتها لوجب ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فتطوع » (١) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٥ - أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله (ص) ، فقال يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام ... وأخرج مثله باختلاف يسير أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم عن علي (ع) قال : لما نزلت « والله على الناس .. » قالوا يا رسول الله (ص) ... - بزيادة - فأنزل الله : لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكن تسؤكن .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال لما نزلت « والله .. » قال رجل يا رسول الله أفي كل عام ؟ قال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجب ولو وجبت ما قمت بها ولو تركتموها لكفرتن فلدروني ما وفرتنكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم واختلافهم عليهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه .

والاستطاعة هي طلب الطوع عقلياً وعقلاً ومالياً وأمنياً من صحة وحفاظ
عرض ونفس وسواهما من النواميس الخمس ، وأمن طريق ، أما إذا من طوع
دون عسر ولا حرج ، لا في طريق الحج قبله ولا في مناسكه ولا في رجوعه ،
بحيث لا يتعسر او يتحرج بسبب الحج .

فمادة الوجوب هنا هي استطاعة سبيل إلى حج البيت ، وطبعاً دون عسر
ولا حرج ، وليس تفسيرها بالزاد والراحلة في المستفيضة المروية عن الرسول
(صلى الله عليه وآله وسلم) وائمة اهل بيته (عليهم السلام) ، إلا تفسيراً
بالأكثريّة الساحقة من مصاديق الإستطاعة حيث القلة القليلة هم المستطيعون
دون زاد حاضر وراحلة، بل المشاة هم السابقون في آية الحج على الركب :
« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج
عميق ... » (٢٢ : ٢٧) (١) .

إذاً فـ « حجة الاسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين ولقد كان
أكثر من حج مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مشاة » (١) وليس من عنده
زاد وراحلة إلا ممن يستطيع الحج ، لا أنه المستطيع لا سواء (٢) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٦ أخرج تفسير الإستطاعة بالزاد والراحلة عن الرسول (ص) الدارقطني
والحاكم وصححه عن أنس عنه (ص) ومثله عن الحسن وعائشة وابن مسعود عنه وعمر بن
شعب عن أبيه عن جده عنه (ص) وجابر بن عبد الله عنه (ص) وعن علي (ع) عنه (ص) في
الآية قال : تمجد ظهر بعير .

وقد روى أصحابنا بطرق عدة عن أئمة أهل البيت تفسير الإستطاعة بالزاد والراحلة وكذلك تخليّة
السرب وصحة البدن ، ودور الراحلة هو الأكثريّة الساحقة من إستطاعة السبيل إلى الحج فلا
تستغرق كل المستطيعين .

(٢) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٢٥١ صحيحة معاوية بن عمار قال سألت أبا عبد الله (ع) عن رجل
عليه دين أعليه أن يحج ؟ قال : نعم إن حجة الإسلام واجبة ... ولقد مر رسول الله (ص) =

ثم المحتاج الى زاد حاضر وراحلة ، ان استطاع الحصول عليها دون عسر ولا حرج ، فهو ممن استطاع اليه سبيلاً ، وليس تحصيلها تحصيلًا للإستطاعة ، إلا اذا كانا هما - فقط - الإستطاعة ، كيف لا وقد أمر الفقير ان يخدم القوم ويخرج معهم^(١) .

= بكراخ الغميم فشكوا إليه الجهد فقال : شدوا أزركم واستبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم .. وفيه صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد الله (ع) الحج على الغني والفقير ؟ فقال : الحج على الناس جميعاً كبارهم وصغارهم فمن كان له عذر عذره الله . وصحيحة حفص عن أبي عبد الله (ع) عن آية الإستطاعة ما يعني بذلك ؟ قال : من كان صحيحاً في بدنه غل سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج . وفي الدر المنثور ٢ : ٥٦ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة قال قال رسول الله (ص) من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً . وفي جامع الأحاديث ١٠ : ٢٢٩ صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله (ع) في آية الإستطاعة ما السبيل ؟ قال : أن يكون له ما يحج به ، قال : قلت من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك أهو ممن يستطيع إليه سبيلاً ؟ قال : نعم ما شأنه يستحي ولو يحج على حمار أبتز فلان كان يطيق أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليحج .

أقول وروى مثله العياشي في تفسيره عنه (ع) ودعائم الإسلام عنه (ع) والتهذيب في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) والصحيح عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) والتوحيد في الصحيح عنه (ع) فالروايات في ذلك قد تبلغ حد التواتر والأصل هنا هو نص آية الأذان والإطلاق كالنص في آية الإستطاعة ، فلا مجال للقول أن فاقد الزاد والراحلة ، المستطيع للحج دون عسر ولا حرج ليس مستطيعاً للحج .

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٢٥١ صحيحة أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله (ع) قول الله عز وجل « والله على الناس .. » قال : يمشي إن لم يكن عنده ، قلت : لا يقدر على المشي ؟ قال : يمشي ويركب ، قلت : لا يقدر على ذلك ؟ قال : يخدم القوم ويخرج معهم ، ورواه مثله العياشي في تفسيره عن أبي بصير عنه (ع) .

كيف لا ! وآية الأذان تقدم المشاة على الركب : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢٢ : ٢٧).

هنا « يأتوك » دون « يأتونك » جواب لأمر الأذان ، والأمر بالأمر يخلف واجب الأمر ، ثم « رجالاً » جمع راجل « وعلى كل ضامر » : هزيل « يأتين » : كل ضامر بركبها ، و « من كل فج عميق » يعم « رجالاً وعلى كل ضامر » : يأتوك - يأتين : « من كل فج عميق » .

ولأن « سبيلاً » هي الطريق المنحدرة ، فإذا كانت السبيل اليه حاصلة فقد استطاع اليه سبيلاً ، وإذا استطاع الحصول على هذه السبيل ، إزالة لعسرهما أو حرجهما ، دونما عسر أو حرج فيها فقد استطاع اليه سبيلاً ، حيث السبيل المستطاعة هي الميسورة وإن بوسائل قريبة أم غريبة .

إذا فالملحد له اليه سبيل بالإيمان بالله فانه ميسور براهينه ، والمشرک له اليه سبيل بتوحيد الله ، والكتابي له اليه سبيل بالإسلام ، والمسلم الفقير المريض الذي ليس له أمن الطريق أماذا من السبل غير الحاصلة بالفعل ، انه له اليه سبيل ما استطاع الحصول على المال والصحة وأمن الطريق اما هي من السبل دون حرج ولا عسر ، فالمستطيعون الى الحج سبيلاً - إذا - هم الاكثرية المطلقة من الناس ، فلذلك « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً » .

وما اشتراط الزاد والراحلة إلا اشتراطاً لكونها ميسورين حاضراً وسواه ، فرب زاد وراحلة غير ميسورين وهما حاضران ، ام هما ميسوران وليسا بحاضرين ، فالأصل هو استطاعة السبيل الى الحج بمقدمات قريبة أم بعيدة ما دامت غير حرجه ولا معسورة .

والاستطاعة المشروط بها فرض الحج تعم العقلية والعقلانية والشرعية

والبدنية والأمنية والمالية والعرضية أمأهيه مما تجعل الحج بطوع الحاج دونما عسر ولا حرج .

فما أمكن منها الحصول عليها بمحاولات مستطاعة كتحصيل الزاد والراحلة والصحة البدنية والحالة الأمنية أمأهيه ، وجب الحصول عليها ، فان هذه الإمكانية هي من استطاعة السبيل الى الحج ، حيث السبيل إليه مختلفة ، وما لم يمكن او كان في عسر او حرج فلا يجب ، فالمدار هو استطاعة السبيل اليه ايأ كان وأيان ، دونما حصر بزاد وراحلة ام وصحة وامنية فعلية ما امكن الحصول عليه واستطاع السبيل اليه .

ثم الاستطاعة قد تكون فردية كما بينها ، واخرى اجتماعية ، فلتن حج عامة المكلفين بقي وجوب الحج على جمع من الجماهير المؤمنة ثابتة اذ يحرم تعطيل هذا المؤتمر السنوي الاسلامي العالمي ، كما تلمح له الآية « على الناس » وتصريح مستفيضة الروايات^(١)

﴿ ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾

والكفر هنا راجع الى نكران فرض الحج فانه المحور الاصيل في الآية^(٢)

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٢١٧ - ٢٢١ باب حرمة تعطيل البيت عن الحج في كل عام وأن الناس لو عطلوه لوجب على الوالي أن يجبرهم عليه وإن لم يكن لهم مال يتفق عليهم من بيت المال فإن الدين قائم ما قامت الكعبة ..

ومن هذه الأحاديث (٦٣٧) عن الكافي والفقير عن حفص بن البختري وهشام بن سالم ومعاوية بن عمار وغيرهم عن أبي عبد الله (ع) قال : لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده ولو تركوا زيارة النبي (ص) لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين .

(٢) جامع الأحاديث ١٠ : ٢٢٩ القطب الراوندي في لب الألباب عن رسول الله (ص) وقال رجل يا =

ومن ثم عمل الحج^(١) بفارق أن الأول كفر عقيدي والثاني عملي ، ثم الكفر بثواب الحج إن أتى به وعدم العقاب على تركه سواء أتى به في هذه الحالة أم ترك ، وهذه الأربع كلها معنية بـ « ومن كفر . . » حيث الآية تشمل هذه الزوايا : فرضه - تطبيقه - ثوابه ، وعقاب تركه - ثم وتركه ، كما والأحاديث تدلنا على هذا الإطلاق .

قُلْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بِعَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ بِأَهْلِ
الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّونَهَا

= رسول الله (ص) من ترك الحج فقد كفر ؟ قال : لا ولكن من جحد الحق فقد كفر .
وفيه ٢٣٠ علي بن جعفر عن أخيه موسى (ع) في حديث حول الآية قلت فمن لم يحج فقد كفر ؟
قال : لا ولكن من قال : هذا ليس هكذا فقد كفر .
وفي الدر المنثور ٢ : ٥٧ لما نزلت آية الحج جمع رسول الله (ص) أهل الملل فقال إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله إلا المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نستقبله فأنزل الله « ومن كفر . . » وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي داود نفيح قال قال رسول الله (ص) « والله على الناس حج البيت . . ومن كفر . . » فقام رجل من هزبل فقال يا رسول الله (ص) : من تركه كفر ؟ قال : من تركه لا يخاف عقوبته ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك .

(١) وفيه ٢٣٠ عن الإحتجاج في إحتجاج أمير المؤمنين (ع) على الخوارج : ولقد قال الله جل ذكره « والله على الناس . . » فلو ترك الناس الحج لم يكن البيت ليكفر بتركهم إياه ولكن كانوا يكفرون بتركهم إياه لأن الله قد نصبه لهم علماً وكذلك نصيبي علماً حيث قال رسول الله (ص) : يا علي أنت مني بمنزلة الكعبة تؤى ولا تأبى ، وفيه عن فقه الرضا (ع) وسمى تارك الحج كافراً وتوعد على تاركه من النار فنعوذ بالله .

عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ
وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾
يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ
مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَنَسُوذَنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَبِيرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٩٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿١٠١﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٢﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ
يُولُوكُمْ أَوْلَادُكُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٠٣﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا
بِفُضَيْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٨) .

استفهام إنكارى بتعريض عريض أن كيف يكفر الكتابي بآيات الله وهو عشيرها لكونه من أهل الكتاب ، وذلك النكران هو أضل سبيلاً لهم أولاء الأنكاد وللذين آمنوا ببساطة ولما يقع إيمانهم موقعه الصامد ، حاسين أن لو كان القرآن ورسوله حقاً من الله لآمن به أهل الكتاب قبلنا ، إلا من هداه الله ونجاه بما جاهد في سبيل الله وكرس حياته لله فـ «الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم» (٤٧ : ١٧) .

« لم تكفرون بآيات الله » رسالية ورسولية ، النازلة بعد ما أنزل اليكم من كتاب « والله شهيد على ما تعملون » في كفركم وبمختلف أساليب التضليل ، لا تخفى عليه منكم خافية ، وقد كانوا يظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » (٢ : ٧٦) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩) .

ليس فحسب أنكم « تكفرون بآيات الله » في انفسكم ، بل و « تصدون عن سبيل الله من آمن » صدأ بكفركم ، وآخر بإيمانكم ثم كفركم : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » وثالث بدعاياتكم الباطلة الخواء ، عاثين ثالث الصد عن سبيل الله من آمن ، حال أنكم « تبغونها عوجاً » تطلباً للسبيل العوجاء « وأنتم شهداء » سبيل الله لمكان الكتاب ، و « شهداء » الحق بما شهد لكم الكتاب ورسول الكتاب ، « وأنتم » يجب عليكم ان تكونوا « شهداء » الحق لمن لم يشهده « وأنتم شهداء » على ماذا

تعملون بكفرهم وصدكم عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً ! .

فشهادة الحق والشهادة بالحق والشهادة على الحق وشهادة نكران الحق هي زوايا اربع من « وانتم شهداء » مما يضخم مسئولية الكافرين الصادين عن سبيل الله .

ذلك كيد لعين لثيم من اهل الكتاب الكافرين ، فحذار حذار للذين آمنوا أن يتخذوا فريقاً منهم أولياء لأنهم اهل الكتاب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (١٠٠) .

ولما حذروا عن طاعة فريق منهم وطاعة غير المؤمن محظور أياً كان ؟
لأن اهل الكتاب فرق ثلاث ، منهم الصادون عن سبيل الله وهم الذين حُذِرَ عن طاعتهم ، ومنهم المؤمنون بهذا الرسول وكتابه وهم آهلون للطاعة في سبيل الله وهم قادة الايمان بسبيل الكتاب ، ومنهم عوان لأنهم « أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » لا يدعون إلى شيء حتى يطاعوا وهم حائرون في أمرهم أنفسهم ، مهما افترقوا إلى متحزبين عن الحق ليتبعه ، ومهممل يعيش حائراً مائراً ، والجامع بينهما ألا دور لها في دعوة حتى يأتي دور الطاعة سلباً وإيجاباً ، ثم ولما ذا يطاع اهل الكتاب ؟ ألكي يهدوكم سبيل الرشاد ؟ وانتم راشدون بكتاب الله ورسوله ! :

ذلك وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما دس يهودي بين الأوس والخزرج فآخذوا يتقاتلان : « يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد اذ هداكم الله الى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفاراً فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فآلقوا السلاح

ويكوا وعاتق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله . . . » (١) .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١١) .

« كيف تكفرون » بعد ايمانكم - بطاعتهم ثم كفركم - مهما دخلت فيكم الدعايات الكتابية الكافرة وانتم اقوى منهم حجة ، « وانتم تتلى عليكم آيات الله » خالصة عن كل دس وتجديف ، آيات هي دلالات ذات بعدين على الحق ، إذ تدل بنفسها على انها من الله ، ثم تدل على حظائر القدس ، وهي اتقن الايات الرسالية على مدار الزمن الرسالي .

ثم « وفيكم رسوله » وليس فيهم رسولهم ، فانتهم مزودون بالحجتين

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٧ - اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ عن زيد ابن اسلم قال : مر شماس بن قيس وكان شيخاً قد عا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نكران اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملا بني قبيلة بهذه البلاد والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فقي شاباً معه من يهود فقال : اعمد اليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الاشعار وكان يوم بعث اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجلن من الحيين على الركب أوس بن قيس أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتناولوا ثم قال احدهما لصاحبه ان شئت والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة فخرجوا اليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين من اصحابه حتى جاءهم فقال : . . .

البالغتين الإلهيتين وهم خواء عنها ، لا يعيشون إلا خليطاً من وحي السماء بوحي الأرض فـ « كيف تكفرون ؟ » ١٩

ثم « ومن يعتصم بالله » بالله كأصل في كافة الحالات ولا سيما في أجواء التضييل والتجديل ، ويكتاب الله ورسوله دلالة صادقة معصومة على الله لانه اعتصام بالله ، حيث يذكر بعد « آيات الله ورسوله » بل هو الأصل والسبيل الوحيد في الإعتصام بالله ، ثم زيادة الهدى من الله تتبناه : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

فمن يزعم انه معتصم بالله ، تاركاً لكتاب الله ورسوله، فقد ضل ضلالاً مبيناً ، فـ « ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ... » .
اجل هناك اعتصام بالله دون وسيط وهو ان تدعوا الله ان يهديك ويغفر لك ذنوبك ، ولكنه لا يفيد ما لم تعتصم بالله بوسيط كتابه ورسوله وهما العاصمان بالله عن ورطات الجهل والظنوى الى درجات العلم والتقوى^(١)
فـ « من جعل الهموم همّاً واحداً كفاه الله ما أهمه من امر الدنيا والآخرة ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية هلك »^(٢) .

و « ايما عبد أقبل قبل ما يحب الله عز وجل أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٩ - اخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أوحى الله الى داود يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكينه السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف منه نيته إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه وأسخت الهواء من تحت قدميه .

(٢) المصدر اخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

الارض ... »^(١) و « المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله »^(٢) .

فمثلث الاعتصام بالله ينجي اهل الله عن ثلوث الصد عن سبيل الله « فقد هدي الى صراط مستقيم » « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين اتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » (٢٢ : ٥٤) « ... فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » (٢ : ٢١٣) .

وهنا « تتلى عليكم آيات الله وفيكم وسوله » مما يثبت ان الكتاب والسنة يكفيان في التدليل على الحق المطلق في أجواء التضييلات فضلاً عما سواها ، فإدام الرسول فينا فهو الذي يهديننا الى ما خفي عنا من دلالات الكتاب وتأويلاته وإذا ارتحل عنا فستنه الثابتة المعروفة بموافقة الكتاب هي الحجة بعد الكتاب ، ثم لا حجة بعدهما لأي سلب أو إيجاب ، في أي قليل أو جليل .

ولأن العترة الطاهرة المعصومة هم حملة السنة الصالحة نسمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول فيما تواتر عنه : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » فمهما صدقنا ما يروى عنه : « وسنتي » بدلاً عن عترتي ما كنا نصدق حاملاً للسنة إلا الأئمة المعصومين وهم عترته .

فـ « سنتي » لأنها سنتي ، ثم « عترتي » لأنهم المأمونون على سنتي ، كما

(١) نور الثقلين ١ : ٢٧٦ عن اصول الكافي بسند متصل عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : ...

(٢) المصدر عن معاني الأخبار بإسناده الى حسين الأشقر قال قلت لهاشم بن الحكم ما معنى قولكم ان الامام لا يكون الا معصوماً ؟ فقال : سألت ابا عبدالله (عليه السلام) عن ذلك فقال : ...

وهم الذين يفسرون الكتاب حقه كما أنا الرسول .

ولو ان هناك غير الكتاب والسنة هادياً الى الصراط المستقيم - من اجماعات وشهرات ونظرات واجتهادات بقياسات واستحسنات واستصلاحات واشباهها من غير الكتاب والسنة - لجاء ذكره - وإن مرة يتيمة او اشارة - في الذكر الحكيم .

فانما هو الاعتصام بالله في خضم الضلالات والتضليلات مهما قويت فان الله أقوى والمضلون هم اضعف وأغوى .

وماذا بعد الهدي الى صراط مستقيم ، فالؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف... وهنا اعتصام فردي للحفاظ على الايمان الفردي ، دفعاً لمكائد الصادين عن سبيل الله ، ثم اعتصام جمعي جماهيري للمؤمنين بالله يعصمهم عن المكائد الجماهيرية الكافرة ، ويحافظ على دولة الايمان عالية خفاقة ، تبين الايات التالية شروطاً متأصلة لذلك الإعتصام .

هذه الايات تبين لنا الشروط الايجابية الاربع والسلبية الثلاث والنتائج المنتوجة على ضوء تطبيقها ومنها « لن يضروكم الا اذى ... » :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢) .

ركيزة أولى بعد الايمان تقوم عليها الجماعة المسلمة تحقيقاً لكيانها وتأدية لدورها ، صموداً في وجه أعداءها الألداء ، هي تقوى الله حق تقاته والموت مسلماً ، فبدون هذه الركيزة تكون الأمة فالتة في تجمع جاهل قاحل مهما ملكت من إدعآت وحملت من أسماء براقعة مشرقة كـ : « المؤمنون » .

« اتقوا الله » ولكن كيف وكم وإلى اين ؟ « اتقوا الله حق تقاته » كما وكيفاً « ولا تموتن إلا وانتم مسلمون » مدى وغاية ، أن تصبح حياة الإيمان تقوى حقة

حقيقية بحذافيرها في كل صغيرة وكبيرة .

وليس له « حق تقاته » جدٌ يتصور ، فكلما أوغل القلب في هذه السبيل
تكشفت له آفاق وآفاق وجدت له أشواق ، في تيقظ من شوقه الى درجات فوق
ما ارتقى .

وقد يروى عن أحق الاتقياء في « حق تقاته » - « ان يطاع فلا يعصى
ويذكر فلا يُنسى »^(١) و « لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يعلم أن ما أصابه لم
يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه »^(٢) .

إذا « فبادروا العمل وخافوا بفتنة الأجل فانه لا يرجى من رجعة العمر ما
يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من الرزق رجبى غداً زيادته وما فات أمس
من العمر لم ترج اليوم رجعته الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي فداتقوا الله
حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون »^(٣) .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ١ : ٢٧٦ عن معالي الأخبار بإسناده إلى أبي بصير قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام)
عن الآية قال : « يطاع ولا يعصى ويذكر فلا يُنسى ويشكر فلا يكفر » .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع عن عبد خبر قال سألت علي بن أبي طالب
(عليه السلام) عن قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ... » قال : والله ما عمل بها غير
بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نحن ذكرناه فلا ننساه ونحن شكرناه فلا نكفره ونحن
أطعناه فلم نعصه فلما نزلت هذه الآية قال الصحابة لا نطيع ذلك فأنزل الله : فاتقوا الله ما
استطعتم .

اقول : لا نطيع - ان صح - يعني تلك الدرجة المعصومة من التقوى ، فالآية الثانية بيان له « حق
تقاته » انه على قدر الاستطاعة فلا يكلف غير المعصوم بتقوى المعصوم .

(٢) المصدر اخرج الخطيب عن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) نور الثقلين ١ : ٢٧٦ عن نهج البلاغة قال (عليه السلام) : ...

والتقى الحققة هي المحلقة على ظاهر التقى وباطنه علماً واعتقاداً وعملاً صالحاً اسراراً وإعلاناً ف : « الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم والعلم كله حجة إلا ما عمل به والعمل كله رياء إلا ما كان مخلصاً والإخلاص على خطر حق ينظر العبد بما يختم له » (١) .

وترى كيف يؤمر المؤمنون ان يتقوا الله حق تقاته وهو غير مستطاع لأحد او مستحيل على كل أحد حتى أول العابدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فضلاً عما عنونه من المؤمنين ؟ .

فهل إنها منسوخة بآية الاستطاعة « فاتقوا الله ما استطعتم » (١٦ : ٦٤) ؟ و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٢٨٦ : ٣) و « إلا ما آتاها » (٧ : ٦٥) فكيف يكلفهم بغير ما يستطيعون ، وما لم يؤثم من الطاعة حتى يتقون « حق تقاته » ؟ .

فرواية النسخ (٢) منسوخة - لأن فيها نسخاً للمحال بالممكن - أو مأولة بمعنى التخصيص ، أنها خصت بآية الاستطاعة بقدر المستطاع فحق تقاته من الرعي الأعل ، غير المستطاع ممن دونهم ، انه لا يكلف به من لا يستطيعه ، فـ « حق تقاته » درجات ، لا يكلف منها أحد إلا قدر استطاعته ، فقد تحلق « حق تقاته » على كل مدارج « تقاته » حسب المستطاع ، و « ما استطعتم » بيان

(١) المصدر في هون الأخبار باسناده إلى داود بن سليمان القاري عن أبي الحسن الرضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) انه قال : ...

(٢) الدر المنثور ٢ : ٥٩ - اخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم فقاموا حتى وردت عراقهم وتفرحت جباههم فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين « فاتقوا الله ما استطعتم » وفيه عن ابن عباس قال : لم تنسخ ولكن حق تقاته ان يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على انفسهم وآبائهم وامهاتهم .

لـ « حق تقاته » انه ليس الحق الاول للسابقين في « تقاته » فاين النسخ او التخصيص اللهم إلا التفسير والتوضيح .

ذلك ، فلـ « حق تقاته » درجة مستحيلة على الكل وهي كما يحق لساحته تعالى ، واخرى مستطاعة للرعييل الأعلى غير مستطاعة لمن دونهم ، وثالثة مستطاعة لمن دونهم ، ولا تعني « حق تقاته » إلا الاخيرين كلاً في درجته حسب المستطاع .

فلا يعني « حق تقاته » إلا الحق المطلوب منهم ، المستطاع لهم ، كل على قدره وقدره ، فكما الايمان درجات كذلك تقوى الايمان درجات من أعلاها كما لأول العابدين الى ادناها كما لآخر العابدين وبينهما عوان من المتقين .

وعلى الخطاب هنا في أعلاه موجه الى المعصومين (عليهم السلام) كما في « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ... ملة ابيكم ابراهيم » (٢٢ : ٧٨) .

ثم المستحيل على العباد هو معرفة الله حق معرفته وعبادته حق عبادته ، واما تقواه حق تقاته فكما قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « ان يُطاع فلا يعصى وان يُذكر فلا يُنسى » وهذا يعظم في خضعه كل مراتب التقوى الحقبة حسب مختلف القابليات والفاعليات ، شاملة لحق العدالة والعصمة ، ثم العاصي المقصر خارج عن نطاق الآية ، والمعصومون هم في قمته العالية .

ولا يعني « يذكر فلا ينسى » أن المؤمن مأخوذ بذكره تعالى أبداً فانه غير مستطاع إلا للمعصومين حيث الغفلات المتأهية تخلله ، والشهوات المباحة تتوسطه ، والنوم والإغماء والتقية والمرض تحول دونه .

فالنما امروا أن يتقوا الله حق تقاته كما يستطيعون ، وليهابوا بلوغ أدنى حدود المعصية ، ويقفوا عن اولى مراتب السيئة ، فلا يقتربوها كيلا يقتربوها ،

فالمعاصي هي الله ومن حام حوم الحمى أوشك ان يوقع فيها ، فاجعل بينك وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، فانك متى استوفيت جميع الحلال تآقت نفسك الى فعل الحرام ، وكلما كثرت الزواجر كانت على المعاصي اردع ، والى فعل الطاعات أحوش واجذب .

ذلك - فمن جانب جميع ما نهاه الله عنه دون مقارفة ولا مقاربة ، وأتى بجميع ما أمره الله به ، وكل ذلك قدر المستطاع دون إهمال ولا تقصير ، فقد اتقى الله حق تقاته .

وترى بعدُ كيف « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » والموت مسيراً لا مخيراً ؟ وكما « ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٢ : ١٣٢) .

هنا النهي موجه الى الموت دون إسلام ، ناظراً الى عاقبة الأمر لمن اتقى الله حق تقاته ، فلا تكفي هذه التقوى الحققة لفترة من حياة التكليف ، بل والاستمرار فيها تكليف فوق تكليف ، ومهما كان الموت مسيراً ، فالموت حالة الإسلام مخيراً ، أن يستمر التقى في تقواه ، او تكون كل لاحقة منه خيراً من أولاه ، تقدماً على طول خط الحياة في تقوى الله ، دون تنازل عن حدها المستطاعة ولا وقفة عليه .

وفي صيغة أخرى إن الإنسان مكتوم عنه أجله اياً كان لما في كتمانته من مصلحة تربوية ، فلا يعرف متى تكون منيته ، وعلى أي جنب صرعته ، فحين ينهيه الله أن يموت إلا مسلماً فقد ألزمه في كل حال على ذلك الاسلام ، إذ لا يأمن على أية حال أن يموت عبطة او هرباً .

ذلك ومن جملة كمال اسلام المؤمن التوبة واستدراك الذنوب الفارطة ، فقد ألزمه سبحانه بما أمره ونهاه - مع التمسك بفرائض الأوقات وطاعاتها

واجتناب محارمه ومقبحاته - ان يستدرك ماضيه بتوبته لكيلا يموت إلا وهو مقطوع
باسلامه السليم .

ثم هنا خطاب المؤمنين ان يتقوا الله حق تقاته مما يشي بان التقوى اخص
من الايمان ، ومن ثم « إلا وأنتم مسلمون » غاية لتقوى المؤمنين مما يوضع أنه
الإسلام بعد الإيمان بوسيط التقوى ، فليس هو الإسلام قبل الايمان ولا مع
الايمان وتقواه ، بل هو الاسلام لله خالصاً مخلصاً نتيجة لتقوى الإيمان، إذاً
فالاسلام الأول وهو الاقرار ذريعة الايمان والايمان ذريعة التقوى والتقوى ذريعة
للاسلام الثاني فهو ذروة الايمان والتقوى ونتيجة لهما .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣)

إن ذلك الايمان والتقوى والاسلام لا تصح إلا أن تتبى اعتصاماً بحبل
الله جميعاً ، فبدونه ليست هي عاصمة لحاملها ولا معصومة عن الاخطاء
الموجهة اليها الحاجة عليها .

والحبل حبلان مادي ومعنوي ، سمي به لأن المتعلق به ينجو مما يخافه
كالمتشبث بالحبل اذا وقع في غمرة او ارتكس في هوة ، وكذلك الحبل العهد وثيقاً
حيث يُستأنس بها من المخاوف، والحبال يستنقذ بها من المتالف وهذا هو التشابه
بينهما .

فكلما كان صاحب الحبل أعلم واقوى فحبله أعصم وانجى ، فحبل الله
ينجي المتمسك به من كل غطب وهوة ويعصمه عن كل خوفة .

لقد امر الله المؤمنين - ككل - ان يتقوا الله حق تقاته ولا يموتن الا وهم
مسلمون ، فلا بد - إذا - من حبل رباني يعتصمون به في حق تقاته ، فالتقوى

دون حبل هي قد تكون طغوى فان الله يحب ان يُعبد كما يحب .

والإعتصام هو طلب العصمة وهي درجات ثلاث ، عصمة بشرية دون حبل الله ، وعصمة غير المعصومين بحبل الله ، وعصمة المعصومين بحبل الله .
فلان العصمة البشرية بالفطرة والعقلية والفكرة لا تكفي لها هدياً الى صراط مستقيم ، ثم العصمة المطلقة خاصة بالمعصومين ، لذلك يؤمر المؤمنون ان يعتصموا بحبل الله جميعاً حتى يحصلوا على عصمة دون الطليقة ، فكما المعصومون يُعصمون علمياً بحبل الله ، كذلك من دونهم ، كل على قدره .

الإعتصام بحبل الله جميعاً يعصم المعتصمين فطرياً وعقلياً وفكرياً ، علمياً وعقيدياً وخلقياً ، سياسياً وحربياً واقتصادياً وسلطوياً ، فهذه العشرة الكاملة من العصمة فردية وجماعية مضمونة للمعتصمين بحبل الله على أقدارهم « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » .

وذلك الاعتصام يعتمد على أركان : المعتصم - المعتصم به - المعتصم عنه - المعتصم لأجله .

فالمعتصم هم المؤمنون على درجاتهم من أعلى الايمان كما الحمدديون (عليهم السلام) ، وإلى أدناه وبينهما متوسطون في الايمان ، حيث الكل مأمورون بتقوى الله حق تقاته ، ومن حقها التقوى الجماعية بعد الفردية .

والمعتصم به هو حبل الله ، وهو وحي الله الأصيل غير الدخيل .

والمعتصم عنه هو كافة المزالق في الحياة الفردية والجماعية .

والمعتصم لأجله الحصول على كامل مرضات الله في معرفته وطاعته وعبادته .

وعلى هذه الأركان الأربع يتبنى عرش الايمان الصالح الصامد .

وللاعتصام بحبل الله شروط ثلاثة هي الاعتصام جميعاً - للمعتصمين

جميعاً - بحبل الله جميعاً ، فان « جميعاً » تتعلق بهذه الثلاث جميعاً .
 و « حبل الله » على وحدته تعم الحبل الرسولي الى الحبل الرسالي ، وحدة
 ثنوية وثنوية وحدوية ، فان محمداً هو القرآن والقرآن هو محمد ، طالما كان القرآن
 بنفسه أطول وادوم واكمل واعظم من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فهما
 وحدة متماسكة متجاوبة في كافة الحقول دونما اي أقول إلا شخص الرسول
 (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن سنته باقية كما القرآن ، مهما لم تتبين إلا
 بالقرآن كما القرآن يتبين بها تفسيراً باطنياً وتأويلاً .
 وكما المعصوم بالروح القدسي والعصمة الربانية يُعتصم علمياً بالقرآن ،
 كذلك سائر المعتصمين بالقرآن يُعتصمون به على درجاتهم في العصمة البشرية
 وفرقان من الله « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » .
 فلان القرآن هو طليق النور من نور السماوات والارض ، فالإستشارة به
 للمعتصمين به تعصمهم على أقدار أنوارهم البهية المرضية .
 ليس القرآن كتاب العلوم الرسمية التي تفتح أبوابها لكل شارد ومارد ،
 إنما « أنزل بعلم الله » فلا تفتح أبوابه المعنية في عناية الله إلا لأهل الله .
 وخير المخارج عن المضايق هي مخارج الآيات و « من يتق الله يجعل له
 مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب .. قد جعل الله لكل شيء قدراً »
 (٢ : ٦٥) .

فإتقان اللغة والأدب وإتقان التدبر والتفكير في استفسار الآيات بعضها
 ببعض ، إن ذلك كله راحلة لسفر القرآن والزاد هو التقوى التي بها توصل إلى
 مرادات الله جل وعلا .

ثم وجميعاً في جمعية الاعتصام نفسه تعني جميع الطاقات والامكانيات التي
 تصلح لذلك الاعتصام حيث تصلحه .

فعلى كل مؤمن بالرسالة الاسلامية تجميع كل طاقاته في مهام اوقاته

واحسنها وانضرها وانظرها ، تكريساً لها كلها للإعتصام بحبل الله ، تقدماً له على سائر الحبال وكما قال : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

ذلك والى تدبر واسع حول آية الاعتصام بحول الله الملك العلام .
ولنعرف « حبل الله » جيداً جاداً لكي نتمكن من الاعتصام به جميعاً ولا نتفرق عنه اوفيه ؟ « حبل الله » لا تحمله إلا هذه الآية اليتيمة ، اللهم إلا « بحبل من الله وحبل من الناس » (٣ : ١١٢) وقد تعني « حبل من الله » حبل الله هنا مهما اختلفا محتداً في شريعتي القرآن والتوراة .

فقد ينحيل الى البسطاء انه غير مفسر في القرآن ، والقرآن هو ككل حبل الله ، إذ لا وسيط - منذ بزوغ الاسلام حتى القيامة الكبرى - بين الله وبين المرسل اليهم إلا القرآن كأصل ثابت لا عوج له ولا حول عنه ولا أفول لشمسه ، ومن ثم الرسول وذووه المعصومون (عليهم السلام) تفسيراً له وتأويلاً ، وحبل القرآن اتم وادوم واكمل واعظم ، والحبل الظاهر الدائم هو المحور الاصيل لواجب الاعتصام على مدار زمن التكليف ، كما انه الحبل للرسول والائمة من آل الرسول (عليهم السلام) .

فهو الصراط المستقيم والنور المبين وحجة الله على الخلق اجمعين والشهيد لرب العالمين ، فمواصفات القرآن في نفسه بأسماءه وفي آيات منه تؤكد لنا انه حبل الله المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب ، وكما يروى عن ثاني الحبلين رسول القرآن (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الارض »^(١) و « ان هذا القرآن سبب طرفه بيد

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٠ - اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فانكم لن تضلوا ولن تضلوا بعده أبداً^(١) .
« إني تارك فيكم كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه
كان على الضلالة »^(٢) .

ذلك حبل الله الاصيل ، ومن ثم الرسول البديل الدليل على الله
الجليل ، ثم الذين يحملون ذلك الروح الرسالي المعصوم ، الذين يقال عنهم :
« اولنا محمد - اوسطنا محمد - آخرنا محمد وكلنا محمد (صلى الله عليه وآله
وسلم) » فانهم هم الصادرون عن محمد كما محمد صادر عن الله في كتاب الله
وستته الشارحة لكتاب الله .

صحيح أن « حبل الله » بإفراده يعني حبلاً واحداً لا ثاني له ، والإل لقال
حبلي الله أو حباله ، ولكن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القرآن كما
القرآن هو محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فرقدان لا يفترقان^(٣) وقد أشير
اليها قبل بعد « وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » مما يبرهن ثنوية الحبل

(١) المصدر اخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزازي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) : ...

وفي معاني الأخبار عن السجاد (عليه السلام) في حديث : وحبل الله هو القرآن .

(٢) المصدر اخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن زيد بن ارقم قال خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) فقال : اني ...

(٣) نور الثقلين ١ : ٢٧٧ في كتاب معاني الأخبار باسناده إلى موسى بن جعفر (عليهما السلام)
عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين (عليهما السلام) قال :
الامام منا لا يكون إلا معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون الا
منصوصاً ، فقليل له يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما معنى المعصوم ؟ فقال : هو
معتمم بحبل الله وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن
يهدي إلى الإمام وذلك قول الله « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » .

حال وحدويته ، وكذلك الآيات الأمرة باتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مصرحة بهذه التثنية الموحدة الموحدة .

لذلك لا يصدق أي حديث يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) او حملة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا إذا وافق كتاب الله - أم لأقل تقدير - لم يخالفه ، شريطة اطمئنان بصدوره عنهم بوجه صالح دوغما تقية .

فلذلك نجد في الحديث المتواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ان جبل الله هما الثقلان ، أحدهما أطول - أكبر - أفضل - أول - أعظم - وهو كتاب الله والآخر الأصغر هم عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رواه بمخمس الأفضلية للكتاب الفريقان في قمة التواتر من احاديث الإسلام عن زهاء ثلاثين من اصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونفر من الصحابييات عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) (١)

(١) ففي الدر المنثور ٢ : ٦٠ - اخرج احمد عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله عز وجل جبل محدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وأنها لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ، وفيه اخرج الطبراني عن زيد بن ارقم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إني فرط لكم وانكم اردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل وما الثقلان يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الأكبر كتاب الله عز وجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ولا تفلتوا والأصغر عترتي وأنها لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض وسألت لها ذاك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ولا تعلموهما فانها اعلم منكم ، وفيه مثله أخرجه ابن سعد وأحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفي جامع احاديث الشيعة لاستاذنا الأقدم الا علم المغفور له آية الله العظمى السيد البروجردي نقلاً عن العقبات انه روى حديث الثقلين نفر كبير من الصحابة ثم ذكر اسماء كل واحد منهم من =

= المائة الأولى إلى الثالثة عشر ، في كل مائة نحواً من عشرين إلى ثلاثين رجلاً من كبار أخبار الحديث واليكم نماذج من اسمائهم : منهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) أخرجه عنه خمسة من الأعظم مثل الطبري والسيوطي ، ومنهم الحسن بن علي (عليهما السلام) وسلمان وأبو ذر رواه عنهم ثمانية ، ومنهم ابن عباس وأبو سعيد الخدري رواه عنها تسعة وأربعون رجلاً ، ومنهم جابر بن عبدالله الأنصاري رواه عنه ثلاثون رجلاً ، ومنهم أبو الهيثم بن التيهان رواه عنه خمسة وأبو رافع مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن السيد أخرجه عنه إحدى وعشرون رجلاً وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين روى عنه خمسة وزيد بن ثابت روى عنه ستة وعشرون رجلاً ، وأبو هريرة روى عنه ستة وعبدالله بن حنطب ثلاثة ، وجبير بن مطعم ثلاثة ، وبراء بن عازب وانس بن مالك وطلحة بن عبدالله التميمي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وسهل بن سعد الأنصاري خمسة ، وعدي بن حاتم وعقبة بن عامر وأبو أيوب الأنصاري وأبو شريح الخزاعي وأبو قدامة الأنصاري وضميرة الأسلمي ، روى حديثهم الأجله والاكابر من أخبار الحديث من اخواننا السنة وعامر بن ليل بن حمزة تسعة ، ومن هؤلاء الرواة صحابييات مثل الصديقة الطاهرة سلام الله عليها وأم سلمة رواه عنها ستة وأم هاني اخت الامام علي (عليه السلام) رواه عنها أربعة .

اقول : وقد ذكر المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في سفره العظيم « ملحقات احقاق الحق » أسماء ممن أخرج عن هؤلاء في ج ٩ ص ٣٠٩ - ٢٧٦ ونختصرهم كالتالي :

١ حديث أبو سعيد الخدري : روى عنه جماعة منهم ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢ : ١٩٤) واحمد بن حنبل في المناقب والطبراني في المعجم الصغير (٧٢) والمعجم الكبير (١٢٧) وابن المغازلي في المناقب والنيسابوري في الرسالة القوامية في مناقب الصحابة (مخطوط) وموفق بن احمد في مقتل الحسين (١٠٤) ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى (١٥) والحموي في فرائد السمطين (المخطوط) والزرندي في نظم درر السمطين (٢٣٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٩ : ١٦٢) والسيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الانحاف (١١١) وفي الدر المنثور - كما نقلناه - والمتقي الهندي في كنز العمال (١ : ٣٤٢) والعسقلاني في المواهب اللدنية (٧ : ٧) والبدرخشى في مفتاح النجما (المخطوط) ومحمد الصبان في اسماء الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (١٢٢) والقندوزي في ينابيع المودة (٢١) وزيني دحلان في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية =

- = (٣ : ٢٢٠) والتقشبندي في راموز الأحاديث (١٤٤) والأمرتسرى في ارجح المطالب (٢٢٦) والنبهاني في الأنوار المحمدية (٤٢٥).
- ^٢ حديث زيد بن ارقم رواه عنه جماعة منهم الدارمي في سننه (٢ : ٤٣١) ومسلم في صحيحه (٧ : ١٢٢) والبيهقي في الاحتفاد (١٦٤) والترمذي في صحيحه (١٣ : ٢٠٠) والنيسابوري في مستدركه (٣ : ١٤٨) واحمد بن حنبل في مناقبه (مخطوط) والطبراني في المعجم الكبير (١٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠ : ١١٢) وابن المغازلي في مناقبه (مخطوط) والاندلسي في الجمع بين الصحيحين (المخطوط) والبغوي في مصابيح السنة (٢٠٥) والصغاني في مشارق الأنوار والجزري في جامع الأصول (١ : ١٨٧) وابن الأثير في اسد الغابة (٢ : ١٢) وعبد الدين الطبري في ذخائر العقبى (١٥) وابن حبان في المقتبس في احوال الاندلس (١٦٧) والحموي في فرائد السمطين (المخطوط) وابن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى (١٩٨) والحازن في تفسيره (١ : ٤) وابن تيمية في منهاج السنة (٤ : ١٠٤) والسيد خواجه الهندي : درر في علم الكتاب (٢٥٤) والزرزري في نظم درر السمطين (٢٣١) والسهمي في تلخيص المستدرک (٣ : ١٤٨) وعبد القادر في منتخب تاريخ ابن عساکر (٥ : ٤٢٦) والأزدي في تفسير التبيان (١٧٧) وابن كثير في تفسيره المطبوع بهامش فتح البيان (٩ : ١١٤) والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٦٨) والمبيدي في شرح ديوان امير المؤمنين (١٨٨ المخطوط) والسيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف (١١٠) وفي الخصائص الكبرى (٢ : ٢٦٦) والدر المنثور (٢ : ٦٠) والجامع الصغير (١١٢) والأكلیل (١٩٠) ومحمد بن طولون في الشلورات الذهبية (٦٦) والكرمي في نفحات اللاهوت (٥٥) وابن حجر في الصواعق المحرقة (٢٢٦) والشيباني في تيسير الوصول (١ : ١٦) والفتي الهندي في كنز العمال (١ : ١٥٢) وفي منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند (٥ : ٩٥) والشيخ سعدي الأبي الشافعي في ارجوزته (٢٠٧) والمفسر البغوي في معالم التنزيل (٥ : ١٠١) والكشفي في المناقب المرتضوية (٩٧) والشيخ منصور بن علي المصري في التاج الجامع للاصول (٢ : ٣٠٨) وابن حمزة الحنفي في البيان والتعريف (١ : ١٦٤) والبدخشي في مفتاح النجا (٨) والتابلسي في ذخائر المواريث (١ : ٢١٥) والشبراوي المصري في الاتحاف بحب الأشراف (٦) وشاه ولي الله الحنفي في ازالة الخفاء (٢ : ٤٤٥) والصبان في اسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (١٢١) والسهودي المصري في جواهر العقدين عل ما في ينابيع المودة =

= (٢٦) والبلخي في ينابيع المودة (٣٠ و ٢٥ و ١٩١) والقندوسي الحنفي في سنن المهدي (٥٦٥) والدهلوي في تجهيز الجيش (المخطوط ١٤١ و ٣٠٤) وزيني دحلان الشافعي في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية (٣ : ٢٢٠) والبهولاني في حسن الأسوة (٢٩٢) والإدرسي في رفع اللبس والشبهات (٥٢) والنبهاني في الفتح الكبير (١ : ٢٥٢) وفي الأنوار المحمدية (٤٢٥) وفي الشرف المؤيد (١٧) وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار (١ : ٢٦١) والحضرمي في رشفة الصادي (٧٠) والحداد في القول الفصل (٤٦٢) والامرتسري في ارجح الطالب (٢٢٥) والقلندر في الروض الأزهر (٢٥٨) والفهري القاسي في رياض الجنة (١ : ٢) والتونسي في السيف اليماني (١٠)

٣ حديث حذيفة - ذكر ثمانية من المؤلفين اخرج عنه

٤ حديث زيد بن ثابت - عن عشرة منهم

٥ حديث جابر عن عشرين منهم

٦ حديث علي (عليه السلام) عن سبعة منهم

٧ حديث فاطمة (عليها السلام) ومن اخرجها عنها القندوزي في ينابيع المودة (٤٠).

٨ حديث ابن عباس ومن اخرجها عنه ابن المغازلي في المناقب (١٥) والقندوزي في ينابيع المودة

٩ حديث الحسن بن علي (عليهما السلام) ومن اخرجها عنه القندوزي في ينابيع المودة (٢٠).

١٠ حديث انس ، اخرجها عنه في الينابيع (١٩١).

١١ حديث ابو رافع ومن اخرجها عنه الامرتسري في ارجح الطالب (٢٢٧)

١٢ حديث ابن أبي الدنيا ، ومن اخرجها عنه ابن المغازلي في مناقب امير المؤمنين (عليه السلام)

١٣ حديث جبير بن مطعم ومن اخرجها عنه القندوزي في الينابيع (٣١ و ٢٤٦).

١٤ حديث عبدالله بن حنطب ومن اخرجها عنه ابن الاثير في اسد الغابة (٣ : ١٤٧) والسيوطي في

احياء الميت وابن أبي بكر في مجمع الزوائد (٥ : ١٩٥).

١٥ حديث حمزة الأسلمي ومن اخرجها عنه القندوزي في ينابيعه (٢٨) والامرتسري في ارجح

المطالب (٥٦٢).

١٦ حديث عبد بن حميد ومن اخرجها عنه القندوزي (٢٨).

١٧ حديث ابي ذر ومن اخرجها عنه الامرتسري في ارجح الطالب (٢٢٧).

وقد يروى ان الخليفة عمر سأل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما يقول كتاب الله وعترتي - اما كتاب الله فقد عرفناه فمن عترتك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : عترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (١) .

ولا ريب ان اهل بيته هم المعنيون معه في آية التطهير والمباهلة واولي الامر واشباهاها ، فهم الائمة الاثني عشر المعصومون والصديقة الطاهرة سلام الله عليهم اجمعين .

١٨ - حديث أبي هريرة ومن أخرجه عنه علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد (٩ : ١٦٢) والسيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الانحاف (١٢٢) والقندوزي في ينابيع المودة (٢٩) والامرتسري في ارجح المطالب (٢٢٧) .

١٩ - حديث أم هانئ ومن أخرجه عنها القندوزي في الينابيع (٤٠) والامرتسري في الأرجح (٢٢٧) .

٢٠ - حديث أم سلمة ومن أخرجه عنه الامرتسري في الأرجح (٢٢٨) .

٢١ - حديث محمد بن قنادة ... (٢٤١) .

والى عشرات من أخرجه عن اصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمختلف الألفاظ والمذكور في الجميع الثقلين كتاب الله وعترتي ، وفي أكثرها أحدهما أكبر أو أطول أو أعظم أو أنتم وهو كتاب الله .

ومما أخرجه في تفسير جبل الله بالعترة ما ذكره الثعلبي كما في العمدة لأبن بطريق (١٥٠) بسند متصل عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : نحن جبل الله الذي قال الله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ .

وأخرج مثله المهتمي في الصواعق المحرقة (١٤٩) والحضرمي في رشفة الصادي (١٥) والثعالبي وقال الإمام الشافعي :

ولما رأيت الناس قد ذهب بهم	مذاهبهم في ابحر الشفي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا	وهم اهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وامسكت بحبل الله وهو ولاهم	كما قد امرنا بالتمسك بالحبل

(١) رواه عنه ابن بابويه في كتاب النصوص على الائمة الاثني عشر

وعدم افتراقهم عن كتاب الله يعني انهم ليسوا حجة مضادة مفترقة عن كتاب الله فانهم صادرون عنه، فيما يروى عنهم من خلاف للكتاب نصاً او ظاهراً مستقراً ليس ليصدق عليهم .

وعدم افتراق كتاب الله عنهم عام في تأويله ، خاص في تفسيره ، فانهم معلموا الكتاب بعد الله ورسوله .

والثقل الأصغر حسب ما يروى عن والدهم الأكبر علي أمير المؤمنين (عليه السلام) « هم الدعاة وهم النجاة ، وهم أركان الأرض ، وهم النجوم بهم يستضاء ، من شجرة طاب فرعها وزيتونة طاب أصلها ، نبتت من حرم وسقيت من كرم ، من خير مستقر إلى خير مستودع ، من مبارك إلى مبارك ، صفت من الأقدار والأدناس ، ومن قبيح ما يأتيه شرار الناس ، لها فروع لا تُنال ، حصرت عن صفاتها الألسن ، وقصرت عن بلوغها الأعناق ، وهم الدعاة وهم النجاة ، وبالناس إليهم الحاجة ، فأخلفوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم بأحسن الخلافة فقد أخبركم أيها الثقلان أنها لن يفترقا هم والقرآن حتى يردا علي الحوض فالزموهم تهتدوا وترشدوا ولا تفرقوا عنهم ولا تتركوهم ففرقوا أو تمرقوا » (١) .

(١) شرف النبي لأبي اليقظان أبي الحسن الكازروني ص ٢٨٨ قال : بلغنا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصية للمسلمين الذين حضروا حين ثقل من الضربة ومن جملة ما قال : وفيكم من تخلف من بينكم (صلى الله عليه وآله وسلم) ما تمسكتم به لن تفلحوا ، هم الدعاة . . . ومن ملحقات إحقاق الحق (١٤ : ٥٢١ - ٥٢٢) عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ١٢٠) بسند متصل عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً ولياً ثم بالهداة من ولده .

وفي لفظ آخر روى عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : نحن حبل الله قال الله : =

وإذا كان الثقل الأصغر هكذا فالأكبر - إذاً - أنبل وأعلى ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو رأس الزواية في الثقل الأصغر وهم خليفته في تعليم الثقل الأكبر وتطبيقه .

ولأن الاعتصام لا بد وأن يكون بمعتصم حاضر على مدار الزمن فهو القرآن أولاً وأخيراً وليس الثقل الأصغر له دور إلا دور البيان المعصوم والتطبيق المعصوم ، ولا سبيل للوصول اليهم بعدما قضوا نحبهم إلا احاديثهم المروية عنهم ، ولا سبيل للتأكد من صدورها عنهم إلا موافقتها للثقل الأكبر .

ثم الاعتصام - وهو طلب العصمة - بحبل الله طليق في كافة الحقول الحيوية الايمانية والتقى والإسلامية فردية وجماعية ، فطرية - عقلية - فكرية - ثقافية - عقيدية - خلقية - عملية - سياسية - حربية واقتصادية .

فلا تكفي العقلية الانسانية ان تعصم الانسان حق في نفسها فضلاً عن سائر الحقول العشرة العشرة للإنسان في حياته الفردية والجماعية .

والعصمة الطليقة لا تحصل إلا بعصمة المعصوم بالحبل المعصوم ، ثم دونها بعصمة معصومة بالشورى مع تفكير صالح وتطبيق صالح لمراتبات الله تعالى .

فلا عصمة في مثلث الايمان التقوى الاسلام إلا بالاعتصام بحبل الله ، وليس فحسب اعتصاماً شخصياً ، ان يتقَّب كل في زوايته الخاصة في اعتصامه

«واعتصموا بحبل الله جميعاً...» فالمستمسك بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) المستمسك بالبر فمن تمسك به كان مؤمناً ومن تركه كان خارجاً عن الايمان .

وروى عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي جبرئيل : قال الله تعالى : ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي .

بالقرآن ، بل « جميعاً » في كل حقوله فإن « امرهم شورى بينهم » .

صحيح ان حبل الله - في بُعديه - معصوم ، والاعتصام بالمعصوم عاصم ، ولكن الأخطاء العارضة في ذلك الاعتصام لا تجبر في الاكثر إلا بشورى الإعتصام ، فهناك العصمة الكاملة الكافلة لحياة اسلامية سامية ، اللهم إلا اخطاء قليلة لا عيّد عنها للمعتصمين غير المعصومين ، مهما جبرت الشورى الصالحة فيه قسماً عظيماً من تلكم الأخطاء .

وذلك دواء لأواء الفتن المقبلة علينا وكما في خطبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « فإذا أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعجب » « واعتصموا . . ولا تفرقوا » في ثالثه المنحوس : تفرقاً عن حبل الله ، تفرقاً فيه ، وتفرقاً فيما بينكم في ذلك الاعتصام عن حبل الله أو فيه .

فالمتفرقون عن كتاب الله إلى روايات او نظرات او اجماعات وشهرات ، او قياسات واستحسنات او استصلاحات أمّاذا من مصادر ، هم متفرقون عن شرعة الله المتمثلة ككل في حبل الله .

كما المتفرقون عن الحبل الثاني زعماً منهم انه حسبنا كتاب الله - والسنة المباركة لزامه تبييناً وتفسيراً وتأويلاً - هم - كذلك - متفرقون عن شرعة الله .

فالاعتصام بالوحدوي بالحبلين هو العاصم ، فترك احد الحبلين الى الآخر تفرق عنها جميعاً فانها لا يفترقان و « حسبنا كتاب الله » هي كلمة حق اريد بها الباطل ، حق كما قال الله « او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وباطل حين يراد بها تنحية السنة الرسالية عن الكتاب ، حيث الكتاب الذي هو حسبنا يامرنا باتباع الرسول ، فالتارك لسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الأخذ بكتاب الله ، كما التارك له الأخذ بسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

وآله وسلم) هما من المقتسمين «الذين جعلوا القرآن عضين»، بفارق ان
الآخذ بالسنة أضل سبيلاً فانها لا تعرف إلا بكتاب الله، مهما لم يعرف تأويل
الكتاب إلا بالسنة.

فالذي يصدق بالمتن، هو- بطبيعة الحال- يصدق بالهامش الذي كتبه
الماتن نفسه، وليست السنة الاسلامية إلا هامشاً بيانياً من الماتن نفسه.

وان اختلاف الهوامش عن المتون في الكتابات غير الالهية، هو قضية
اختلاف الماتن والمحشي في النظرات العلمية، وأما متن الوحي وهامشه فلا فرق
بينهما إلا جملة وتفصيلاً.

لذلك ليست السنة لتخالف الكتاب او تنسخه، كما التبصرة القانونية لا
تنسخ القانون، وانما تشرحه وتوضحه، مهما كان من غير المقنن، فضلاً عن
السنة الاسلامية التي هي عبارة ثانية شارحة للمقنن.

ذلك وكما المتفرقون عن حبل الله اعتصاماً لطائفة وتركاً له لأخرى،
والمتفرقون في حبل الله بشطحات الآراء في تفاسير شاردة ماردة، والمتفرقون فيما
بينهم في مادة الاعتصام وكفه وكيفه، كل اولئك شرع سواء في تركهم الاعتصام
بحبل الله جميعاً دون طليق التفرق عنه وفيه وبين، مهما اختلفت دركاته.

فكما الله واحد في كافة شئون الربوبية وكل تفرق بشأنه مارد عن توحيد،
كذلك كتابه الكريم واحد في كافة الشئون التربوية، فكل إلحاد فيه أو إشراك به
أو تفرق فيه او عنه، كل ذلك مارد شارد.

فالذلة هي لزام المتفرقين في حقل ذلك الحبل «إلا بحبل من الله وحبل
من الناس» فربانية الإعتصام هي التمسك الصالح بكتاب الله، ثم «وحبل
من الناس» هو ذو بعدين: الثقل الأصغر^(١) وهم الناس المعلمون لكتاب

(١) تفسير البرهان ١ : ٢٠٥ محمد بن ابراهيم النعماني المعروف بابن زينب بسند متصل عن جابر بن -

الله ، والكتلة المؤمنة ككل وهم الناس المتعلمون من الحبلين بجمعية المحاولات والشورآت في ذلك الإعتصام .
فالعصمة الاسلامية عن كل بأس وبؤس فردي وجاهيري مكفولة على ضوء الإعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق ، حيث الحبل في بعديه معصوم ، وجمعية الإعتصام بحبل الله عاصمة ، مهما لم تبلغ هذه العصمة مبلغ العصمة المطلقة للمعصومين ولكنها تبلغ إلى أشرافها حيث تقل الأخطاء في ذلك الاعتصام المشرف .

ذلك « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » « نعمة الله » هنا الوحيدة غير الوهيدة هي الوحدة الإيمانية بألفة القلوب ، فقد تألف العقول والعلوم والقلوب شقاً ، والنص القرآني هنا يعمد إلى مكنن المشاعر - الاصيل - وهو القلب ، تصويراً للقلوب كمحزمة مؤلفة متألفة .

فقد كانوا اعداء متناحرين لا يأمنون لحياة فألف الله بين قلوبهم بنعمة

= عبدالله الانصاري قال وفد على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اهل اليمن فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جاءكم اهل اليمن ييسون بيساً فلما دخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال قوم رقيقة لهم راسخ ايمانهم منهم المنصور يخرج في سبعين ألفاً ينصر خلفي وخلف وصي حمائل سيوفهم المسك فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن وصيك ؟ فقال : هو الذي امركم الله بالاعتصام به فقال عز وجل « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين لنا ما هذا الحبل ؟ فقال هو قول الله « الا بحبل من الله وحبل من الناس » فالحبل من الله كتابه والحبل من الناس وصي فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن وصيك ؟ فقال : هو الذي انزل الله فيه : « ان تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله » فقالوا يا رسول الله وما جنب الله هذا ؟ فقال : هو الذي يقول الله فيه « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً » هو وصي والسبيل إلى من بعدي ...

الوحدة الایمانیة المترابطة فـ : « هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » (٨ : ٦٣) .

وعامل التأليف بين قلوبهم بالله هو حبل الله : قرآن محمد ومحمد القرآن ، فانها يؤلفان بالله بين القلوب الداعية لذكر الله ، الداعية إلى الله ، « فأصبحتم بنعمته إخواناً » في الله ، تاركين كافة المفارقات والمنازعات ^(١) .

فكل وحدة وهيئة زهيدة إلا ما كانت بين القلوب في اعتصام جماهيري بحبل الله ، فلا تنقسم بأي قاصم ، ولا تنقسم او تنقسم بأي قاصم او قاسم .

« واذكروا .. اذ كنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها .. » وشفا حفرة هو أشرافها ، فان شفى الشيء حرقه وطرفه المائل اليه وقد كانوا على شفا حُفَر النيران ، في جهالات وشهوات ولهوات وكل رذالات الحياة ، فليست هذه النار - اذاً - نار الدنيا ، بل هي الأخرى ^(٢) ، فشفاها هي الحياة الدنيا الكافرة ، و« حفرة من النار » هي النار البرزخية ومن وراءها الأخرى ، وليس بين شفاها

(١) المصدر في كتاب كمال الدين ونظام النعمة بسند متصل عن علي (عليه السلام) قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمنا الهداة ام غيرنا ؟ قال : بل منا الهداة الى الله الى يوم القيامة ، بنا استنقذهم الله عز وجل من ضلالة الشرك ، وبنا استنقذهم الله من ضلالة الفتنة ، وبنا يصبحون إخواناً بعد ضلالة الفتنة كما بنا أصبحوا إخواناً بعد ضلالة الشرك وبنا يختم الله كما بنا يفتح الله .

(٢) نور الثقلين ١ : ٢٧٩ في كتاب ثواب الأعمال عن رجل عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : أصبح عدونا على شفا حفرة من النار قد اتها رت به نار جهنم فتعساً لأهل النار مثواهم .

وحفرتها إلا فاصل الموت ، وقد شبه هنا المشفي - بسوء عمله - على دخول النار ، بالمشفي - لزلة قدمه - على الوقوع في النار ، استعارة لطيفة ما الطفها : « أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم » (٩ : ١٠٩) وضمير التانيث في « منها » راجع الى ثالوث : شفا - حفرة - من النار - إذ نجّاهم الله منها كلها ، أو ان « حفرة من النار » نعم النارين ، فالأولى هي العقبات السوء الى الأسوء فالأسوء ، حيث المجتمع المبني على شتات القلوب والأهواء ليس - على أية حال - إلا في نار هي شفا حفرة من نار هي أحر وأشجى ، حتى يسقطوا في هوات النار الأخرى (٣) .

فالحياة اللأيمانية ، بل والايمانية غير المعتصمة جميعاً بحبل الله ، إنها حياة رذيلة على أشراف سقطات في حفر النيران ، اللهم إلا اعتصاماً بحبل الله جميعاً « بحبل من الله وحبل من الناس » وكذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

« فيا لها نعمة ما أعظمها إن يخرجوا منها الى غيرها وبها مصيبة إن لم يؤمنوا بها فيرغبوا عنها (١) ، ولقد أنقذنا الله تعالى من نار الدنيا والآخرة بحبله المتين القرآن المبين والرسول الأمين ، ولعمر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تنزل « محمد » في لفظ التنزيل (٢) مهما كان وارداً في واقع التأويل .

فحياة التكليف غير المعتصمة بحبل الله جميعاً هي « شفا حفرة من النار »

(١) المصدر من كشف المهجة لابن طائوس عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه :

وأما الآية التي هم بها العرب فهو قوله : واذكروا نعمة الله عليكم ... فيا لها ...

(٢) المصدر في روضة الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية ... فانقذكم منها

بمحمد هكذا والله نزل بها جبرئيل (عليه السلام) عن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ١ .

و « شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم » في شطري البرزخ والقيامة .

قول فصل حول حديث الثقلين :

اولية الثقل الاكبر وكونه افضل واكبر واعظم من الثقل الاصغر هي في الكيان ، وأطوليته في الزمان ، والأخيرة باهرة حيث لا افول للقرآن والثقل الاصغر ميتون ف « انك ميت وانهم ميتون » .

واما التفاضل في الكيان فقد يُعنى منه معنيان :

١ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو رأس الزاوية في الثقل الاصغر ، هو قبل هذه العصمة الإلهية عَصَم بعصمة بشرية ، مزودة بهدي رباني من روح القدس ، ثم عصم بعصمة ربانية قمة متصلة بقلبه ومنفصلة بحامل الوحي ، ومن ثم بعصمة وحي القرآن والسنة ، ووحى القرآن دون ريب هو أثقل من كل العَصَم التي تزود بها فانها كمقدمات وتبئات والعصمة القرآنية هي الغاية القصوى .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

إذا فالقرآن هو الثقل الاكبر ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الأصغر ، طالما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بما حوى قلبه القرآن بكل حلقاته وحقوقه ، هو اكبر من احد الثقلين ، إلا ان حديث الثقلين يعني المقارنة بين الكيانين .

٢ ان العصمة الإلهية هي أثقل من العصمة البشرية في كل دور من ادوارها ، فضلاً عن مثلثها ، فهي - اذاً - اكبر منها على أية حال ، ومهما كان مجمع الثقلين افضل من كل منهما ولكن الثقل الاكبر لا ريب انه اطول وادوم .

فلا ملجأ زمن غيبة الثقل الاصغر إلا الثقل الاكبر ، ثم الاصغر يعرف بموافقة الاكبر ، « وانها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » .

فالأصغر لن يفترق عن الأكبر فان عصمته العلمية ليست إلا بالأكبر ،
وبلاغه الرسالي ليس - في الأصل - إلا عن الأكبر ، وسناده في كل قليل وجليل
ليس إلا إلى الأكبر ، وهو يعيش الثقل الأكبر في النشآت الثلاث .

والأكبر لن يفترق عن الأصغر حيث يأمر بالرجوع الى الأصغر واطيعوا
الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، وانه لا يعرف تأويلات ومآخذ أحكامه
إلا الأصغر ، ولا يحكم به عاصماً معصوماً إلا الأصغر ، ولا ينذر به ويذكر
كأكمل ما يرام إلا الأصغر .

فليس يعني عدم افتراق الأكبر عن الأصغر انه - ككل - لا يفهم إلا
بتفسير الأصغر، لانه بيان للناس ، فإنما الأليق لتبيينه وتطبيقه والحكم به ،
واللائق لتأويله هو الأصغر ، وحين لا يكون الثقل الأصغر ثقلًا لو افترق عن
الأكبر فماذا تكون أحوال سائر الأمة المفترقة عن الثقل الأكبر .

إن افتراق الحوزات الإسلامية عن الثقل الأكبر ملموس محسوس ككل ،
ثم المدعوون اتصاهم بالثقل الأصغر خاؤون فانه لا يعرف إلا بالعرض على
الأكبر ، إذا فهم تاركوا الحبلين ، حبل من الله : القرآن ، وحبل من الناس هم
اهل بيت القرآن .

و « ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً » تحكم بضلالتنا إذ تركنا التمسك
بهما إلى مستمسكات أخرى هي ويلات على الأمة الإسلامية السامية .

و « لن يفترقا » ليست لتعني افتراقاً في السلطة الروحية الزمنية حيث يتقص
بزمان الغيبة ، انما هو افتراق وحي الكتاب عن وحي السنة ، فالسنة لا تفترق
عن الكتاب فانها الوحي الفرع الهامش المفسر والمأول للوحي الأصل ، وهي
مستفادة من القرآن ، فلا تنسخه او تخالفه .

والكتاب لا يفترق عن السنة لانه الذي يأمر باتباع السنة وان الرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم) هو المذكر بالقرآن « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

لقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صاحب الحبلين ، فخلف عن الأصغر - وهو نفسه - عترته ، وخلف عن الأكبر - وهو القرآن - نفسه ، إذ لا بديل عنه ، وإنما البديل في غير الأصل الذي يعرضه الموت دون القرآن الذي يجري كجري الشمس .

وإن الذلة مضروبة على كل أمة رسالية « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » فالحبل الأول هو الحبل الرسالي الذي يحمله وحي الله ، والثاني هو الرسولي الذي يحمله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن ثم عترته ، ثم المؤمنون بالرسالة حيث كان « أمرهم شورى بينهم » .

فلا حياة صالحة إيمانية إلا بالاعتصام بالحبلين الربانيين ، ونحن تركناهما إلى حبال متفرقة متشتتة ١ .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

فالاعتصام بغير المعصوم ماثوم ، والاعتصام بالمعصوم بقسمة العُضين ماثوم ، والاعتصام باحد الثقلين دون الآخر ماثوم ، والاعتصام بالثقلين دون جمعية فيه وفي الجماعة المسلمة كما في جمعية حبل الله ، ماثوم ، فانما الاعتصام العاصم المعصوم هو الاعتصام بحبل الله جميعاً دون أي تفرق عنه أو فيه أو بين المعتصمين ، فإن حبل الله يجمع المعتصمين به ولا يفرق ، إذا اعتصموا به كما يحق ، تحرياً عن مرادات الله ، دون تحميل ولا تدجيل .

لقد روى حديث الثقلين عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ستة مواضع : يوم عرفه على ناقته القصوى وفي مسجد خيف وفي خطبة يوم الغدير في حجة الوداع ويوم قبض في خطبته على المنبر وفي بيته عند وفاته ، وعند

رجوعه عن سفر له، وبإلها من مواضع هامة عامة تضم الغفير من المسلمين ! ^(١) .

ومن الفاظه : عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : اني اوشك ان ادعى فاجيب واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإن

(١) كما في المناقب في كتاب سليم بن قيس قال علي (عليه السلام) ان الذي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم عرفة على ناقته القصوى وفي مسجد خيف ويوم الغدير ويوم قبض في خطبته على المنبر ايها الناس اني تركت فيكم الثقلين ان تفضلوا ما تمسكتم بهما الاكبر منها كتاب الله والأصغر عترتي أهل بيتي وان اللطيف الخبير عهد الي انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كهاتين وأشار بالسبابتين . . . وفي ملحقات الاحقاق ٢٥٤ ومن الفاظ الثقلين ، رواء زيد بن ارقم قال : اقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم حجة الوداع فقال : اني فرطكم على الحوض وانكم تبغي وانكم توشكون ان تردوا علي الحوض فاسألکم عن ثقلی كيف خلعتوني فيها فقام رجل من المهاجرين فقال : ما الثقلان ؟ قال : الاكبر منها كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، والأصغر عترتي فمن استقبل قبلي واجاب دعوتي فليستوص لهم خيراً او كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فلا تقتلوهم ولا تقهروهم ولا تقصروا عنهم واني سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني ان يردوا علي الحوض كهاتين وأشار بالمسبحتين ، ناصرها الي ناصر وخاذلها الي خاذل ووليها الي والي عدوها الي عدو . (ملحقات ٩ : ٣٢٧) .

واخرج الطبراني عن زيد بن ارقم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني لكم قَرط وانكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل : وما الثقلان يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الاكبر كتاب الله عز وجل طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا ولا تفضلوا والأصغر عترتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض وسألت لهما ذلك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ولا تعلموهما فانها اعلم منكم .

وفي حديث جابر قال اخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد علي والفضل بن عباس في مرض وفاته فاعتمد عليها حتى جلس على المنبر فقال : ايها الناس قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تفضلوا كتاب الله .

اللطيف الخبير أخبرني أنها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

ومنها ما رواه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه الذي توفي فيه ونحن في صلاة الغداة فقال : اني تركت فيكم كتاب الله عز وجل وسنتي فاستنطقوا القرآن بسنتي فانه لن تعمى ابصاركم ولن تزل اقدامكم ولن تقصر ايديكم ما أخذتم بهما ثم قال : اوصيكم بهذين خيراً .

ولقد بلغت الأهمية الكبرى الرسالية في حديث الثقلين لحد يكرره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في تلكم المجمع الستة أخيرتها في خطبته يوم وفاته ثم في بيته ، ونحن نعلم انه لم يكتب في شيء من مهام الدين إلا بعض كتاباته إلى الامراء والملوك دعوة إلى الاسلام ، ثم نراه يطلب ان يكتب عند وفاته كما تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لما حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فقال عمر : إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت فاختصموا منهم من يقول : قربوا يكتب لكم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « قوموا »^(١) .

(١) أخرجه البخاري في باب قول المريض : قوموا عني ، كتاب المرضى (٤ : ٥) وفي كتاب العلم (١ : ٢٢) وبعض الاجزاء الاخر من صحيحه وأخرجه مسلم في آخر الوصايا من صحيحه ورواه احمد من حديث ابن عباس في مسنده وكذلك سائر اصحاب السنن وسند البخاري هكذا : الى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس ، وروى البخاري في باب جوائز الوفد من =

ومن حديث امير المؤمنين علي (عليه السلام) قال : لما ثقل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه والبيت غاص بمن فيه قال : ادعولي الحسن والحسين فجاءا فجعل يلثمهما حتى أغمي عليه فجعل علي (عليه السلام) يرفعهما عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ففتح عينيه وقال : دعهما يتمتما مني واتمتع منهما فستصيبهما بعدي أثره ثم قال : أيها الناس قد خلفت فيكم كتاب الله وسنتي وعترتي أهل بيتي فالمضيع لكتاب الله تعالى كالمضيع لسنتي والمضيع لسنتي كالمضيع لعترتي أما إن ذلك لن يفترق حتى اللقاء على الخوض ^(١) .

ومن حديث فاطمة الزهراء (عليها السلام) قالت سمعت أبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه الذي قبض فيه يقول : - وقد امتلأت الحجرة من أصحابه - أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً وقد قدمت إليكم القول معذرة اليكم ألا إني غلظ فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي ثم أخذ بيد علي فقال : هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الخوض فأسألكم ما تخلفوني فيهما ^(٢) .

= كتاب الجهاد والسير من صحيحه (٢ : ٧) قال حدثنا قبيصة ابن عيينة عن سلمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمه الخصباء فقال : اشتد برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعه يوم الخميس فقال : اتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا : هجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (صلى الله عليه وآله وسلم) دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه .

(١) المصدر ٣٥٢ .

(٢) المصدر ٣٥٤ .

ومن حديث ابن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رجع من سفر له وهو متغير اللون فخطب خطبة بليغة وهو يبكي ثم قال : ايها الناس قد خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي وارومتي ولن يفترقا حتى يرثي علي الحوض ألاواني أنتظرهما ألاواني أسألكم يوم القيامة في ذلك عند الحوض ألا وأنه سترد علي يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الامة راية سوداء فأقول : من أنتم فينسون ذكرني فيقولون نحن اهل التوحيد من العرب فأقول : أنا محمد نبي العرب والعجم فيقولون : نحن من أمتك فأقول : كيف خلفتموني في عترتي وكتاب ربي فيقولون : أما الكتاب فضيعنا وأما عترتك فحرصنا على أن نبيدهم فأولي عنهم فيصдرون عطاشاً قد اسودت وجوههم ، ثم ترد راية أخرى أشد سواداً من الأولى فأقول لهم : من أنتم ؟ فيقولون كالقول الأول نحن من اهل التوحيد فإذا ذكرت إسمي قالوا : نحن من أمتك فأقول : كيف خلفتموني في الثقلين كتاب الله وعترتي ؟ فيقولون : أما الكتاب فخالفناه ، وأما العترة فخذلنا ومزقناهم كل ممزق فأقول لهم : إليكم عني فيصдرون عطاشاً مسودة وجوههم ، ثم ترد راية أخرى تلمع نوراً فأقول : من أنتم ؟ فيقولون : نحن اهل كلمة التوحيد والتقوى نحن أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن بقية اهل الحق حملنا كتاب ربنا وأحللنا حلاله وحرمنا حرامه وأحببنا ذرية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فنصرناهم من كل ما نصرنا به انفسنا وقاتلنا معهم وقتلنا من ناواهم فأقول لهم : ابشروا فانا نبيكم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولو كنتم كما وصفتم ثم اسقهم من حوض فيصдرون رواء ألا وان جبرئيل اخبرني بان امي تقتل ولدي الحسين بارض كرب وبلاء الا ولعنة الله على ما قاتله وخاذله ابد الدهر .

ومن حديث الحسن بن علي (عليهما السلام) في خطبة له قال خطب جدي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً فقال بعد ما حمد الله واثني عليه ،

معاشر الناس إني ادعى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيبي إن تمسكتم بهما لن تضلوا وإني لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فتعلموا منهم ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ولا تخلوا الأرض منهم ولو خلت لانساخت بأهلها ثم قال : اللهم إني لا تخلي الأرض من حجة علي خلقك لئلا تبطل حججتك ولا تضل أوليائك بعد إذ هديتهم أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً عند الله عز وجل ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة في عقبي وعقب عقبي وفي زرع وفي زرع زرعني إلى يوم القيامة فاستجيب لي ، (١)

ولان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة من آل الرسول هم مجمع الثقلين فهم - اذاً - افضل من احدهما وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعلي بن ابي طالب (عليه السلام) افضل لكم من كتاب الله لانه مترجم لكم عن كتاب الله » (٢)

ذلك ولكن الرسول وعترته دون القرآن هم دون القرآن كما القرآن دونهم هو فوقهم .

هذا الثقلان هما الثقلان المعتصمين بهما جميعاً عن كل خفة واستخفاف فكما « المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف » كذلك - وبأحرى - الامة المعتصمة بجبل الله جميعاً ، وهو الثقلان ، لا يستخفها مستخف .

(١) المصدر ٣٥٧ .

(٢) تفسير البرهان ١ : ٢٨ .

وكلما كان الإعتصام أقوم كان ثقل الأمة أعصم ، وإلى القمة العليا في زمن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .
فإنه من الثقلين ، يحثم الثقل الأكبر وهو من الأصغر ، فلا تبقى - إذا - أرض إلا نودي فيها بالتوحيد والرسالة الإسلامية .

إن آية الإعتصام هي القمة في محاور الأمر المؤكد في هذه الآيات التي تنبئ قوة المؤمنين ، فتقوى الله حق تقاته غير ميسورة إلا بذلك الإعتصام ، وحين تنقلت أفراد من المؤمنين أو جماعات عن ذلك الإعتصام فهنا أمر وقائي للحفاظ على ذلك الإعتصام الذي يحتضن حق تقاة الله ، وقد تكفلته هنا آيتان فرضاً لمثلث الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بفصل آيات خمس فيها تنديدات شديدة بالمسودة وجوهم المتخلفين عن حبل الله .

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٤)

« منكم أمة » في تكوين هذه الأمة دليل الكفاية في ذلك الفرض الجماهيري وقاية للامة ككل عن كل تشرد وتخلف ، وحماية لتحقيق الواجبات الفردية والجماعية ، حيث التخلف هو طبيعة الحال في أية أمة من الأمم ، فواجب الوقاية لهم يفرض عليهم تكوين أمة داعية إلى الخير أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر « وأولئك » الأركان داعين ومدعوين « هم المفلحون » .

وخطاب « ولتكن » هو موجه إلى كافة المؤمنين ، دون خصوص الداعين لمكان « منكم » فعلى المؤمنين ككل تكوين هذه الأمة من أنفسهم ، انتخاباً لنبذة صالحة إن كانت كائنة ، أم تكويناً لها - إن لم تكن - قدر الكفاية لواجب الدعوة والأمر والنهي .

وقد تعني « من » هنا التبيين إلى جانب التبعيض ، تبعيضاً بالنسبة

للمسلمين انفسهم ، وتبييناً بالنسبة لكافة المكلفين ، ان يكون المؤمنون انفسهم ككلٍ دعاة الناس إلى الخير ثم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر .

فواجب الدعوة والأمر والنهي في الوسط الإسلامي كفاثي ، وفي الوسط العالمي عيني إذ لا كفاية في دعوة البعض ، ولا أقل من أن يكونوا دعاة الناس بغير ألسنتهم ، وأمثولات الحق بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم .

وواجب التكوين ذو بعدين اثنين ان يصنع كل نفسه لصالح الدعوة ويصنع آخرين لها أو يدعوهم لذلك الصالح الجماهيري ، توامياً بينهم بذلك الحق الحقيقي بالتواصي كراس الزاوية في التواصي الإيماني السامي .

و « الخير » المدعو إليه هنا هو خير الإيمان والتقوى والاسلام المتبينة خير الإعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، والجامع لها على حد قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « إتباع القرآن وسنتي » (١) الذي يتوحد في الإعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق ، فكما حبل الله واحد في أصله ، كذلك الخير ، فأصل الخير هو حبل الله كما ان حبل الله هو الخير .

ثم الخير هنا مبتدئ بالسلب وهو ترك ما يناحر الإعتصام بحبل الله ، ومختتم بالايجاب وهو نفس الإعتصام ، وهكذا يكون كل خير كما ومبدء كل خير هو المركب من السلب والايجاب : « لا إله إلا الله » .

إذا ف « الخير » تعم خيراً ثقافياً - عقيدياً - خلقياً وعملياً ، ايجاباً للواجبات وسلباً للمحرمات ، وهذا هو رأس الزاوية في « الحافظين لحدود الله » ثم يأتي

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٢ - اخرج ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير . . » ثم قال : الخير اتباع القرآن وسنتي .

دور الأمر والنهي بشروطها المسرودة في الكتاب والسنة ، فلا أمر ولا نهي قبل الدعوة الصالحة إلى الخير ، فـ « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (١٦ : ٢٥) .

وأيم الله إن « هذه لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن تابعهم يدعون إلى الخير ويأمرون وينهون عن المنكر »^(١) دون هؤلاء الذين يجب أن يُدعوا إلى الخير ويؤمروا وينهوا .

ولقد أمضينا القول الفصل حول هذين العمادين الإسلاميين على ضوء قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر » و « لم تقولون ما لا تفعلون » واضرابهما فلا نعيد^(٢) .

والجدير بالذكر هنا ضرورة الطاقة القوية الصامدة في هذه الأمة الداعية الأمرة الناهية ، ولا سيما الآخرين ، بحيث إن القضية الطبيعية للأمر والنهي هي السلطة الصالحة لتنفيذهما قدر المقدور .

لا أقول إنها هي السلطة الزمنية ، فقليل هؤلاء المرسلون والذين معهم لهم تلك السلطة ، وواجب الدعوة والأمر والنهي كان عليهم لزماً أولاً .

إنما أقول ، هي الطاقة النفسية والثقافية أماهيه من طاقات تسمح لتلك الدعوة الصارمة والأمر والنهي من وراءها .

فهذه الزوايا الثلاث المحملة على تلك الأمة ليست باليسيرة الهينة ، حيث

(١) نور الثقلين في تفسير علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية : فهذه ..

(٢) الفرقان ١ : ٣٧٣ - ٣٨٥ و ٢٨ : ٢٩٨ - ٣٠١ .

تصطدم بطبيعة الحال بشهوات الناس ونزواتهم ومصالحياتهم ، بغرورهم وكبرياتهم ونخوتهم ، وفيهم جبارون غاشمون ، والمهابطون الكارهون لكل صعود روحي او عملي ، وفيهم المسترخي المهمل الكاره لكل جد واشتداد ، فلتزود تلك الأمة بكل قوة وسداد ، وهزم واجتهاد واستعداد لمواجهة المكاره المضنية والمعارك الدموية « وأولئك هم المفلحون » .

وتعقيبية الآية هذه الواصفة لهذه الامة الداعية بالإفلاح ، هي من عساكر الدلائل على اشتراط المعرفة بالخير وفعل المعروف وترك المنكر للداعي الأمر الناهي ، فان فاقدها أم فاقدها ليس من المفلحين ، بل هو من الفالجين المفلجين ! .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٥)

« لا تكونوا كالذين تفرقوا عن حبل الله ، وعن الاجتماع في الاعتصام به « واختلفوا » فيما بينهم عن جمعية الإعتصام ، اعتصاماً بحبل وتركاً لآخر ، ام تبعضاً في كل حبل كتاباً وسنة ، وذلك السقوط الجارف الخارف « من بعد ما جاءهم البينات » الداعية إلى الوحدة الإيمانية الجماهيرية، وأية بيّنة أبين من بيّنة الوحي الصارم وهو حبل الله المعتصم به لمن أراد الإعتصام .

« وأولئك » الحماقى البعاد « لهم عذاب عظيم » في الأولى والأخرى ، إذ يعيشون شفا حفرة من النار... أجل وإن الاختلاف في المذاهب هو نتيجة طبيعية للتفرق عن حبل الله ، أن يتخذ كل لنفسه وذويه مذهباً يعتبره كأنه الإسلام كله وما سواه كفر ، وكما ابتليت الأمة الإسلامية كالذين من قبلهم بذلك فاختلفوا بعد ما تفرقوا أيادي سبا ، وفصلت بينهم شق المذاهب واستعبدتهم السلطات الإستعمارية ، فأصبحت الأمة الإسلامية على سعتها وسيادتها شذر مذر أيادي

سبا ! وقد تواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنباءه عن افتراق الأمة الإسلامية إلى ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية وهي الجماعة^(١) تعني المعتصمين بحبل الله جميعاً، دون أية جماعة فإن كل فرقة جماعة لا محالة ، فالفرقة المعتصمة بحبل الله في ثقله هي الفرقة الناجية ، وغيرها من الفرق غير ناجية ! مهما كانت سنة أو شيعة ، فـ ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً (٤ : ١٢٣) .

وفي أخرى ان الواحدة ما انا عليه اليوم واصحابي^(٢) وهم الذين معه في

حل هذه الرسالة السامية بحذافيرها .

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٢ - أخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة ويخرج في امتي اقوام تتجارى تلك الأهواء بهم كما يتجارى الطلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، وفيه عن انس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في لفظ آخر قال : الجماعة الجماعة

(٢) المصدر اخرج الحاكم عن عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يأتي على امتي ما أتى على بني اسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة قليل له ما الواحدة ؟ قال : ما انا عليه اليوم واصحابي .

في ملحقات احقاق الحق (٧ : ١٨٤) الشيخ حسين الصيمري في الالتزام قال روى الحافظ أحمد بن موسى الشيرازي - الى ان قال - : روى عن انس بن مالك قالوا كنا جلوساً عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . . فقال : يا ابا الحسن إن أمة موسى افتقرت على إحدى وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وإن أمة عيسى افتقرت على اثنتين وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما الناجية ؟ قال : المستمسك بما أنت وشيعتك واصحابك . . .

ومن أخرجه علي بن عبدالعال الكركي في نفحات اللاهوت (٨٦) والتونسي الشهير بالكافي في السيف اليماني المسلول (١٦٩) .

وفيه (١٤ : ٥٩٦) الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٦٨) اخبرنا محمد بن علي بن محمد =

وترى التفرق والإختلاف في الفروع الأحكامية لاختلاف في تفهم البيئات، ولأن المجتهدين ليسوا بمعصومين ، هل هو داخل في تهديد العذاب الأليم ؟ .
كلّا ، وإنما هو التفرق عن حبل الله والإختلاف فيه أو عنه بعد البيئة علماً وعتواً وتقصيراً ، وأما القصور بعد صالح الجهد والاجتهاد - جمعاً بين جمعية الإعتصام التي تضمن شورى بينهم - فلا ، بل هو مشكور محبور مهما كان للمخطيء غير المقصر أجر واحد وللمصيب أجران .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٠٦) .

هنا اسوداد خاص للوجوه الخصوص ، هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم أهل كتاب أو مسلمين حيث تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البيئات ، وهي ضمن سائر الوجوه الكافرة ، ومن العُجاب أن كل مذهب يذهب الى ان غيره من المسودة وجوهم باختلاق روايات وتكلف تأويلات^(١) تفرقاً في ذلك

مركز تحقيق كتاب تبيين علوم إسلامي

= المقرئ ان ابي قال : ... عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال لي سلمان الفارسي ما طلعت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ابا الحسن وانا معه إلا ضرب بين كفي وقال : يا سلمان هذا وحربه هم المفلحون .

وفي لفظ آخر عن سلمان الخير فقال يا ابا الحسن قلما اقبلت انت وانا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا قال : يا سلمان هذا وحزبه هم المفلحون يوم القيامة .

ورواه عن الحسن حسين بن الحكم الجري وأبو القاسم سهل بن محمد بن عبدالله مثله .

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٢ - اخرج الخطيب في رواة مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي (صلى الله

عليه وآله وسلم) في الآية قال : تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدع ، وفيه اخرج ابو

نصر السنجري في الامانة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه

الآية قال : تبيض وجوه أهل الجماعات والسنة وتسود وجوه أهل البدع والأهواء .

اقول : ان كان هذا قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو لا يقول الا عن الله ، فالجماعة =

واختلافاً بعدما جاءتهم البينات ، وإن المسودة وجوههم هم المتخلفون عن الإعتصام بحبل الله جميعاً ، ومن المجمع عليه ضرورياً بين كافة المسلمين أن علياً (عليه السلام) من المبيضة وجوههم ، فالذين معه هم من هؤلاء الوجوه النيرة ، فسواهم سواهم ، وعلى الجملة فهذه الوجوه المسودة هي من ضمن سائر الوجوه الكالحة : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » (٣٩ : ٦٠) « وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » (٨٠ : ٤٠) « وجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة » (٧٥ : ٢٤) .

ثم هنا « فذوقوا العذاب » يعم خالده وسواه ، فان الضالين من المسلمين ليسوا على سواء ، فمنهم من يذوق العذاب ثم ينجو ، وفي ذوق العذاب دون دخوله تلميح مليح أنهم لا يستحقون دخول النار ولا خلوده ، إلا من يستحقه بارتداد وسواه من شاكلة الكفر بعد الايمان .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٠٧) .

فالخلود في رحمة الله هو الأبدية اللانهاية فإنها عطاء غير مجذوذ قضية الفضل في واسعة الرحمة ، وذوق عذاب الله مقدر بقدر الإستحقاق فإنه جزاء وفاق قضية العدل فإنه مضيق ، واللانهاية في العذاب ظلم فإنها جزاء غير وفاق . هكذا ينبض المشهد بحوار مع المعتصمين بحبل الله والكفار في دار

= والجماعات هم المعتصمون بحبل الله جميعاً ، واهل السنة هم المعتصمون بسنة الرسول على هامش كتاب الله ، ونرى قسماً ممن يسمون باهل السنة تاركين للكتاب والسنة وكما نرى قسماً ممن يسمون بالشيعه امثالهم ، فالمعتصمون جميعاً بالكتاب والسنة جميعاً هم من الذين ابيضت وجوههم .

اترى القائل هذا كتاب الله حسبنا رخصاً لوصية رسول الله وهي اسنى السنة وأسنها ، هو من الذين ابيضت وجوههم ، والمعتصمين بتلك الوصية وسائر السنة التي حملها العترة الطاهرة هم من الذين

القرار ، معروضة عليهم في دار القرار ، نبهة لهم عن غفوتهم ، وادركاً بعد سهوتهم و :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٨) .

« تلك » البعيدة المدى ، القرينة الهدى « آيات الله » رسولية ورسالية « تتلوها عليك بالحق » - « آيات بالحق - تتلوها بالحق - عليك حالكونك بالحق ، بسبب الحق ومصدره ، مصاحبة للحق ، لغاية الحق ، بياناً للحق ، « وما الله يريد ظُلماً للعباد » بل هم انفسهم يظلمون ، وكما في حديث قدسي « خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم » (١) .

فهـ « تلك » المسائر والمصائر ، تلك الحقائق البينة الصادرة من رب العزة غير السادرة ، « تلك » هي « آيات الله » دون من سواه ، دالة بأنفسها انها ربانية المصدر والصدور ، « تتلوها عليك » يا حامل الرسالة الأخيرة « بالحق » الثابت الحقيق بالبقاء دون نسخ ولا تجديف او تحريف « وما الله يريد ظُلماً بالعباد » وهو القوي العزيز ، فلأنما يحتاج إلى الظلم الضعيف ! .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (١٠٩) .

وترى ماذا يعني رجوع الامور إلى الله ، وهي في علمه وسلطانه ، غير خارجة عنها ما وجدت ؟ إنه تعالى ملكنا في دار التكليف والإمتحان أموراً نحن فيها مستخلفون ليلبونا أينما أحسن عملاً، ثم عند تقضي هذه الدار وانتقال هذه الحال ترجع أمورنا المخيرة لنا الى الله مسيرة علينا، وكما كنا أجنة في بطون أمهاتنا دون حول ولا قوة إلا بالله .

إن الامور المسيرة هي راجعة الى الله على أية حال حيث لا فاعل لها إلا الله ، فانما الامور المخيرة هي الراجعة الى الله في يوم الله ، حيث الله يحاسبها

(١) تفسير الفخر الرازي ٨ : ١٧٢ قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة سبحانه : ...

ويجازي عليها ، وقد كان قبل يعلم مصادرها ومسايرها ومصائرهما ، وإلى ما ترجع أوائلها وأواخرها ، فقد رجعت الآن إلى ما كان يعلم الله فاتقوه ان توافوه بمعاصيكم ومآسيكم .

كما وان ناساً في هذه الأدنى ربما يخيل اليهم زوراً وغروراً أنهم يملكون لأنفسهم أم ولسواهم نفعاً أو ضرراً دون تخويل من الله أو تمويل ، إضافة للمختص باله إلى أنفسهم ، خلعاً لبعض صفاته عنه إلى خلقه ، فإذا انحسر قناع الشك، وانكشف غطاء الرأس، واضطر الناس إلى معارف وانقطع التكليف وتقوضت الدنيا بحذاقيرها، علم الجميع ألا مؤثر في الكون إلا الله « وإلى الله ترجع الامور » على أية حال في الأولى والأخرى مهما اختلفتا تحييراً وتسييراً .

فهنا الرجوع ليس إلا بالنسبة لمعرفة الغافلين ، وليس حقيقة الرجوع لأنها كائنة على أية حال .

ذلك ا وأصل الرجوع هو الإنعطاف والإنقلاب بشيء ، لا أنه كان عندك ففارقك تماماً أو بعضاً ، وإنما الانعطاف بعد الإنحراف، والإنقلاب بعد الانغلاب ، فالسابقون هم راجعون بامورهم إلى الله إذ ما يشاءون إلا أن يشاء الله وكما يروى عن علي (عليه السلام) : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠)

أتري من هم المعنيون هنا بـ « كُنتُمْ » ؟ أهم أمة الاسلام كلهم ومنهم - وهم اكثرهم - فسقة يُدْعَوْنَ إلى الخير ويؤْمَرُونَ وينهَوْنَ وقد لا يَأْمُرُونَ او ينتهَوْنَ ا ثم ولا تختص الفريضة بهذه الأمة ، بل تخلفان على كل الامم الرسالية حفاظاً عليها : « ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون » ام هم

الأمة الأمرة الناهية ، وهم عدول الأمة الإسلامية وربانيوها ، المتوفرة فيهم شروطات الأمر والنهي ، حيث الخطاب يخص السابق ذكرهم في « ولتكن منكم أمة » ؟ فكذلك الأمر في ثاني الأمرين وهو أعمية ذلك الفرض الرسالي دون اختصاص بالدعاة المسلمين ! .

فهم الأمة الوسط بين الرسول والأمة ، التي وجبت لها دعوة إبراهيم (عليه السلام) (١) : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (٢ : ١٢٨) .

ذلك ! مهما شملت هذه الأمة في ذيلها رباني الأمة الإسلامية ، فهما - بين كل الأمم الداعية في التاريخ الرسالي - خير أمة أخرجت للناس وهم كل المرسل إليهم ، أم هم المسلمون الأولون إذ كانوا خير أمة أمة ناهية مؤمنة ؟ ومتى كانوا هم كلهم كذلك ثم تحولوا عن ذلك ! أي العهد المكي ؟ ولم يكن هناك أي مجال لأمر أو نهي اللهم إلا أمر الحفاظ على أنفسهم وعقائدهم ! أم في العهد المدني ؟ والآية نازلة فيه ! أم في بدايته ؟ والنهاية كانت أحسن من البداية وقد تمركزت دولة الإسلام ! .

ثم وهم بداية ونهاية في ذلك العهد لم يكن الأمور منهم والناهون إلا الأقلين ، وكما الحالة نفس الحالة في كل الأدوار الإسلامية ! .

هنا « أمة » هم الأمة الأمرة الناهية ، فالأمرون الناهون من المسلمين هم خير الدعات في تاريخ الدعوات (٢) على مدار الزمن الرسالي ، لا سيما بمن

(١) نور الثقلين ١ : ٣٨٢ في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله : « كتتم خير أمة » قال : يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم (عليه السلام) فهم الأمة التي بعث الله فيها ومنها واليها وهم الأمة الوسطى ، وفي تفسير البرهان (١ : ٢٠٧) القمي في (٢) الدر المنثور أخرج جماعة عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الآية قال : انكم تسمون سبعين أمة انتم خيرها وأكرمها على الله .

فيهم من السلسلة العليا الرسولية والرسالية محمد وعترته المعصومون (عليهم السلام)^(١)
 صحيح أن الأمة الإسلامية هي خير الأمم رسولياً ورسالياً لإسلامها
 السليم ، ولكنهم ليسوا - ككل - خير الأمم ، وإنما هو مبدئياً بارز في دعائهم إلى
 الله ، وخيرهم - كما هم خير الدعاة - هم الدعاة المعصومون (عليهم السلام) .
 فالخطاب هنا يشمل مثلث الدعاة إلى الله في هذه الأمة ، والمعصومون
 منهم هم رأس الزاوية ، ثم الربانيون ، ومن ثم سائر الأمرين - من الأمة -
 والناهين .

إذاً فهو خطاب يخلق على كل الأدوار الرسالية الإسلامية منذ الرسول
 (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يوم الدين ، فهم أولاء الثلاثة هم « خير أمة »
 أمرة ناهية على مدار الزمن الرسالي بكل خيوطه وخطوطه .
 « أخرجت » اصطفاً بين الكل « للناس » كل الناس ، فهم كل من
 سواهم من سائر المكلفين مسلمين وكافرين وسواهم .

وقد تلمح « كنتم » الماضية ، دون « انتم »^(٢) الطليقة عن أي زمان
 خاص ، أن الميزة البارزة في دعاة هذه الأمة ماضية في بشارات من كتابات

(١) نور الثقلين رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية : فهذه الآية لمحمد (صلى
 الله عليه وآله وسلم) وآله ومن تابعهم يدعون . . .

وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر (عليهما السلام) : كنتم خير أمة . . . قال :
 أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٨٢ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وقرأ الباقر « انتم خير أمة » بالالف نزل
 بها وهم الأوصياء من ولده

أقول : « انتم » مرفوضة لمخالفتها نص الكتاب « كنتم » .

الوحي ، وكما نراها فيها ^(١) (١) كما هي ماضية في علم الله ، فلا تخالفوه ، وحققوه بأعمالكم ليكون أكد لحجتكم على اعدائكم تحقيقاً حقيقاً لتلكم البشارات ، وإلا فقد يجد الطاعن منهم فيكم مطعناً والغامر مغمراً .

إذاً فلا تعني « كنتم » هنا إلا العلية من هذه الأمة دون الدنية او الوسيطة البسيطة ، أنهم كانوا قبلئذ « خير أمة » ثم غيروا منذ الخطاب ! .

إذاً فهي ماضية في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة والذين معهم طول الزمن دعاءً إلى الله حتى القيامة الكبرى .

ومما يبرهن بقاء هذه الكينونة المشرفة الماضية واقع الداعية الإسلامية من رباني الأمة مهما قلوا ، كما و « تأمرون وتنهون » في مضارعتها دليل استمرارية هذه الخيرية بالخيرين ، فـ « كنتم .. تأمرون .. » ماض بعيد مستمر مع الزمن الرسالي الاسلامي دونما انقطاع مهما لم تكن فيهم الكفائة بتقصير من قصر .

(١) ففي سفر التثنية ١٧ : ٢٠ يقول ما ترجمته الحرفية كالتالية : « وإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها انا اباركه كثيراً وانمي واثمره كثيراً وارفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر اماماً يلدهم (إسماعيل) واجعله امة كبيرة .

ويعبر داود (عليه السلام) عن دعاء هذه الأمة بالاصفياء ، كما في مزمور (١٤٩ : ١ و ٦ - ٩) من الزبور هَلَلُوا . رَنَّمُوا لِلرَّبِّ ترنيماً جديداً ، اقيموا تسيحه في مجمع الإصفياء ، يبتهج الإصفياء في المجد يرتمون على أسرتهم . تعظيم الله في افواههم وبأيديهم سيف ذو حدين . لاجراء الانتقام على الامم والتأديب على الشعوب . لا يثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكيول من حديد ليمضوا عليهم القضاء المكتوب . هذا فخر يكون لجميع أصفياء هَلَلُوا .

وفيه ٤٥ : ١٨ يكون بنوك عوضاً من آباءك تقيمهم رؤساء على جميع اهل الأرض ، ساذكر اسمك في كل جيل فجيل . لذلك يعترف لك الشعوب .

وفي « نبوت هَيْلَد » : وحي الطفل : ستأتي امة تززع العالم وتحدث خرابات واطفآت بيد ابن الأمة (راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية) .

وصحيح ان الدعات المعصومين (عليهم السلام) هم خير ائمة (١)
ولكن لفظ الآية « خير أمة » تعني خير الأمم الداعية الأمر الناهية ، فهم في
التزليل « خير أمة » وفي التأويل « خير أئمة » كقادة لهؤلاء الأكارم .

ولقد تكفي آية الفتح بيانا لهم وتعريفاً بهم : « ... والذين معه أشداء
على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً
سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل
كزرع اخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم
الكفار وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة واجراً عظيماً » (٢)

ف اختلاق « أنتم خير أمة » دلالة على ثبوت هذه المواصفة لهم دون
تقصير قضية المضي في « كنتم » ليس إلا لسوء الفهم وقلة الحزم .

وما اجهله في تفهم معاني القرآن من يتلذذ باختلاق امثال هذه المختلقات

(١) من مثلهم في التوراة ما اخرجناه من البشارات ، ومن مثلهم في الانجيل : « في ابناء الملكوت
حبات الخنطة التي تعطي مائة ضعف وفيهم اولاد إبليس » (متى ١٣ : ٢٤ - ٣٠ و ٣ : ٤٧ - ٥
و ٢٢ : ١٠) « ابناء الملكوت هم ملح الأرض ويقدر ما يحتاج الطعام الى الملح فكذلك كل العالم
وجميع اقوام كسرة الأرض يفتقرون الى ابناء ملكوت الله » (متى ٥ : ١٤ - ١٦) راجع
ص ١٢٦ - ١٢٧ رسول الاسلام .

(٢) المصدر في تفسير القمي بسند متصل عن ابن سنان عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال قرأت على
أبي عبدالله (عليه السلام) « كنتم خير أمة » فقال أبو عبدالله (عليه السلام) خير أمة تقتلون أمير
المؤمنين والحسن والحسين ابني علي (عليهم السلام) ؟ فقال القاريء جعلت فداك كيف نزلت ؟
فقال : كنتم خير أئمة أخرجت للناس ، الا ترى مدح الله لهم « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله » ؟

وفيه من تفسير العياشي أبو بصير عنه (عليه السلام) قال : انما انزلت هذه الآية على محمد (صلى =

الزور ، تزيفاً لموقف القرآن « وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » ١ .

فه « أخرجت للناس » هو الإخراج التصفوي من كل الناس المرسل اليهم على مدار الزمن الرسالي ، أخرجهم الله إلى الوجود في آخر الزمن بين من من الدعاة على ضوء هذه الرسالة السامية الأخيرة ، فعليهم - اذاً - دعوة الناس جميعاً إلى الخير ، سواء ناس الإسلام ومن سواهم من الناس ، حملاً لحمل الرسالة الإسلامية بكل أعباءها الثقيلة إلى مشارق الأرض ومغاربها كافضل ما يرام ، حيث الدعوة في مادتها ومديتها ، في عِدَّتْها وعُدَّتْها شاملة كاملة .

وخير أدوارها المحلقة على كافة المكلفين هو دور القائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وعلى الأمة الإسلامية على مدار الزمن وقبل آخر الزمن تحقيق هذه الفضيلة الكبرى قدر المستطاع والإمكانية ، تخلصاً لأنفسهم عن حكم الطواغيت وتعبيداً لطريق المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .

والمواصفات الثلاث لهم : « تأمرون بالمعروف - وتنهون عن المنكر - وتؤمنون بالله » في كونهم خير أمة، تقتضي أنهم في القمة المرموقة من هذه الثلاث ، فإن أصولها مشتركة بين الأمم كلها ، وكما ان « كنتم تأمرون » تضرب الى اعماق الماضي الرسالي بشاره، كذلك استمرارية استقبلته واقعاً مهما تخلف عن واجبهم متخلفون ، فانهم لا يُعنون من « كنتم » ولا « تأمرون » .

= الله عليه وآله وسلم) فيه وفي الأوصياء خاصة فقال : كنتم خير أمة اخرجت للناس ... هكذا

والله نزل بها جبرئيل وما عني بها إلا محمداً وأوصيائه صلوات الله عليهم .

وكما ان الدعاة المعصومين من هذه الأمة هم خير أمة أخرجت للناس ،
فليكن كذلك من يخلفهم من الربانيين المسلمين ، ثم المسلمون ككل .
و « اخرجت » مجهولة لتشمل الإخراج الرباني أمراً منه في « ولتكن »
وانتصاباً للقمة العليا وهم المعصومون في الرسل والرسالات ، وانتخاباً من الأمة
هذه الأمة الصالحة للدعوة والامر والنهي .

فما لا بد منه في كافة الأمم الرسالية لإخراج أمة منهم لهذه المسئولية الكبرى
التي هي استمرارية للرسالات حيث تعنيهم - فيما تعني - « الذين يبلغون
رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » .

فكما الرسل والائمة المعصومون هم الأمة العليا في حمل مسئوليات
الرسالات كأصول فيها ، والله هو المكون لهم والمنتصب إياهم ، كذلك سائر
الدعات الى الله ، الأمرين الناهين ، يجب تكوينهم في كل أمة ، وذلك على
عوائق الأمم كلهم ، أن يكونوا هؤلاء الدعاة الذين هم خلفاء الرسل وربانيوا
الأمم .

ف « كنتم خير أمة » تعني دعاة الاسلام الأمرين الناهين ، انهم « خير أمة
اخرجت للناس » توحيداً للأمة الداعية الأمرة الناهية على مدار الرسالات كما
الرسل واحدة وائمهم أمة واحدة في أصل الدعوة مصدراً ومسيراً ومصيراً مهما
اختلفت شكيلات من فروع لهم شرعية .

فكما « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » على وحدتهم ، كذلك
« أمة » الدعوة بعد الرسل ، وكما أن خاتم الرسل هو خير الرسل ، كذلك
الدعاة - معه وبعده - الى الله هو « خير أمة اخرجت للناس » في « تامرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر » حيث الدعوة درجات بمادتها وشكليتها وحملتها .

فقد اراد الله تعالى قمة القيادة لهذه الأمة البارعة ، لتقود الناس ككل الى

كل مصالح الدين والدنيا على ضوء الاعتصام بحبل الله جميعاً وتقوى الله حق تقاته .

فلا مجاملة هنا ولا محاباة او مصادقة ، إنما هو امر قاصد هادف ان تكون الإمامة العليا لهذه الأمة ، فكما أن رسولها هو رسول الرسل ووليهم ، كذلك ائمتها وسائر الأمة .

ليس توزيع الاختصاصات والكرامات هنا كما كان ولا يزال يزعمه اهل الكتاب « نحن ابناء الله واحبائه » فانما هو العمل الإيجابي الجاد لحفظ الحياة الايمانية الجماهيرية على رعاية الله ، بكل ما يتطلبه هذه التكاليف من متاعب ، قضية الأمر والنهي الصارم اللذين يتبناها الإيمان الصارم مهما كلف الأمر في هذه السبيل الشائكة الملتوية المليئة بالاشواك والعقبات ، فإن زادهم في هذه السبيل هو الإيمان بالله ، اعتصاماً بحبل الله جميعاً دون تفرق ، بتقوى الله حق تقاته ، لكي يمشوا في طريقهم الشاقة الطويلة قُدماً ، احتمالاً لكل تكاليفها وهم يواجهون الطغات البغات بكل غرامتها وشقوتها وشدتها .

ذلك ! « ولو آمن اهل الكتاب » ككل « لكان خيراً لهم ، اذ يصبحون - اذاً - من خیر امة اخرجت للناس ، ولكن « منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون » فالإيمان خير لهم في أولاهم وأخراهم ، فهنا يستعصمون به من الفرقة والهلالة المحلقة على كل حياتهم وحيوياتهم ، ويكسبون السوّد - الذي يخافون على زواله - وزيادة ، وهناك في الأخرى رحمة الله ورضوانه .

وهنا « المؤمنون والفاسقون » معرّفين تاشيراً الى المعلوم من أحوالهم لدى المتفرسين من المؤمنين ، وليس يختص « المؤمنون » هنا بمن آمن منهم بالفعل إذ لا يشملهم « اهل الكتاب » بل هم من لا يفسق عن الإيمان مقصراً ، وأما القصور

عن الإيمان بالرسالة الأخيرة مع الحفاظ على أصل الإيمان ، فهو يدخل القاصرين في المؤمنين .

وترى بإمكان الفاسقين منهم ان يضروا خير أمة اخرجت للناس ، المتوفرة فيها المواصفات السابقة السابقة ؟ كلا ! :

﴿ لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوْكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ ١١١ .

الأذى هي دون الضرر او الضرر الأدون وإلا لتناقض المستثنى منه إلا بانقطاعه منه، وعمل القصد منها ما يقولونه بالسبب تعريضاً بكم وتعريضاً لكم ، دون واقع الاصطدام بايقاع الغليظ المكروه الشديد .

ام وأذى الجراح والقراح والقتل بدنياً إن يقاتلوكم ، دون ضرر الغلبة بحجة ام سلطة عسكرية أممية ، فحسن استثناء « أذى » من « لن يضروكم » حيث إن تلك الأذى هي بالنسبة لتلك الاضرار كأنها لا تضر إذ لا تؤثر عميقاً ولا تححف ، فحاصل المعنى « لن يضروكم الا ضرراً قليلاً » .

ولم تذكر الأذى في سائر القرآن إلا في قليل الضرر اللهم إلا إذا أفردت بذكر ، فعامته كـ « ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنوا في الدنيا والآخرة » .

ذلك ومتى بلغ الأمر الى المدافعة والمقاتلة وانتهى الوعيد الى الواقعة كان المؤمنون أقوى ظهوراً وأشدأ استظهاراً ، والكفار أنقض ظهوراً وأضعف عماداً وأكثر استدباراً ، وذلك من ملاحم الغيب ودلائل صحة هذه النبوة السامية وكما رأينا في ماضي تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا منحوهم أكتافهم وأجزروهم لحومهم كبني قريظة وبني قينقاع ، ويهود خيبر وبني النضير وكم لهم من نظير ! .

ف « لن » لها دور الإحالة لدخولها وهو هنا « يضروكم » وهم فسقة اهل الكتاب وافسقهم اليهود و « لن يضروكم » هؤلاء بحذافيرهم أي ضرر بأنفسكم وعقائدكم وكل كيانتكم الإسلامي السامي « إلا أذى » وهو دون ضرر « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » عليكم .

أترى بعد أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين وهو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن ؟ .

كلاً ، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذي قبل بتحقيق شروط السيادة : اعتصاماً بالله - حيث تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله - ويتقوى الله حق تقاته ، وأن يعيشوا على طول الخط مسلمين لله ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا ينفرقوا ، وتكن منهم أمة داعية أمرة ناهية وأخيراً يصبحوا من خير أمة أخرجت للناس ، إذاً ف « لن يضروكم » أنتم المخاطبون بهذه الأوامر ، المحققون لها كما أمرتم « لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » .

فلأن الأذى هي دون الضرر فالإستثناء - إذا - منقطع ، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتصل ، وعلى أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة اهل الكتاب على هؤلاء المؤمنين القائمين بشرائط الإيمان ، المسرودة من ذي قبل .

فالإلزامات العقيدية والثقافية والعسكرية أماهيه لمن يسمون مسلمين ليست إلا من خلفيات الإلزامات الإيمانية « وإن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

إنه ليست صيغة الإسلام والإيمان هي العاصمة لحاملها عن الشر والضرر ، الكافلة للخير ، ولا أن صيغة التهود والتنصر هي القاضية على حاملها ، إنما الكافل هو الإيمان الصامد أي كان ف : « ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ١١٢ .

هذه تضرب عليهم الدلة إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ثم تضرب عليهم المسكنة دون استثناء ، وأخرى تضربها عليهم دون ذكر للحبلين : « وضربت عليهم الدلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٢ : ٦١) .

وهذه مقيدة بتلك قضية تقيدها وطبيعة الحال في زوال تلك الحال .

ومن الدلة الدائبة على اليهود سوم العذاب عليهم من المجاهدين مسلمين وسواهم في دويلاتهم النحسة الويلات كما قال الله « واذ تأذن ربك لبيعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض اعمأ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (٧ : ١٦٨) .

وترى الدلة المضروبة « عليهم » : فسقة اهل الكتاب ، هي التشريعية لمكان « أين ما تقفوا » أي وجدوا في تحري المؤمنين الملاحقين إياهم ، حيث الثقف هو الخلق في إدراك الشيء ومنه الثقافة فانها جذق في ادراك العلوم .

فبجذق المؤمنين تكميلاً لشروط الإيمان ، وجذقهم في ملاحقة المؤذين من فسقة اهل الكتاب ، « ضربت عليهم الدلة » « فلما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم » (٨ : ٥٧) « ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » (٣٣ : ٦١) « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » (٣ : ١٩١) فحذار حذار ألا يثقفوكم بفاشل إيمانكم ف « إن يثقفوكم يكونوا

لكم أعداء ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون «
(٦٠ : ٢).

أم وهي الذلة التكوينية حيث الفسق ذل في نفسه وذل في المجتمع الصالح ، وذل عند الفاسق نفسه إذ لا يفلح الفاسقون مهما أبرقوا وأرعدوا ردحاً من الزمن ، و « ذلك » الضرب في ذلة ومسكنة « بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

« ضربت عليهم الذلة . . . » ولكن لا على أية حال ومهما تحولت الأحوال ، بل هي دون الحبلين ف « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » يصد عنهم الذلة تشريعاً وتكويناً ، فما هما الحبلان ؟

« حبل من الله » معروف انه « حبل الله » اعتصاماً بالله وبكتاب الله وتنكير « حبل » تلميح بان كل قدر من حبل الله له عصمته عن الذلة ، فاذا اكتمل يصبح عاصماً طليقاً عن كل ضرر .

فبزوغ الإيمان من فسقه اهل الكتاب هو « حبل من الله » ولما يكمل ، ثم تكامل إيمانهم بشروطه تكامل لاعتصامهم بحبل الله ، فليس الاعتصام إلا بقدر قتل الحبل ، ولا الذلة إلا على قدر قتل الحبل ، إذا ف « حبل من الله » طليقة بالنسبة لكل درجات الحبل : رسولياً ورسالياً ، فحين يؤمن الكتابي الفاسق بكتابه كما يحق فلا ذلة له ، مهما لم يؤمن برسالة الإسلام قصوراً كما في آية الألسواء التالية ، وحين يؤمن بهذه الرسالة ولما يكمل إيمانه تكامل عزه ، حتى يصل إلى القمة المعنية بالآيات السالفة إعتصاماً كاملاً بحبل الله .

وهكذا الأمر « حبل من الناس » حيث تقصد بعد الله بكتابه ، رسول الله ، ثم الدعاة الرساليين ثم سائر المؤمنين ، او ومن ثم سائر الناس اجمعين حيث الجمعية المعاصرة لها أثرها عضداً مهما كانت باطلة فضلاً عن الجمعية

الحقة الحقيقية وبين « حبل من الله وحبل من الناس » عموم من وجه ،
ف « حبل من الله » فقط هو الاعتصام بالله وبكتاب الله ف « حبل من الناس »
فقط هو الاعتصام بالناس غير الرساليين ، ومجمع بينهما هو الناس الرساليون
معصومين وسواهم من المؤمنين حيث يجتمع هنا الحبلان مع بعضهما البعض .

ولقد بُين الحبلان في آية الاعتصام « واعتصموا بحبل الله جميعاً »
ف « حبل الله » هو الأصل لـ « حبل من الله » و « جميعاً » هو الأصل لـ « حبل
من الناس » ولا سيما الثقل الأصغر رسولاً وعترته^(١) .

فالحبلان العاصمان يعصمان المعتصمين بهما عن كل ذل ومسكنة في كافة
الحقول الحيوية ضماناً صارماً من الله وهو حسبنا ونعم الوكيل : « والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين » .

« وضربت عليهم المسكنة » وكما نلمسها في اليهود مهما كانوا أثرياء فلأنهم
مساكين فقراء في ذوات نفوسهم

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

وترى ان هذه المسكنة تزول عنهم كما الذلة بحبل من الله وحبل من
الناس ؟ طليق المسكنة بعد الاستثناء يقول : لا ، ثم « لو انهم اقاموا التوراة
والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٨٣ في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عن عدة من اصحابنا رفعوه الى
ابي عبدالله (عليه السلام) في الآية قال : الحبل من الله كتاب الله والحبل من الناس هو علي بن ابي
طالب (عليه السلام)

أقول وهذا من التفسير بالمصداق الوسيط بين الرسول والامة ، تلخيصاً له بالرسول امام ناكريه ، وقد
مضى الحديث عن تفسير البرهان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب السائل بين لنا ما
هذا الحبل ؟ فقال هو قول الله : الا بحبل من الله وحبل من الناس فالحبل من الله كتابه والحبل من
الناس وصي ...

مقتصدة وكثير منهم مساء ما يعملون « (٥ : ٦٦) ، هذه واضرابها من الواعدة زوال الذلة والمسكنة تقول : نعم ، فقد تلمح تأخر المسكنة بظليتها تأخر زوالها عن هؤلاء الفسقة ، أم وبأحرى أن زوال الذلة يكفيه حبلاً من الله وحبل من الناس ، وليس زوال المسكنة ليكفيه حبلاً ما الموافق لبقاءهم على دينهم قاصرين ، وكما نرى اليهود القاصرين في مسكنة بيّنة ، وهذا هو الفارق بين الذلة والمسكنة هنا ، حيث الثانية هي لزوم التأخر عن كامل الحبلين كما هو ملموس في اليهود !

وذيل الآية المعلّل للذلّ والمسكنة يقرر أنهم هم فسقة اليهود ، إذ لم يعهد من النصارى أن يقتلوا النبيين ، فمصب الآية منذ « لن يضروكم » - حتى - « المسكنة » هم اليهود ، مهما شمل إستحالة الضر كل فسقة اهل الكتاب لمكان رجوع ضمير الجمع إلى « وأكثرهم الفاسقون » حيث لا يختص بفسقة اليهود . إذا فتالوث : الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله - يشمل كل فسقة اهل الكتاب على قدر فسقهم ومروقهم ، ولا سيما اليهود المغضوب عليهم وهم أشدّ عداوة للذين آمنوا وأضر ضرارة عليهم كما قال الله : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (٥ : ٨٣) .

وترى إذا السابقون كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق فما على اللاحقين الذين لم يقتلوا ؟ ذلك لأنهم سلسلة موصولة طوال تاريخهم المنحوس المدسوس ، فاولئك قتلوا الأنبياء وهؤلاء قتلوا النبوات ، فلو وصلت أيديهم إليهم لقتلوه ، فهم غط واحد على طول الخط ، فتشملهم الذلة والمسكنة كذلك « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

وقتل الأنبياء وسواهم هو في مثلث مهما اختلفت زواياه :

١ سفك دمائهم بأيديهم عناداً وعتواً على رسالات الله .

٢ التسبب لقتلهم ان يذيعوا عنهم اموراً يسبب قتلهم (١) .

٣ الرضا بما فعل القتلة حيث الراضي بفعل قوم هو منهم .

لَيْسُوا سَوَاءً

مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ

الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا

مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ

شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ

مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

(١) نور الثقلين ١ : ٢٨٣ في اصول الكافي يونس عن ابن سنان عن اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله

(عليه السلام) وتلا هذه الآية قال : والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسيا فهم ولكن سمعوا

احاديثهم فأذاعوها فأنزلوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداءً ومعصية .

أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ
 اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ
 قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
 قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ
 تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقَوْمُ
 قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عٰلَمَكُمْ إِلَّا نَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ
 قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
 إِنْ تَمَسَّكُ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا
 وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
 بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ
 الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ
 طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا
 اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١٤﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ
 يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُنْزَلِينَ ﴿١١٥﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ
 فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُسَوِّمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
 قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ ﴿١١٧﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ
 فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١١٨﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ
 عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٠﴾

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
 وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ^{١١٤} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ^{١١٥} .

إن اللاسواء بين اهل الكتاب هو قضية عدل الله كما اللاسواء حاكم بين المسلمين وسائر الموحدين على شتات مذاهبهم ، فـ « ليسوا » اهل الكتاب الماضي ذكرهم بسوء « سواء » ام « ليسوا سواء » من اهل الكتاب ، آخريين منهم فـ « من اهل الكتاب » إذا هي ذات تعلقين اثنين .

فبمجرد أن فلاناً يهودي أو نصراني لا يقضى عليه بذلة ومسكنة أماهيه من أحكام الكفرة العصاة المعتدين ، حيث العبرة الأصيلة في ميزان الله هي الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، كما وأن مجرد اسم الإسلام والإيمان ليس لزامه الأمان من ذلك الحكم العدل الحكيم .

وهذه الآيات الثلاث تحمل عشرة كاملة من ميزات بين موجبات ومتوجبات لزمرة - مهما كانت قليلة - من اهل الكتاب ، تعدّهم أخيراً من المتقين .

وهذه ضابطة ثابتة في منطق القرآن أن الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ليست لتهدر على أية حال ، مهما كان حاملها كتابياً أو مسلماً ، فـ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) (١) .

وترى هنا « أمة قائمة » تعني الكتابيين الذين آمنوا بشرعة الإسلام ؟ وصالح التعبير عنهم « المؤمنين » أو « الذين آمنوا » لسابق كونهم كتابيين ثم

(١) راجع الفرقان ١ : ٤٣٤ - ٤٤٤ نجد قولاً فصلاً حول موضوع الآية فلا نعيد .

آمنوا ١، إنهم هم المؤمنون من أهل الكتاب سواء الذين آمنوا منهم بالفعل فندد بهم زملاءهم الكتابيون (١) أم لما يؤمنوا وهم يتحرون عنه ، أم القاصرون عن معرفة الإسلام مهما كانوا تالين الكتاب ، وقد شملهم « ليسوا سواء » مهما كان الأول هامشياً لأن حساب السواء لم يكن من الأحبار المنددين بمن أسلم منهم .

هذا ، وإلى تلك العشرة الكاملة العشيرة لأهل التقى من أهل الكتاب :
 ١ « أمة قائمة » في تحقيق الحق وإبطال الباطل ، دون فشل ولا كسل ، حيث الفاشلون الكسالى من أية أمة كتابية أو مسلمة لا تحسب بحساب المتقين .
 إذا فـ « قائمة » تعم كل قيامة وقوامة بالعدل والقسط وما يحق القيام به وفيه وله وعليه وإليه في شرعة الله وكما يذكر من مهامها :

٢ « يتلون آيات الله آناء الليل » فالليل الرياحة حين تتلى فيه آيات الله ، تكون المتلوة فيه أخلص وأنقى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قبلاً » .
 و « آيات الله » دون المسماة بتوراة أو إنجيل ، تلمح ان القصد منها آيات السوحي غير الخليطة بسواها ، فهي القرآن وما قبله من آيات وحي التوراة والإنجيل .

وترى اذا كان التوراة والانجيل عرفين كما يصرح به القرآن فكيف بإمكان

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٤ - اخرج جماعة عن ابن عباس قال : لما أسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعيد واسيد بن سعيد واسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم آمنوا وصدقوا ورغبوا في الاسلام قالت احبار يهود واهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره فأنزل الله في ذلك « ليسوا سواء .. »
 أقول : ليسوا سواء قد لا يناسب خصوص هذا الشأن لنزول الآية اذ لم يجب الاحبار لهم حساب السواء بل كان حسابهم اللاسواء .

مؤمني أهل الكتاب ولا سيما القاصرين منهم ان يتلوا آيات الوحي منها ؟ .
 قد يعني من « آيات الله » ما يعرفونها من أصل الوحي مهما اخطأوا
 قاصرين ، دون الآيات التي يعرفونها دخيلة في وحي الكتاب .
 فتلاوتهم للتوراة والانجيل تعني تلاوة آيات الله ما لم تتبين لهم منها أنها
 دخيلات متسربات .

او يقال « يتلون » حسب المستطاع حيث يحاولون - فقط - تلاوة آيات الله
 دون المختلفات الزور والغرور .

ولأن هؤلاء هم الذين يعلمون الكتاب اجتهاداً او تقليداً فهم اولاء الذين
 يميزون الاصيل من الآيات عن الدخيل ، فهم بإمكانهم تلاوة آيات الله، ثم آيات
 الله تعم مع سائر كتب السماء القرآن العظيم ، والمحاول إيماناً أن يتلوا آيات الله
 مهما غلط فيها او عنها الى الدخيلة فيها قاصراً صادق عليه انه يتلوا آيات الله .

٣ « وهم يسجدون » لله دون سواء من مسيح وسواه عند من حسبوه ابن
 الله او الله، وأما الساجدون لمن سوى الله مسيحاً وسواه فهم الضالون مهما كانوا
 قاصرين ، حيث الفطرة الإنسانية السليمة تشجب السجود لغير الله مع
 السجود لله .

وهنا « هم يسجدون » تعم السجود لآيات الله وهو غاية الخضوع الطليق
 لها في كل مراحلها ، الى السجود في الصلاة لله ، والى غاية الخضوع لله ، فلا
 تخص سجوداً خاصاً حيث الكل هو شريعة صالح الإيمان دون تبعض .

٤ « يؤمنون بالله واليوم الآخر » إيماناً صالحاً غير دخيل ، حيث التثليث
 وما اشبه من انحرافات عن الإيمان بالله ليس إيماناً بالله ، وكذلك اليوم الآخر
 كما هو مسرود في آيات الله .

٥ - ٦ « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وهما البعد الثاني من الإيمان لفاعل المعروف وتارك المنكر ، ولأن الأمر والنهي بحاجة أساسية الى معرفة المعروف والمنكر وعمل المعروف وترك المنكر ، فهم اولاء العدول منهم كما وهم علماء لمكان « يتلون آيات الله » دون اختصاص بعلماءهم فان شرط المعرفة بالمعروف والمنكر والائتمار والانتهاز يحصل بتقليد كما يحصل باجتهد ، مهما كان على المقلد الاجتهاد السليم في تقليده .

٧ « ويسارعون في الخيرات » في كل ميادين سباقات الخيرات ، دون ركود ولا جمود ، فحياتهم كلها حركات في مسارعة الخيرات .

٨ « واولئك من الصالحين » وهم الرابع من مربع الصراط المستقيم : « ومن يقطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » (٤ : ٦٩) .

٩ « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » كفراناً لكونهم كتابيين ام لسابق حالهم قبل ان يكونوا مسلمين .

١٠ « والله عليم بالمتقين » يشبههم كما يتقون مسلمين ام كتابيين . وهذا العشرة لا تجتمع إلا في نبلاء اهل الكتاب وقليل فيهم قاصرون ، وكثير هؤلاء الذين آمنوا ام هم يتحرون عن صالح الإيمان فهم مسلمون .

فلا كفران لمساعي المتقين أياً كانوا ، دون ان تنقص منها سابقة سوء هم عنها الآن خارجون ، وطالما الكتابي الذي يؤمن ام هو في سبيل الإيمان مكفر عند من يجهل المقاييس ولكنه غير مكفور عند الله بل هو مشكور ، بل « إن المؤمن مكفر وذلك أن معروفيه يصعد الى الله عز وجل ولا ينتشر في الناس والكافر مشهور وذلك ان معروفيه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد إلى الله » (١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٢٢٢ في كتاب علل الشرائع عن ابي عبدالله (عليه السلام) قال : ...

وقد يروى عن اول العابدين : « يد الله فوق رؤوس المكفرين ترفرف بالرحمة » (١) ، و « كان رسول الله مكفراً لا يُشكر معروفة ولقد كان معروفة على القرشي والعربي والعجمي ومن كان أعظم معروفاً من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذا الخلق وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفاً وخيار المؤمنين مكفرون لا يُشكر معروفة » (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ١١٦ .

هنا « كفروا » اللاحقة إلى حادث الكفر بعد إيمان تعم الكفر بعد الإيمان واقعياً ، أم إيمان هو قضية الفطرة السليمة والعقلية غير الدخيلة ، والكفران هما بدركاتهما مشمولان لـ « الذين كفروا » ونتيجته « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً » في الدنيا والآخرة « وأولئك » البعاد هم « أصحاب النار » على مدار الحياة في الأولى والأخرى « هم فيها خالدون » قدّر كفرهم دون خلود لانهائي مزعوم ! .

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١١٧ .

رغم انه لا بد في الإنفاق أن يشمر نتاجاً قدره ، ولكنهم « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا » إنفاقاً فيها وفي سبيلها - مهما كان في زعمهم في سبيل الله

(١) المصدر عن العلل بإسناده الى السكوني عن جعفر بن محمد عن ابيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) المصدر عن العلل بسند متصل عن علي بن أبي طالب قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكفراً ...

وهم خالفوها الى سواها حيث ينفقونها عوجاً والإ فكل إنفاق هو في هذه الحياة ، سواء أكانت لها أم للأخرى ، ولقد كانت اليهود تنفق أموالاً طائلة لإيذاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلتاحة به ، كأنهم ينفقونها في سبيل الله ، وهو في الحياة الدنيا « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة » (٨ : ٣٦) .

ذلك مثله « كمثل ريح فيها صر » والصر هو الشدة والسرعة التي تصحبها لهب النار أم برودة ثلجية لا تبقي للحرث باقية ، وكلاهما من شؤون النار حريقاً أو زمهريراً ^(١) فكلما كان صرُ إنفاقهم وشدة عِدته وعدة أكثر ، كان هلاكهم في عِدتهم وعِدتهم أوفر ، فلإنفاق الكافر أياً كان لا يخلو عن ثالوثه المنحوس للكفر المحيط لأعماله :

إنفاقاً في سبيل الله ، أو الذي يزعمه أنه في سبيل الله ، أو يعلمه أنه في الصد عن سبيل الله مهما اختلفت دركاتها .

وذلك المثل يلمح - ضمن ما يمثل إنفاق الكفار - ان الصر إنما يصيب حرث قوم ظلموا أنفسهم ، مهما شمل حرث من سواهم محنة دون من أصابهم مهنة .

« وما ظلمهم الله » مثلاً وممثلاً بهم « ولسكن أنفسهم يظلمون » وذلك الهلاك لما ينفقون ليس إلا من خلفيات ظلمهم أنفسهم .

(١) وشاهداً على صر البرد :

لا يبردون إذا ما الأرض جملها صر الشك من الأعمال كالادم ومن ذلك « ريح صر صر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوماً فتري القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية .

ثم « ظلموا أنفسهم » تشمل ثالث الظلم - نفساً وسواها وبالحق - حيث المرجع فيها انفسهم ، مهما اضر به غيرهم « وما ظلمهم الله » بإهلاك حرثهم عن بكرته « ولكن انفسهم يظلمون » حيث كفروا فاحبط الله اعمالهم فانه عليهم اضر وانكى .

« وما الله يريد ظلماً للعباد » (٤٠ : ٣١) لا ظلماً بهم بما أمرهم ونهاهم وجازاهم ، ولا ظلماً منهم بانفسهم وسواهم ، فلا ظلم في ساحة الربوبية على أية حال ، فلنما الظالم هم العباد بسوء اختيارهم .

ذلك ! فهم أولاء الانكاد البعاد الذين تنكبوا المنهج الجامع لمفردات الخيرات ، الحافلة للمبررات الكافلة للمكرمات ، فاختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والإنفلات من عصمة جبل الله جميعاً ، فعملهم - إذاً - وكل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ، هباءً ، إذ لا قيمة لخير إلا ان يتبنى منهج صالح الإيمان . ذلك ، وإلى تحذير من هؤلاء الملاحين ، المبايعين للدين بهذا الأركس الأدنى من زخرفات الحياة الدنيا ، كيلا ينفر المؤمنون بما يعرفون فينضروا بما يضرون إسراراً وإعلاناً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ١١٨ .

البطانة خلاف الظهارة ، وتستعار لمن تختصه بالإطلاع على خفيات أمورك المستسرة ، فقد تكون بطانة خير فمحبوبة مشكورة ، ام بطانة شر فمحظورة محذورة (١) .

(١) في غريب القرآن للراغب وروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ما بعث الله من نبي =

و « بطانة من دونكم » تعم من سوى المؤمنين ، ملحدين او مشركين او مسلمين، منافقين او الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، ولكن « لا يألونكم .. ودوا .. قد بدت .. » تستثني الآخرين ، كما وقد تستثني غير المعاندين من الكفار ، ولكن غير المؤمن أياً كان لا يصلح أن يكون بطانة للمؤمن ، مهما اختلفت هذه العلة لسلبية البطانة بالأعداء الألداء منهم .

و « بطانة » هنا قد تكون ذات تعلقين اثنين « لا تتخذوا بطانة » هي « من دونكم » و « لا تتخذوا من دونكم بطانة » فدون المؤمنين لا يصلح لكونهم بطانة للمؤمنين ولا سيما في جمعية المصالح الإسلامية التي هي بحاجة إلى شورى العابد من أمة الاسلام كما فصلناها على ضوء آية الشورى .

وهنا مربع الحكم الحكيم تعلل « لا تتخذوا » لنكون على بصيرة في أمرنا معهم :

١ « لا يألونكم خبالاً » والخبال لغوياً هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً ، كما بالنسبة للمنافقين في أخرى : « لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا خلالكم ييغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون » (٩ : ٤٨) .

و « خبالاً » في آيتنا ، نكرة في سوق النفي ، تشمل كل خبال ثقافي - عقيدي - خلقي - إقتصادي - سياسي ، أما إذا من فساد واضطراب .

= ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير ونحضه عليه وبطانة تأمره بالشر ونحذ عليه

أقول : ولكن بطانة الشر ما كانت تقدر على اضلاله وما كان نبي ولا خليفة نبي يتخذ لنفسه بطانة شر مهما لصقوا به .

« يَأْأُونَكُمْ » : يَقْصُرُونَكُمْ مِنَ الْأَلُو : التَّقْصِيرُ ، فَهْمُ أَوْلَاءِ لَا يَقْصُرُونَكُمْ خِبَالاً وَفْسَاداً فِي أَيِّ مِنْ حَقُولِهِ ، فَذَلِكَ مَدَى جُهِدِهِمْ فِي خِبَالِكُمْ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَيْهِ سَبِيلاً ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى خِبَالِكُمْ بِذَاتِ أَيْدِيهِمْ فَهَمْ - لِأَقْلٍ تَقْدِيرٍ - يُوْدُونَهُ :

٢ « وَدُوا مَا عَنَّتُمْ » : وَدُوا عَنَّتَكُمْ - فِي مَصْدَرِيَّةٍ « مَا » - وَالَّذِي عَنَّتُمُوهُ - فِي مَوْصُولِيَّتِهِ - وَالْعَنَتْ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ التَّلَفُ ، فَهَمْ - إِذَا - لَا يَأْأُونَكُمْ خِبَالِ الْعَنَتْ وَسَوَاءٌ حَيْثُ يُوْدُونَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ أَمْرِكُمْ إِمْرًا وَصَعُوبَةً وَهَلَاكًا حَيْثُ يَبْغِضُونَكُمْ عَلَى آيَةٍ حَالٍ :

٣ « قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أَتُومَاتِيكِيَا رَغْمَ مَا يَحَافِظُونَ عَلَى قِيْلَاتِهِمْ أَمَامَكُمْ ، فَمَا يَضْمُرُ أَحَدُ أَمْرًا إِلَّا وَقَدْ يَظْهَرُ فِي صَفَحَاتٍ وَجْهَهُ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ .

٤ « وَمَا تَخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرَ » مِمَّا تَبْدُو مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ آيَاتُ عِدَائِهِمْ الْعَارِمِ - « قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » .

وَيَا لَهَا مِنْ صُورَةٍ بَيْنَ السَّمَاتِ ، ظَاهِرَةِ الْوَصْمَاتِ لِأَعْدَائِنَا الْإِلْدَاءِ ، تَنْطِقُ لَائِحَةً بِدَخَائِلِ هَذِهِ النُّفُوسِ الْبَيْئَةِ التَّعْيِيسَةِ ، تَسْجُلُ الْمَشَاعِرَ الْبَاطِنَةَ وَالْإِنْفِعَالَاتِ الظَّاهِرَةَ وَالْحَرَكَاتِ الْمَتَارْجِفَةَ ذَاهِبَةً وَآثِبَةً ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِنُمُودِجٍ بَشَرِيٍّ شَرِيرٍ فِي الطُّولِ التَّارِيخِيِّ وَالْعَرْضِ الْجُغْرَافِيِّ ، نَسْتَعْرِضُهَا فِي حَالِنَا وَمُسْتَقْبَلِنَا كَمَا عَرَضُوا عَلَيْنَا فِي مَاضِينَا .

هَؤُلَاءِ الْإِنْكَادُ الَّذِينَ يَتَظَاهَرُونَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْمُودَةِ فِي سَاعَةِ الْقُوَّةِ ، فَتَكْذِبُهُمْ كُلُّ خَاجِلَةٍ مِنْهُمْ وَخَارِجَةٍ ، وَيَنْخَدِعُ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ لِظَاهَرِ رَحْمَتِهِمْ غَفْلَةً أَوْ تَغَافُلًا مِنْ بَاطِنِ زَحْمَتِهِمْ فَيَمْنَحُونَهُمُ الثِّقَةَ وَالْوَدَادَ ، وَهَمْ لَا يَأْأُونُهُمْ خِبَالًا وَنَثْرًا لِأَيَّةِ شَائِكَةٍ فِي طَرِيقِهِمْ مَا سَنَحَ لَهُمْ وَفَسَحَ مِنْ شَرِّ وَضَرٍ .

تلك الصورة كانت منطبقة تماماً على قسم من اهل الكتاب الحضور زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث جاوروه في المدينة بكل غيظ كظيم مضمراً على المسلمين ، والنوايا الخبايا السيئة التي كانت تحبش في صدورهم ، والبعض من المسلمين كانوا - ولا يزالون - ينخدعون بمظاهرتهم الحلوة ، فيلقون اليهم بالمودة ، ويأمنونهم على اسرارهم كبطانة امينة ، فجاء ذلك التنوير التحذير ، دون اختصاص بزمن دون زمن ، بل هو حقيقة ثابتة تواجه ذلك الواقع المرير الشرير من هؤلاء المنافقين ، اهل كتاب او مسلمين.

ذلك ! فهل من عقل الإيمان أن تودوهم وتحبوهم دونما عائدة إلا ضرراً ؟.

﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عُضُوءًا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ١١٩ .

« ها » تنبيه لهامة الموقف الخطير « انتم » المسلمين « أولاء » « تحبونهم » أولاء الكافرين ، وذلك خلاف العقلية الإيمانية ، فانتم « انتم » المؤمنون الصالحون و « أولاء » أولئكم الكائدون الحاقدون ، فكيف « تحبونهم » و « الحال أنهم » لا يحبونكم ، أفحياً من ناحية أمام بغض من أخرى ، ودون أن يؤثر ذلك الحب تخفيضاً من ذلك البغض البغيض ، بل تعزيزاً لبغضهم ، وتمكيناً لهم من خيال وإدغال ؟ .

ثم « وتؤمنون بالكتاب كله » هذا القرآن وما بين يديه من كتاب ، وهم لا يؤمنون بالكتاب كله ، ولا حقاً بالكتاب بعضه ، إذ لا يتبعون كتاباتهم فضلاً عن كتابكم .

وقد تلمح « الكتاب كله » دون « الكتب كلها » بوحدة الكتاب لوحدة الامم الكتابية بوحدة الرسالات .

ثم « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » إذ يرونكم جميعاً وهم شقي ، ولكم قوة وسداد وهم في ضعف وبداد ، ولا جواب لهم في بغضهم البغيض إلا :

« قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » ومنها صدوركم المليئة من بغض المؤمنين ، وهنا « موتوا بغيظكم » أمراً ، يعاكس « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نهياً ، وهما في مجرى واحد في حالة الاختيار ، فمهما لم يكن الموت تحت الاختيار ولكن الإسلام والكفر هما تحت الاختيار ، فقد تعني « موتوا بغيظكم » استمروا بغيظكم المميت عن حيوييتكم ، أو حتى الموت ، أمراً تحذيرياً هو ابلغ من النهي كـ « إعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون » .

وقد تعني بقاء الغيظ كلا المعية والسبية ، فذلك الغيظ يميت صاحبه حين لا يجد مفلاً منه ولا من سببه ، وهو معه أينما حل وارتحل حتى الموت ، واستمرارية الغيظ تزيد فيه وتزيد حتى يميت .

وفي ذلك لمحة أن استمرارية الغيظ بمزيد هي من أسباب الموت ، لأنها حالة نفسية رديئة لا تستطيع النفس أن تتحملها ، فيوماً ما هي تتغلب عليها فتميت صاحبها .

وإذا كان الغيظ في سبيل الطاغوت فالموت موتان لصق بعض ورف بعض ، موتاً حال حياته روحياً ، وموتاً يقضي على حياته جسماً فيتم الموت ويظم كل كيانه : « ظلمات بعضها فوق بعض » ، وأما « ذات الصدور » دون « الصدور » مجردة ، فلأن « ذات » : الصاحبة هي مؤنث « ذو » : الصاحب ، وصاحبة الصدور هي التي تصحبها من الضيق والإنشراح بكفر أو إيمان أم أي كان من حالات محبورة أو محظورة .

وترى لماذا هنا وفي كثير سواء « ذات الصدور » دون « ذات القلوب »
وهي اصل الروح وعمقه ؟ .

علّه لأن القلوب ايضاً هي من ذات الصدور بكل حالاتها ومجالاتها :
« فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) .

فكل حالة حسنة او رديئة ، منسجمة او ضيقة في الصدور هي المؤثرة بالمآل
في القلوب ، فالقلوب هي من ذات الصدور وليست الصدور هي من ذات
القلوب .

ثم ابتلاء ما في الصدور تقدمة لتمحيص ما في القلوب : « وليبتلي الله ما
في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » (٣ : ١٥٤) .

« إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ أَلَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » ١٢٠ .

« ان تمسككم » حالة « حسنة » مادية او معنوية ، فردية او جماعية أماهيه
من حياة حسنة « تسؤهم » هذه الحسنة إذ « لا يألونكم خبالاً وودوا ما عنتم » .

« وإن تصبكم » حالة « سيئة » من ضيق معيشي او انهزام حربي ام نكسة
عقيدية أماهيه « يفرحوا بها » ولا علاج في تلك المواجهة المعاندة إلا الصبر
والتقوى .

« وإن تصبروا » في كل حسنة وسيئة ، وما يسوءون ويفرحون ، دون
انفلات عن ثابت الإيمان « وتتقوا » عن المحاذير التي هي نتيجة طبيعية
لاختلاف الحالات والواجهات ، إذ « لا يضركم كيدهم شيئاً » اللهم إلا أذى
بسيطة متحملة « إن الله بما يعملون محيط » فهو الذي يدافع عنكم بدافع
إيمانكم : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » « ويرسل عليكم حفظة » وهو الذي

يحيطكم علماً بمكائدهم ومصائدهم فتحذروهم مهما كانوا أقوياء فانهم كائدون أغوياء ، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وهو الذي يجازيهم بكيدهم فإنه بما يعملون يحيط علماً وقدره .

وهناك محور الرجاء لمس المصيبة وإصابتها هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم الذين معه : « إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون . قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٩ : ٥١) .

فيا عجباً من غفوتنا وغفلتنا حين تصفعنا التجارب المرة من هؤلاء المنافقين مرة تلو مرة ولكننا لا نفقه ، ونرى المؤامرات تترى علينا بمختلف الأزياء بل اننا فيها نحيق ، فاتحين لهم قلوبنا ، وآخذينهم رفقاء الطريق ، فمن هنا نذل ونضعف ونستخذى ونلقى كل عنت وخيال حيث يدس في صفوفنا .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ (١٢٢) .

من السيئات التي أصابت المسلمين هي الهزيمة العظيمة في أحد ، ففرحت بها أعداءهم من أهل الكتاب والمشركين ، وهكذا ترتبط آية الغدو بسابقتها : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » .

وهنا تذكرة عابرة خاطفة بغزوة أحد وسبب الهزيمة ، ثم انتقالة إلى غزوة بدر السابقة عليها تدليلاً على استمرارية الرحمة الغالية الربانية لهذه الأمة ما قاموا بشروطها ، وأن هزيمة الحرب هي من قضايا الهزيمة عن واجب التطبيق للإمرة الرسالية في حقل الحرب أم وسواها .

ومن ثم تستمر التذكرة بحرب أحد وما خلّفت من بلورة الإيمان لقلة قليلة ، ومن زلزلة الإطمئنان وتأرجح الإيمان لكثرة كثيرة ، كدرس للأمة الإسلامية مع الأبد ، نبراساً ينير الدرب على المجاهدين في خطوط النار للأخذ بالثأر والقضاء على العار ، ومتراساً يترسون به في تقدّمات الحرب وتقدّماتها .

وهنا انتقال لطيفة عطيفة من معركة الجدال والتنوير والتوجيه والتحذير ، إلى معركة النضال في الميدان ، إلى معركة أحد ومن قبلها بدر .

وهنا تنضم عراك في الضمير بعلي العراك الدموية الفادحة ، ومعركة الضمير هي أوسع المعارك في مختلف النضال والجدال .

لقد كان النصر أولاً في بدر ثم الهزيمة ثانياً في أحد ، وكما الانتصار كان عظيماً حيث غلبت فيه فئة قليلة على فئة كثيرة بإذن الله ، كذلك كانت الهزيمة أيضاً عظيمة ، ولكنّها الهزيمة خلّفت - رغم أوجاعها وأجواءها المحرّجة - انتصاراً معرفياً ويقظة بعد غفوة للكتلة المؤمنة ، ولكي لا يغتروا بانتصارهم الأوّل ، فيتركوا شروطاته المقررة في شرعة الله .

فلقد محصّت في هذه الهزيمة نفوس وميّزت صفوف وصفوف ، وانطلق المسلمون متحررين عن كثير من أغباش التصورات الخاطئة التي هي عشيرة الفتح الخارق للعادة بطبيعة الحال .

فميعان قيم وتأرجح مشاعر من نزوة الفتح المبين من ناحية ، وتسرب منافقين وقليلي الإيمان من أخرى ، ما كانت تُجبر إلا بهزيمة ما هي في نفس الوقت من خلفيات تخلف عسكري عن امر القائد الرسالي .

ولم تكن حصيلة الهزيمة بأقل عائدة من حصيلة الفتح أم هي أكثر ، فتلك هي حصيلة ضخمة ما أحوج الأمة الإسلامية إلى دراستها طوال تاريخها ، ولكي تأخذ حذرهما وأهبتها في كل مواجهة نضالية من ذلك الرصيد العظيم .

« و » اذكر من ضمن الذكريات الحربية الفاشلة لفشل من المسلمين « إذ غدوت من أهلك » خرجت غداة من أهلك في المدينة إلى خارجها : « أحد » - حال انك « تبوء » إيواء لبواء الحرب الدفاعية « تبوء » المؤمنين مقاعد للقتال « لأنك قائد الحرب على ضوء القيادة الرسالية المحلقة على كافة المصالح الروحية والزمنية .

فليس لأحد ان يبوء المؤمنين مقاعد للقتال والرسول فيهم إلا هو ، فعليك يا رسول الهدى تنظيم التكتيكية الحربية أمأهيه من تكتيكات نظامية وانتظامية ، وهامة الأمور الجماعية للمسلمين ، فإنك الحاكم بين الناس بما أراك الله في كل ما يتطلب الحكم من خلافات روحية أو زمنية : « إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » (٤ : ١٠٥) .

وليس مجال الحكم بين الناس - في الأكثرية الساحقة - إلا فيما هم فيه يختلفون من مصالح معيشية - جماعية - اقتصادية - حربية ، أمأهيه .

فلا تعني الرسالة الإلهية - فقط - مصالح المحارب والعبادة ، بل ومصالح الحرب والإبادة لمن يتربصون باهل الحق كل دوائر السوء .

وكما أن تكاليف المحارب مقررة بوحى الله ، كذلك تلتيكات الحرب هي بوحى من الله ، فانها معاً مدلولان لـ « لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

فهذه خرافة قاحلة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) شاور أصحابه بشأن غزوة أحد أيخرج إليه خارج المدينة فيغزوهم أم يظل داخلها فيدافع عن الأهلين ، فأشاروا عليه بالخروج وكان من رأيه المقام داخل المدينة ! (١) .

(١) الدر المنثور (١ : ٦٨) اخرج جماعة عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم ، كل حدث بعض =

.....

= الحديث عن يوم أحد قالوا : لما أصيب قريش أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ورجع كلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وأخوانهم بيدركلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش نجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأهينونا بهذا المال على حربنا لنذكر منه ثاراً بمن أصاب ففعلوا فاجمعت قريش لحرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخرجت بجديتها وجديدها وخرجوا معهم بالظمن التماس الحفيظة ولشلا يفروا وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل بطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة فلما سمع بهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إني رأيت بقرأ تنحدر وأريت في ذباب سيفي ثلماً وأريت أني دخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ونزلت قريش منزلها أحد يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم الخميس ويوم الجمعة وراح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث وكان رأى عبدالله بن أبي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج إليهم وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته يوم بدر وحضوره : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جنبنا عنهم وضعفنا فقال عبدالله بن أبي يا رسول الله أقم بالمدينة فلا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدولنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منهم فدعهم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا قاتلهم النساء والصبيان والرجال بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا فلم يزل الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلبس لامته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في =

وكيف يرتأي ان يغزى في عقر داره فيذل ، ويرشده من أصحابه إلى الخروج فلا يذل ؟ ام كيف يتبع خلاف رؤية وهو الحاكم بما أراه الله ! ، وقد

= ألف رجل من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد تحول عنه عبدالله بن أبي بثلث الناس ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى سلك في حرة بين حارثة فذبح فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستله فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يحب الفأل ولا يعتاف لصاحب السيف ثم سيفك فإني أرى السيوف تستل اليوم ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وتبع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) القتال وهو في سبعمئة رجل وأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الرماة عبدالله بن جبير والرماة خمسون رجلاً فقال : « انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كان علينا أو لنا فانت مكانك لتؤتين من قبلك وظاهر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين درعين » .

وفيه اخرج ابن جرير عن السدي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأصحابه يوم أحد اشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصاري يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما علينا عدو لنا اتانا في ديارنا فكيف وانت فينا فدها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عبدالله بن أبي ابن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اخرج بنا إلى هذه الأكلب وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة فأقنع النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تحمروني الجنة فقال بم قال بأنني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وإني لا أفر من الزحف قال : صدقت فقتل يومئذ ثم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بدرعه فلبسها فلما رآوه وقد لبس السلاح ندبوا وقالوا بشيا صنعنا نشير على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا إليه وقالوا : اصنع ، رأيت ، فقال : رأيت القتال وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبدالله بن أبي في ثلاثمئة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ولئن أطعنا لترجحن معنا وقال : اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا . . وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبدالله بن أبي فعصمهم الله =

= فقطع يده فأخذ باليسرى فضرب يسراه فقطعها فأعتقها بالجذماوين الى صدره ثم التفت إلى أبي سفيان فقال : هل أعذرت في بني عبدالدار فضربه علي (عليه السلام) على رأسه فقتله فسقط اللواء فأخذتها عمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها وألحظ خالد بن الوليد على عبدالله بن جبير وقد فر أصحابه وبقي في نفر قليل فقتلهم على باب الشعب ثم اتى المسلمين من ادبارهم ونظرت قريش في هزيمتها الى الراية قد رفعت فلا ذوابها وانهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هزيمة عظيمة فأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كل وجه فلما رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الهزيمة كشف البيضة عن رأسه وقال : انا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى أين تفرون عن الله وعن رسوله ؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلما انهزم رجل من قريش دفعت اليه ميل ومكحلة وقالت انما انت امرأة فاكتمل بهذا وكان حمزة بن عبدالمطلب يحمل على القوم فاذا رأوه انهزموا ولم يثبت له احد وكانت هند قد اعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً او علياً او حمزة لاعطينك كذا وكذا وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم جشياً فقال وحشي : اما محمد فلا اقدر عليه واما علي فرأيت حذراً كثير الالتفات فلا مطعم فيه فكمن لحمزة قال : فرأيت يدهم الناس هداً فمررت فوطىء على جرف نهر فقط فأخذت خربي فهازتها ورميتها بها فوقعت في خاصرته .

وفيه أخرج ابن جرير عن السدي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأصحابه يوم أحد اشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما غلبنا عدو لنا اتانا في ديارنا فكيف وانت فينا فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عبدالله بن أبي ابن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرج بنا إلى هذه الأكلب وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعجبه ان يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزمة فأتى النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تحرمني الجنة فقال بم قال باني اشهد أن لا إله الا الله وانتك رسول الله واني لا افر من الزحف قال : صدقت فقتل يومئذ ثم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا بشمنا صنعنا نشير على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا : اصنع ما رأيت ، فقال : رأيت القتال وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينبغي لنبي ان يلبس لامة فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى =

كلا وكما ان تبوء مقاعد للقتال كان من شئونه القيادية ، كذلك الخروج إلى تلك المقاعد ، وانتصاب الجموع الخاصة لها ، كل ذلك كان من رأيه الخاص بما أراه الله ، مهما شاور المسلمين في ذلك ليشير عليهم صالح الأمر إن اخطأوا ويثبتهم تشجيعاً لهم إن أصابوا ، وكما استصوب رأي المشيرين عليه بالخروج دون المشيرين بالمقام داخل البلد .

وان لمكان القتال ومقاعدها مكانة هامة في النجاح ، يجب تقريرهما على القائد العام للقوات المسلحة حيث يراها من المصلحة في صالح الحرب .
 « والله سميع » اقوالهم « عليهم » بأحوالهم ، اذ تقولوا قيلات حول الحرب ومكانها ومقاعدها ، وتحولوا حالات : « اذ همت طائفتان منكم » .
 لقد مشى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذ على رجله يسوء المؤمنين مقاعد للقتال بنفسه الشريفة وهم قرابة الف تقابلهم ثلاثة آلاف من قريش ، كنفس القياس بين الجيشين يوم بدر ، فلما تخلف من تخلف بغية الغنيمة ، خلف ذلك إهزاماً دموياً وكارثة قارصة يلبل حالة المؤمنين وزلزل طائفة منهم واثبت آخرين ، امتحاناً من الله للمؤمنين وامتهاناً للمتخلفين .
 « اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا . . . » .

هنالك واقع الغل والفشل من طائفتين أولاهما عبدالله بن أبي ومعه قرابة ثلث الجيش حيث تخلف إذ خالف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رأيه في المقام بالمدينة للدفاع قائلاً : يخالفني ويسمع للفتية ، فيتبعهم عبدالله بن عمر وابن حرام والد جابر بن عبدالله يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالاً لا تبعنكم وهم كما قال

= احد في الف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبدالله بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم ابو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ولئن اطعنا لترجعن معنا وقال : « اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبدالله بن أبي فعصمهم الله وبقي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سبعمائة .

الله : هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان ، فرجع عنهم وسبهم ، فهؤلاء لم يحضروا القتال حتى يقال فشلوا ، فانما فلّوا وتخلّفوا .

ولماذا ولي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رأس النفاق عبدالله بن أبي على ثلث الجيش ؟ لكي يعرف به والذين معه انهم منافقون مهما تظاهروا انهم موافقون ، فالمعركة معركة امتحان وامتحان ضمن أنها ميدان دفاع .

ولقد فصلت الآيات الآتية بشأن حرب احد أبعاداً هامة من الواقعة ، نتحدث على ضوءها كما نتحدث ، فهذه هي الطائفة الاولى من « طائفتان » .

والأخرى هي الخمسون الذين قرّروا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع عبدالله بن جبير حيث تركوا قاعدتهم للقتال طمعاً في الغنيمة ففشلوا ، ومن ثمّ هم الفشل ولا فشل - وهو فت في عضد التصميم بجبن - « والله وليهما » فولى أمرهما فلم تفشلا ، وهما حيان من الانصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس لما أجزم عبدالله بن أبي همتا باتباعه فعصمهما الله فثبتوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولقد بقيت رابعة وليها علي (عليه السلام) لم تقل ولم تفشل ولم تهم بالفشل حفاظاً على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمره .

فقد افرقت اصحاب أحد اربع فرق وانكسر المسلمون بهزيمة عظيمة لما خولف أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أولاً فيما ارتآه من الخروج للحرب خارج المدينة فخالفه ابن أبي ، وثانياً ما قرره من مقاعد القتال وأهمها لابن جبير حيث تفرق جل أصحابه فحصل ما حصل ! .

أترى الحال في « والله وليهما » مدح لهما بتلك الولاية الربانية ؟ ام قدح فيها لماذا همتا بفشل والله وليهما ؟ إنها مدح من ناحية حيث عصمهما الله بتلك

الولاية عن تلك الهوة الجارفة إذ لم تخرجنا عن ولاية الله بذلك المهم^(١) فهم داخلون في ولاية الله و«الله ولي الذين آمنوا».

وقدح فيهما من أخرى لماذا همتا «والله وليهما» فيما وعد من النصر ! .
«وعلى الله فليتوكل المؤمنون» ولا سيما في هم العصيان ، فإذا توكلوا عليه يعصمهم بولايته العشرة للمؤمنين .

وهكذا يجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله مضيئاً في أمر الله ، واحترازاً عن نهي الله ، فلو أن الله وكل أمورنا إلينا دوغماً عصمة منه وتسديد لما نجى منا أحد عن ورطات الهلاك ، كيف لا والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - على محنته العظيم - يقول : ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً ، ويقول الله فيه «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» وفي يوسف «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» .

ذلك ، وكيف «همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون» . ولقد نصركم الله يندبر وأنتم أذلة... «إذ كنتم ذلاً لله وظلاً لرسول الله» ، ثم ولم ينصركم في أحد أن لم تكونوا ذلاً ، وكنتم أقوياء دون ذلة في عدة أو عدة :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يَبْدِرُ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢٣)

وترى كيف «وأنتم أذلة» وفيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٨ - اخرج جماعة عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت في بني حارثة وبني سلمة

«إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا...» وما يسري أنها لم تنزل لقول الله «والله وليهما» .

وفيه عن قتادة في الآية قال : ذلك يوم أحد والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا : ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله أنه ولينا .

والمؤمنون الصالحون ، « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » ؟ فهل نزلت « وانتم قليل » ام ضعفاء^(١) كما قيل ؟ وهو قول عليل يختلقه الضعفاء حيث يعارض متواتر القرآن ! .. إنها كما هي « وانتم اذلة » تعني القلة المستضعفة ، وهي ذلة بحساب الخلق الجاهلين ، مهما كانوا أعزة بحساب الخالق « واذكروا إذ انتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (٨ : ٢٦) .

إذا فـ « انتم قليل مستضعفون » هي عبارة أخرى عن « انتم اذلة » تتجاوبان في عناية واحدة ، كما وتعقيبتها واحدة : « لعلكم تشكرون » .
وقد تكون « اذلة » جمعاً للذل لا الدُّل ، فهم كانوا بيدر ذلاً لله - وتحت ظله - ولسوله دون شماس ، فلذلك نصرهم الله وهم قليل مستضعفون ، ولكنهم انهزموا في أحد لتركهم ذلهم إلى شماسهم .

وقد يكون المعنيان معنيين وما أحسنه جمعاً تجاوباً مع أدب اللفظ وحذب المعنى ، أن الله نصركم لأنكم مستضعفون خضعاً لله ولأمره .

و « اذلة » جمع قلة قد تؤيد ذلة القلة في عِدَّة وعُدَّة حربية ، وهم مع ذلك ذُل بطوع الرسول دون شماس .

فلقد كانوا في بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بفرس واحد وجمال قليلة ربما ركب جمع منهم جملاً واحداً وجُلُّهم مشاة ، والكفار هم قرابة ألف ومعهم مائة فرس بأسلحة كثيرة .

(١) نور الثقلين ١ : ٣٧٨ في تفسير العياشي عن أبي بصير قال قرأت عند أبي عبدالله (عليه السلام) « ولقد نصركم الله بيدر وانتم اذلة » فقال : مه ليس هكذا أنزلها الله إنما نزلت « وانتم قليل » .
وفيه عن تفسير القمي في الآية قال أبو عبدالله (عليه السلام) ما كانوا اذلة وفيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما نزل « ولقد نصركم الله بيدر وانتم ضعفاء » .

ولأن غزوة بدر هي بداية الغزوات الإسلامية ، وقد شاهد الصحابة من صلابة المشركين في مكة وقوتهم وثروتهم وهم أولاء لا يملكون ما يملكه هؤلاء من عُدَّة وعُدَّة ، فهم كانوا - على إيمانهم - أذلة في حساب الكفار ، بل وفي حسابهم انفسهم قضية ظاهر الحال ، وهم مع ما هم عليه من ذلة وذلة كانوا ذلاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يخافون في الله أية قوة قاهرة ظاهرة .

ذلك ! « فاتقوا الله » لا سواء « ولا تعبدوا الا اياه » « لعلكم تشكرون »
الله بما نصركم يوم بدر وينصركم إن كنتم متقين شاكرين « ولقد نصركم الله ببدر . . . »

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴾ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿ (١٢٥)

« نصركم . . . إذ تقول » فهما - إذا - مختصان ببدر ، نصره وقوله ، ولكنه نقلة كانت في أحد تنديداً بهم أن لم يصبروا ويتقوا حتى ينصرهم فيه كما نصرهم ببدر ، اللهم إلا في بدايته ولما يتركوا مقاعدهم .

ثم « أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ . . . » سؤال تأنيب ينفي الإحالة المزعومة بالنسبة لتلك الكفاية بإمداد ملائكي ، كأن فيهم من زعم ألا يفيد الإمداد إلا بالجيشوش الأرضية ، حيث القلة المسلمة ترى نفير المشركين لمحاربتهم لأول مرة ، وهم مفاجئون بها إذ خرجوا لالتقاء طائفة العير الموقرة بالمتاجر لا الموقرة بالسلاح ، وقد أبلغهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أوحى إليه لتثبيت قلوبهم وأقدامهم في هذه المفاجأة المفاجعة ، وهم - على إيمانهم - بشر يحتاجون إلى خارقة العون في هذه الحالة الاستثنائية في صورة تبلغ مشاعرهم المألوفة ، وقد أبلغهم ذلك الإمداد شرط الصبر على تلقي صدمات الهجوم الفاتكة الهائلة ، والتقوى

التي تربط القلب بالله في الانتصار والإنهزام .

ذلك - وبأحرى ان تتعلق «إذ» بمحذوف معروف هو «اذكر» فقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) - اذاً - كان يوم أحد تنديداً بالمتخلفين من جيشه عن اصل الحرب او عن مقاعدهم «ألن يكفيكم» الآن كما كان يوم بدر «أن يمدكم ربكم ... بلى يكفيكم» ان كتتم مؤمنين الآن كما كتتم يوم بدر ، بلى و«إن تصبروا وتتقوا» كما صبرتم واتقيتم يوم بدر «ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين» زيادة على بدر لاستمرارية الصبر والتقوى «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» (١) .

وترى كيف «ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين» يوم بدر ، والكفار كانوا يرونهم مثليهم رأى العين : «قد كان لكم آية في فتتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء» (٣ : ١٣) وهو ألفان ، بلى وألف كما «فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» (٨ : ٩) ، فإين ثلاثة آلاف من الفين ، ثم اين هم من ألف ؟

ان الالف المردفين هم اردفوا ألفين آخرين ، مما يوضح ان ثلاثة آلاف لم ينزلوا دفعة واحدة ، فانما «جاءت الزيادة من الله ..» (٢) .

واما «مثليهم رأى العين» فهو موقف آخر من بدر كنصرة ثانية ، فواقع

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٩ - اخرج ابن جريز عن زيد قال قالوا الرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم ينتظرون المشركين يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أليس يمدنا الله كما امدنا يوم بدر فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ألن يكفيكم .. منزلين - فانما امدكم يوم بدر بألف قال فجاءت الزيادة من الله على ان يصبروا ويتقوا .

(٢) مضت هذه الجملة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الهامش السالف فلا نعيد .

النصرة كان بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من حيث تُحارب ولا تُرى ، وظاهر
النصرة أنهم كانوا يرونهم مثلهم - لا لانهم كانوا مثلهم - وانما - رأى العين .

ثم « بلى » يكفيكم ذلك الإمداد الملائكي غير المرئي ، بلى « وإن تصبروا
وتتقوا » كما صبرتم في بدر « ويأتوكم من فورهم هذا » كما أتوكم « بمددكم ربكم
بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » خمسة هنا بديلاً عن ثلاثة هناك ،
و « مسومين » هنا بديلاً عن « منزلين » - فقط - هناك ، وقد صدقهم الله وعده
في بداية أحد فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين كما صدقهم في بدر :
« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر من
بعدهما أراكم ما تحبون .. » (١٥٢) .

والتسويم هو التعليم علامة ، وهو هنا علّه يجمع إلى علامة الحرب
بالمظاهر الجندية ، علامة ملائكية تميزهم عن سائر الجيش .

وقد تجمع « مسومين » - حالاً - بين حال المؤمنين والملائكة ، مهما كان
تسويمها على سواء أو مختلفين (١) تحقيقاً كالمؤيد علوم ربي

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١٢٦) .

ما جعل الله ذلك الإمداد الملائكي إلا بشرى لكم للانتصار ولتطمئن

(١) نور الثقلين ١ : ٣٨٨ في تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن (عليه السلام) في
قول الله « مسومين » قال : العمائم ، اعتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسد لها من بين
يديه ومن خلفه .

وفيه عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : كانت على الملائكة العمائم البيض .
وفي الدر المنثور ٢ : ٧٠ قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : نزلت الملائكة على سبيل أبي
هبدالله ...

قلوبكم به ، لا لأن النصر مربوط النياط - ككل - بأمثال هذه الإمدادات ، وإنما هي موجبات ظاهرة تلتقي مع ظواهر النظرات « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » سواء أكان بأسباب ظاهرة كهكذا إمداد ام غير ظاهرة كسائر النصر .

هنا القرآن - كأضرابه فيه - يحرص على تقرير هذه القاعدة الرصينة المتينة في التصور الإسلامي ، ان مرد الامور كلها إلى الله وليس نزول الملائكة إلا بشرى لهم واطمئناناً لقلوبهم أنساً بالمألوف .

﴿ لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ (١٢٧)

ولماذا « نصركم الله يسر .. وما النصر إلا من عند الله » ؟ « ليقطع طرفاً .. او يكبتهم » .

فهناك غاية محدودة لنصر الله هي أن يقطع طرفاً من الذين كفروا ، نفساً او نفيساً ، وأرضاً او سلطنة أو أية فاعلية ، وهذه حاصلة منذ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحاضري الائمة وزمن الغيبة الكبرى ، ولأن الطرف من الهيكل عضو له أياً كان ، فقد تصور الذين كفروا هيكلاً واحداً له أطراف ، وقد يعني هنا لينقص عدداً من أعدادهم او عُدداً من إعدادهم فيوهن عضداً من أعضادهم ، كواجب نضالي على الذين آمنوا ، مستمر على طول الخط حتى يصل إلى « او يكبتهم » :

فهنا غاية غير محدودة لذلك النصر هو « او يكبتهم » : يصرعهم - ككل - لمكان ضمير الجمع دون تبعض كان في ليقطع ، يصرعهم على وجوههم ، ويهلكهم ويلعنهم ويهزمهم ويذلهم ويغيظهم - والكل معان للكبت - « فينقلبوا خائبين » آيسين لا أمل لهم في رجوع إلى كيان أياً كان ، وهذا في الدولة الاسلامية الاخيرة العالمية حيث لا يبقى للكفر رطب ولا يابس ، اللهم إلا

شردمة من أهل الكتاب في ذمة الإسلام ، لا دور لهم في الحكم .

فكل نصر من الله للمؤمنين محدد بحدود صبرهم وتقواهم حتى يصل الأمر الى اصحاب صاحب الأمر الذين هم نخبة التاريخ الرسالي ككل ، اصحاب ألوية وجيشاً وأنصاراً آخرين من الراجعين معه ، عجل الله تعالى فرجه .

ذلك ! وبصورة عامة الكبت كُتب على الكافرين على مدار الزمن قليلاً او جليلاً ف : « إن الذين يجادلون الله ورسوله كتبوا كما كبت الذين من قبلهم وقد انزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين » (٥٧ : ٥) .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُهْمُ ظَالِمُونَ ﴾ (١٢٨) .

تري ما هو الأمر المسلوب عنه مستغنياً ، وبماذا نصب « او يتوب او يعذبهم » ؟ .

أترأه كل أمر حتى المختارة في حقل التكليف ؟ ويعارضه واقع الاختيار وأدله في الكتاب والسنة ، وبراهينه العقلية والفطرية ! ثم ولا رباط بين سلب الاختيار وموقف الحرب المحرض فيها بتقديم كل مكنة ممكنة ، وبالصبر والتقوى ! ثم « او يتوب عليهم او يعذبهم » وهما ليسا من أمره لا تخييراً ولا تسييراً .

فلا رباط لهذه الجملة ولا تعلق في تصحيح مذهب المجبرة المسيرة ، الواهي المتهافت ، وهم يسمعون الله تعالى يأمر نبيه أن يدعو الكفار إلى الله ، مكرراً دعاءه على أسماعهم ، مصراً على إصغائهم ، ناهجاً لهم طريق الإيمان ومناره ، ومنذراً ومحذراً ، وموقظاً ومبشراً ، وأخذاً بحجزهم من التهافت في النيران ، فكيف له من أمر التكليف شيء ؟ ! .

ام هو الأمر والنهي بعد الدعوة ؟ وهما معها قوائم ثلاث لكيان الداعية

في الدعوة ! فسلبها - إذا - استئصال للرسالة عن بكرتها ، واسترسال للمرسل إليهم في نكرتهم .

أم هو امر التكوين والتشريع ثم له أمر الشرعة بقيادتها في كل حقولها الرسالية للداعية ؟ وذلك واقع لامرّد عنه ، وهناك النصر الموعود والواقع قبل ، وهنا التوبة عليهم او تعذيبهم بعد ، كلاهما من الأمر التكويني الذي ليس له منه شيء ، ثم وليس مشرعاً كما ليس مكوناً ، فإنما هو رسول يحمل شرعة الله دون تخلف عنها قيد شعره ، دون زيادة او نقصان .

فالهداية والإضلال ، والشواب والعقاب، وما أشبه، كل ذلك من أمره تعالى ، اللهم إلا هداية الدلالة وضلالة تركها ، فانها من فعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو لا محالة دال دون ترك على أية حال : « وانك لتهدي الى صراط مستقيم » « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » .

اجل « ليس لك من الأمر شيء » من هدايتهم وضلالهم ، من ثوابهم وعقابهم ، من استصلاحهم او استئصالهم او تدبير مصالحهم او تهديدها ، او تقديم آجالهم او تأخيرها .

فلقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا رأى من الكفار تشديداً في تكذيبه ، ومبالغة في إطفاء نوره سأل الله تعالى ان يأذن له في الدعاء عليهم باستئصال او تعجيل عذاب ، فكان تعالى قد يأذن وقد لا يأذن تبيناً له أنه سبحانه العالم بمسائر الامور ومصايرها ، لعلمه ان منهم من يؤمن ويتوب - كالوحشي قاتل حمزة ، وأضرابه - فيكون - إذاً - زائداً في عداده ، وعضداً من أعضاده .

او يأتي من ظهره من يظهر به الدين ويزيد في المسلمين ، إذ يعلم سبحانه

من المغارب مطالعها ومن المغارس طوالعها ، ومن اوائل التلاقح والتزاوج عواقب التولد والنتائج .

ولقد نزلت هذه الآية يوم أحد إذ شُجَّتْ جبهته ، وكسرت رباعيته ، واستقطرت دماؤه على صفحته المباركة وهو مع ذلك حريص على دعاءهم ، ومجتهد في إنقاذهم... أم وهو عازم على الدعاء عليهم مستأذناً ربه سبحانه « فهم أن يدعوا عليهم فقال : كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى الله ويدعونه الى الشيطان ، ويدعوهم الى الهدى ويدعونه الى الضلالة ، ويدعوه الى الجنة ويدعونه الى النار ، فهم ان يدعوا عليهم فانزل الله : « ليس لك من الامر شيء... » فكف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الدعاء عليهم ^(١) .

فليس له من أمر النصر الخارق لعادته ، ولا من أمر الهدى والضلالة والثواب والعقاب أما شابه من أمور تكوينية او تشريعية ، ليس له شيء ، فأنما هو رسول ، كل كيانه رسالة الله ، دون مشاركة مع الله فيما يختص من تكوين او تشريع بالله ، ولا تفويض له في أي أمر حتى الولاية الشرعية ، فـ « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » دون ما يراه، فضلاً عن سواه .

ثم ترى « أو يتوب عليهم او يعذبهم » معطوفان على « ليقطع طرفاً . »

(١) الدر المنثور ٢ : ٧١ - اخرج ابن جرير عن الربيع قال نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحد وقد شج وجهه واصيبت رباعية فهم . .

وفيه اخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو على اربعة نفر فانزل الله « ليس لك من الامر شيء... » فهداهم الله للاسلام .

فـ « ليس لك من الامر شيء » جملة معترضة بينها ؟ وهو فت في عضد الفصاحة وثلم في جانب البلاغة ! وهو لا يناسب كونه غاية لـ « نصر الله » فان « يتوب عليهم » لا تمت بصلة للنصر ، فقد يتوب ولا نصر وقد لا يتوب مع النصر ! .

أو ان « او » فيها بمعنى « إلا أن » أو « حتى » كما هما من معانيها ؟ وهو الظاهر هنا معنوياً كما هو أدبياً أن « ليس لك من الامر شيء » من التوبة عليهم وعذابهم إلا ان يتوب الله عليهم او يعذبهم ، يتوب عليهم إن تابوا اليه ، او يعذبهم فانهم ظالمون .

إذا فـ « إلا » هنا استثناء منقطع ، ان ليس لك من الامر شيء إلا الله .
 ام و « حتى يتوب عليهم او يعذبهم » فهناك امر المتابعة لأمر الله ، ولماذا - إذا « او » بدلاً عن « حتى » او « إلا أن » ؟ عله لعناية المعنيين مع العلم أن عناية العطف هنا غير مناسبة ، ام انه - ايضاً - معني معها عطفاً لكلا التوبة والعذاب على القطع والكبت ، فقد « نصركم الله بيدر » وما النصر إلا من عند الله « ليقطع او يكبت او يتوب او يعذب » وليس لك فيها من الامر شيء ، وما أجمله جمعاً بين مثلث المعاني لـ « أو » لم تكن تعنيها لا حتى ولا إلا أن ، وما أقبحه تحريفاً من لا يعرف مغازي كلام الله فيخلق تجديفاً (١) .

وفي الحق « ليس لك من الامر شيء » كجملة مستقلة مهما عنت ما عنت فيما احتضت بها - هي من خلفيات ملابسة في السياق تقتضيها ، فيرد قول

(١) نور الثقلين ١ : ٣٨٩ عن تفسير العياشي عن الجرمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) انه قرء « ليس لك من الامر شيء أن يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون » .

أقول : واية صلة بين « فانهم ظالمون » وما قبلها ان كان « يتوب عليهم او يعذبهم » ، ولم يخلد - بعد - بخلد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ابداً ان يتوب او يعذب ، اللهم إلا ان يدعوا الله لقبول توبة ام عذاب ! .

بعضهم « هل لنا من الأمر شيء » وقول آخرين « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ليقول لهم ولاضربهم - حين ليس لرسول الهدى من الأمر شيء :فبأحرى لمن سواه .

فليس لهم - ككل - من الأمر شيء لا في نصر ولا هزيمة ، إلا قدر ما يسعون او يفشلون ، وبذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من بطن النصر وخطر الهزيمة ، ويطامنون من الكبرياء التي يثيرها الانتصار في نفوسهم ومن الزهو الذي تنتفج به ارواحهم وتنفخ اوداجهم .

فليس لهم - ككل - رسولاً ومرسلأ إليهم-شأن إلا تأدية الواجب في كل حقل ، ثم نفص ايديهم من النتائج .

﴿ وَٱللَّهُ مَا فِى السَّمَآوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٩) .

« ليس لك من الامر شيء » إذ لا تملك مما فى السماوات وما فى الارض شيئاً « والله ما فى السماوات وما فى الارض » ملك التشريع والتكوين ، ف « يغفر لمن يشاء » ان يغفر له حين يستحقه ، بأن يشاء هو المغفرة ويعمل له ، « ويعذب من يشاء » ان يعذبه حين يستحقه بان يشاء هو العذاب بما يعمل له .

إذا ففاعل « يشاء » فيها هو الله حيث يشاء مغفرة وعذاباً ، وهو المغفور له والمعذب حيث يشاء هما فيشاءهما الله « وما تشاءون إلا ان يشاء الله » .

ذلك ، ولكنه سبقت رحمته غضبه ، كما تلمح له هذه التعقيبية « والله غفور رحيم » فبرحمته يغفر ما لم يشافِ عدله سبحانه ، كما بعدله يعذب حين لا مجال لغفره ورحمته .

يَنَاطِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا

الرِّبَا أَوْ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٢﴾ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ

مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ

الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾

أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ

وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

هذه الآيات تظهر كأنها منقطعة الصلة عما قبلها وما بعدها من عرض الغزوتين بدر واحد ، ولكنها قريبة الصلة وعريقتهما بالحرب حيث تأمر بمحاربة الأهواء والشهوات ، وتطهير النفوس ، فهي بين سلبات وإيجابيات ، سلباً لكل ثلب وإيجاباً لكل واجب .

فكما أن جهاد النفس وسط في جهاد الكفار ، كذلك آياتها تتوسط بين آيات الجهاد .

ولأن الجهاد من أفضل سبل الله وهو بحاجة إلى انفاق النفس كإنفاق النفس ، فلا بد - إذاً - من التحريض إلى الانفاق ، وليس المرابي ولا سيما بالأضعاف المضاعفة ممن ينفق ، فليترك الربا ثم لينفق ، ثم ليسارع إلى مغفرة الرب .

ولأن المشركين كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة لينفقوا في سبيل حرب المسلمين ، فخيّل إلى المسلمين أنه ليس محظوراً حيث يصرف في حرب المشركين ، وأن الجوى يومذاك كان - ككل - جو أكل الربا أضعافاً مضاعفة ، لذلك تتقدم آية النهي عنها في هذه الآيات التسع الوسيطة بين الغزوتين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٣٠ .

لقد أسلفنا قولاً فصلاً حول الربا بتضاعفها وكل حقولها على ضوء آية البقرة ، فلإنما علينا هنا أن نقف عند أضعاف مضاعفة دون إعادة لما مضى .

أترى أن هذا النص يحرم من الربا - فقط - أضعافاً مضاعفة ، ليتوارى

المرابون وراءه بقاتلهم القالة الغائلة ، المفهوم من هذا النص أن الضعف في الربا والضعفين وما دونها ليست محظورة ، وإنما هي الأضعاف المضاعفة ؟ .

كلا ثم كلا ! حيث الأضعاف المضاعفة هنا ليست شرطاً لأصل الحرمة ، إنما هي مواصفة لواقع كان في الجزيرة^(١) وهو طبيعة الحال في النظام الربوي .

فالنظام الربوي يقيم دورة المال - كأصل ثابت - على الأضعاف المضاعفة ، فهو عملية متكررة على مدار الزمن، ومترتبة من الأضعاف المضاعفة من أخرى ، فليست مقصورة على واقع الحال في الجزيرة ، بل قد تضخمت وتضاعفت ما تضاعفت الجماهير وتضخمت، وتقدمت في الاقتصاد الظالم الغاشم .

لقد كان يكفي نص آية البقرة لحرمة أصل الربا مهما كانت درهماً ، فليست - إذاً - لتقييد بآية الأضعاف المضاعفة ، فإن آية البقرة نص في إطلاقها ، لا تقبل أي قيد مهما كان بنص ينفي الحرمة في بعض مواردنا ، وآية الأضعاف لا تنفي حرمتها في أي مورد ، إنما تثبت حرمة مغلفة في أضعاف مضاعفة ، والمتوافقان من الإطلاق والتقييد لا يتعارضان حتى يقيد مطلقهما بمقيدهما ، إضافة إلى أن نص الإطلاق لا يقبل أي تقييد في نفسه من مقيد سلبي ، فضلاً عن الإيجابي كآيتنا هذه .

والأضعاف المضاعفة ، هي الربا المضاعفة على رأس المال في بيع أو دين أم أية معاملة ربوية ، أن يزداد في الأجل فيضاعف الربا على ما قررت ، ثم تستمر المضاعفات حتى تصبح الألف آلاف دون أي حق إلا مزيد الأجل ، وذلك هدم لأركان الاقتصاد من أصولها .

(١) الدر المنثور ١ : ٧١ - عن مجاهد كانوا يتبايعون إلى الأجل فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في

الأجل فنزلت هذه الآية ، وأخرج مثله عن مجاهد وسعيد بن جبير .

« لا تأكلوا ... واتقوا الله » في أكل الربا وما سواها من باطل الأكل والعمل « لعلكم تفلحون » في حياتكم الإنسانية والإيمانية ، شقاً لعراقيل الحياة بسفينة التقوى ، قضاء حاسماً على الطغوى ، فإن الإسلام يعني للأمة المسلمة نظافة حيوية في كل حقولها ، والنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على معركة النضال أمر قاصد مفهوم في المنهج التربوي الإسلامي ، فإن النظام الربوي لا يلائم إيمان الجهاد وجهاد الإيمان ، فلا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويجاهد في سبيل الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ١٣١ .

فأكل الربا أضعافاً مضاعفة هو مع الكافرين في نارهم المختصة بهم ، حيث النار دركات ، منها ما يختص بالكافرين ، كما منها ما يختص بالمنافقين ومنها ... فلا يدخل أكل الربا مهما كان مسلماً النار التي يدخلها عصاة المسلمين .

ذلك لأن الربا تخلف ويلات بشعة لا تتجبر ، وتعمل حريقاً عريقاً على حياة المجتمع فتحرقها عن بكرتها وتُحرق الفتها ، فهي نار تدخل أكلها « النار التي أعدت للكافرين » .

فتري إن أكل الربا كفر بالله وإن كان آكله مسلماً ؟ أجل انه كفر عملي داخل في طليق الكفر ، ثم وكما ان الكفر دركات ، كذلك « النار التي أعدت للكافرين » دركات ، فلا يعني دخول المرابي في هذه النار تسويته مع سائر الكفار في دركات النار ، ثم وأكل الربا وإن كان كافراً عملياً فقد يورد صاحبه الى كفر عقيدي حين يحلل الربا بالمآل ليبرر موقفه من أكل الربا .

وهنا « أعدت للكافرين » دليل وجود النار بمعداتها ، والقدر المعلوم منها نار البرزخ ، وأما نار القيامة الكبرى فليست الآن موجودة كما وزبانيته لا

تحصل الا بوقودها وهي رثوس الكفر والأعمال الكافرة .

فقد يعني الإعداد للنار حاضر معدات النار في حياة التكليف من الوقود الأصيل وما دونه ، أم وإعداد مكانها وهو في السماوات والأرض ، ولكن إعداد الجنة أكثر فائها مخلوقة حسب آية النجم .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٣٢ .

طاعة لله طليقة عن اي تخلف ، حقيقة لساحة الربوبية ، هي طاعة في كتابه ، ثم وطاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في سنته الجامعة على ضوء كتاب الله وطاعته : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » .

« أطيعوا ... لعلكم ترحمون » وتري حين تكون طاعة الله والرسول منجحة مفلحة فما هو دور الترجي على وشك الشك في « لعلكم ترحمون » ؟ .

علّه لأن الرحمة الربانية غير واجبة لفاعليها فهي من فضله وليست من عدله ، فهي - إذاً - غير محتمة عليه فيصح الترجي لها لمن اطاع الله ورسوله ؟ ولكنها واجبة عليه بما كتبها على نفسه للتائبين من ذنوبهم فضلاً عن المطيعين جملة وتفصيلاً : « وإذا جاءك الذين لا يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » (٦ : ٥٤) كما « كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ... » (٦ : ١٢) ، فالخشر الرحمة والرحمة في الخشر مكتوبان عليه تعالى بما كتب على نفسه فكيف « لعلكم ترحمون » ؟ ، علّه لأن الطاعة الحاضرة لله والرسول لا يضمن الموت على الطاعة ، فعله يموت عليها ، وعله لا ، وذلك مجال الترجي للمؤمنين ككل ، ولكن المعصومين السابقين والمقربين ، المضمون لهم الموت على طهارة العصمة ، هم كذلك مضمونه لهم الرحمة ، ولكنهم - على

ضمائنا - يترجونها اعتباراً على عدم استحقاقها كأصل أولى مهما كتب ربكم على نفسه الرحمة .

وقد تعني « لعلكم » تعليق واقع الرحمة على واقع الطاعة طبقاً عن طبق . ثم لطاعة الله والرسول درجات ، ومهما كانت رحمة الثواب مضمونه لمن مات على الطاعة ولكن رحمة الغفران عن السيئات غير مضمونة إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، وكذلك رحمة ترفيع الدرجات ، فـ « لعلكم ترحمون » تشمل كافة الرحمات واجبات وراجحات في الدنيا والآخرة ، وكلها تتبني طاعة الله والرسول ، درجات من الرحمات بدرجات من الطاعات « وان ليس للانسان إلا ما سعى » .

ذلك وكما نرى هذه الغاية المترجاة في ست أخرى من الآيات منها : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » (٣ : ١٣٢) .

فلا رجاء في رحمة لمن لم يطع الله والرسول ، إنما هو للمطيع مهما اختلفت درجات الرجاء الى قيمتها المعنية للمعصومين .

ثم وليس فحسب أن « اطيعوا . . » ما صدق أنها طاعة ، بل : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » ١٣٣ .

« سارعوا » هي سباق في السرعة ، و « إلى مغفرة من ربكم » تعم مغفرة الدنيا والآخرة ، كما وتعم الى مغفرة السيئات الحاصلة مغفرة السيئات الهاجمة ولما تحصل في الأولى .

والمسارعة إلى المغفرة تعني المسارعة إلى أسبابها المعنية في الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً .

(١) والست الأخرى هي ٧ : ٦٣ و ٢٠٤ - ٢٤ : ٥٦ - ٢٧ : ٤٦ - ٤٥ - ٤٩ : ١٠ .

هنا « سارعوا » وفي الحديد « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (٢١)، فلا بد من سباق في سرعة وسرعة في سباق - على مدار حياة التكليف - « الى مغفرة من ربكم » وهي كما لمحنا إليه لا تخص مغفرة عن عصيان ، بل وعن عروضة ، ثم مغفرة في ترفيع درجة ، فهي مثلث من المغفرة لكل زاوية أهلها حسب سباقه ومسارعه .

وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) في سبب نزول هذه الآية انها تفضيلة للأمة المرحومة على سائر الأمم ^(١) ولكنها مؤولة بما لا ينافي عدل الله ، فانما هي مزيد الرحمة .

واما « جنة عرضها السماوات والأرض » فتراه عرضاً وجاه الطول ؟ وليس « السماوات والأرض » هما - فقط - عرضاً حتى يقابل عرضهما طولهما ! .

أم هو عرض السعة السطحية ؟ فكذلك الأمر فانها كرتان معمقتان دون سطح فقط كما ليستا عرضاً فقط ! .

أم هو سعة السماوات والأرض بمثلث العرض والطول والعمق الدائرية أماهيه ؟ وهذا هو المعنى الصالح هنا للعرض ، حيث العرض في المسطحات هو أقل الإمتدادين وأكثرهما ، وفي المجسمات هو اقصر الامتدادات الثلاث

(١) الدر المنثور ٢ : ٧٢ - اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح قال قال المسلمون يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بنو اسرائيل كانوا اكرم على الله منا كانوا اذا اذنب احدهم ذنباً اصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجذع انفك اجذع اذنك الفعل كذا افعل كذا فسكت فنزلت هؤلاء الآيات « وسارعوا - الى قوله - فاستغفروا لذنوبهم » فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا انخبركم بخير من ذلكم ثم تلا هؤلاء الآيات عليهم .

واطلوها ، وفي الأسطوانات والمخروطيات عن إمتداد قواعدها وسهامها ، فعرض
السموات والأرض هو الأبعاد الكروية الأسطوانية .

ثم ترى ان السماوات والأرض هما بنفسهما مكان الجنة فأين - إذا - النار ؟

فهل هما متداخلتان دون زحام بينهما مكاناً ولا مكانة ، فهما لأهل الجنة
جنة ولأهل النار نار ، كما الغارقون في النار « أغرقوا فأدخلوا ناراً » (٧١ : ٢٥)
بلا زحام بين الماء والنار الكامنة فيه بتدبيره تعالى ؟ وهكذا تؤول الروايات
القائلة « اذا جاء النهار فأين الليل »^(١) ولكنها بعد غير مرضية .

(١) الدر المنثور ٣ : ٧٢ - اخرج ابن جرير عن الترمذي رسول هرقل قال قدمت على رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) بكتاب هرقل وفيه انك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات
والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سبحان الله فأين
الليل اذا جاء النهار ؟ .

وفيه اخرج البزار والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه
وآله وسلم) فقال : ارأيت قوله : وجنة عرضها السماوات والأرض - فأين النار ؟ قال : ارأيت
الليل اذا لبس كل شيء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله ، قال : فكذلك حيث شاء الله .
وروى في المجمع ما رواه في الدر المنثور أولاً بزيادة « وهذه معارضة فيها اسقاط المسألة لأن القادر
على ان يذهب بالليل حيث شاء الله قادر على أن يخلق النار حيث شاء .

أقول : واظن ان هذا الدليل من الراوي وقد ورد في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي
(٥ : ٢٤١) . كبيان للرواية .

وعلى اية حال اذا عني « فأين الليل اذا جاء النهار » انها معاً موجودان لوقت واحد متداخلين في افق
واحد ؟ فهذا بين البطلان .

واذا عني ان مكانها واحد وهما يتواردان عليه تلو بعض دون اجتماع لوقت واحد في افق واحد ؟ فهو
على صحته في نفسه لا يناسب مكاني الجنة والنار اذ ليستا تلو بعض مكاناً ، لانهما معاً موجودتان .
واذا عني ان بالإمكان تداخلهما في مكان واحد وزمان واحد كما تداخل الليل والنهار مهما اختلف
الزمان ، فمع ان المثال لا يكفي تمثيلاً لتداخل الزمان ، فالآية لا تناسب ذلك التداخل كسائر آيات =

« وجنة عرضها السماوات والأرض » لا تناسب انهما مكانها ، فصحيح التعبير عن ذلك العرض : « وجنة هي السماوات والأرض » ثم آية الحديد توضحها اكثر لمكان « كعرض السماء والأرض » ولا بد من مفارقة بين المشبه والمشبّه به ، مهما تشابها في جهة او جهات ، واذا كانت الجنة في نفس السماوات والأرض ، فهي نفسها مكاناً دون أن يشبهها .

ثم « جيء يومئذ بجهنم » وأضرابها دليل اختلاف مكانها دون أي تداخل مهما أمكن في قدرة الله، ولكنه تداخل - على صحته - دون مرجح ، بل هو مزعج لأهل الجنة باشتراكهم مع أهل النار في المكان ، ثم « إن منكم إلا واردها .. ثم ننجي الذين اتقوا » - وكثيراً أضرابها - تدل على الخروج عن النار لمن اتقى ولا خروج في المتداخلين ، بل هو خروج عن حالة سيئة الى حالة حسنة .

وبعد كل ذلك فمكان الجنة معروف في آية النجم « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى » (١٥) .

فكما السدرة المنتهى هي منتهى الكون المخلوق على السماء السابعة ، كذلك جنة المأوى التي عندها ، فليس جواب « فاين النار إذا ؟ » إلا أنها تحت الجنة المأوى ، سواء أكان السماوات والأرض بتمامهما ، أم بعضاً منهما ، « وجيء يومئذ بجهنم » مما يدل على أنها لا تخلق على كل السماوات والأرض ، وإلا لم تصح « جيء » ثم الجنة فوق النار لآية النجم و « في جنة عالية » أي تعلو

= الجنة والنار ، ولا سيما آية النجم المقررة مكان الجنة عند سدرة المنتهى ، إذا فهذه الأحاديث مختلفة إذ لا تأويل لها صالحاً في نفسه ولا في حساب القرآن ! اللهم إلا أن يُعنى من التشبيه ان مكان الجنة والنار في أفقين مختلفين كما الليل والنهار ، وهذا تأويل جميل وقد يؤيده حديث العياشي عن الصادق (عليه السلام) قوله في الجواب : اذا وضعوها كذا وبسط يديه احدهما مع الأخرى اذا فالجنة فوق النار وهذا ما تعنيه آية النجم .

النار ، مهما كانتا قريبتين إلى بعض البعض لمكان الترائي والمنادات ، ام غريبين والترائي بينهما بسبب رباني كما نجده هنا بضعاف الأسباب الخلقية .

فقد تعني الآيتان ان مثلث السعة للجنة هو سعة السماوات والأرض (١) ويا لها من سعة لا تتصور ، ونحن بعد عاجزون عن تقدير سعة أرضنا تماماً .

وأما « أعدت للمتقين » فقد تعني ما عنته من حيث الإعداد « أعدت للكافرين » ولكن الجنة موجودة الآن حسب آية النجم وما اشبهها ، مهما كانت الصالحات في الجنة كما الطالحات في النار هي المعدات للثواب والعذاب ، ولكن سبق رحمته غضبه ، وسعة رحمته أكثر من عدله تقتضي في الجنة إعداداً أكثر من النار ، كما وأن نفس الجنة بحاصلها وما سيحصل كلها من فضل الله .

وآيات خراب السماوات والأرض لا تخرب الجنة التي هي محيطة بالسماوات والأرض ، مهما خربت جحيم البرزخ وجنته بخراب السماوات والأرض ، حيث ينتهي دورهما بانتهاءهما ، وعلى أية حال « أعدت للمتقين » وتراهم من هم ، لأنهم :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣٤ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْمَلُونَ ﴿ ١٣٥ ۝

هذه المواصفات الست هي بين مثلث الإحسان ، كما « والله يحب

(١) نور الثقلين ١ : ٢٨٩ في تفسير العياشي عن داود بن سرحان عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : اذا وضعوها كذا وسط يديه احدهما مع الأخرى أقول قد يعنى ذلك الوضع الوضع الثلاثي للسماوات والأرض .

المحسنين « تعقية لها ، ومثلث الازالة لخلاف الحسن والإحسان :

١ « الذين ينفقون في السراء والضراء . . »

« السراء والضراء » هما الفعلان المؤنث من سرّ وضرّ ، وهما وصفان لمحدوف هو طبعاً معروف كـ « الحياة - الحالة » الأكثر سرّاً أو ضرّاً .

وكما « ينفقون » يعم كل نفس ونفيس ، كذلك « السراء والضراء » تعمان كل أبعاد الحياة السارة والضارة .

فليس انفاقهم فقط في السراء ثم هم في الضراء ييخلون ، فلأغما حياتهم هي الإنفاق في الإقبال والإدبار ، حين السرّ والضرّ كحالة عامة أم في جانب الانفاق ، فهم اولاء في سرورهم وحزنهم ، في يسرهم وعسرهم - وعلى أية حال - الإنفاق انفسهم ونفائسهم في سبيل الله فلا يفشلون ولا ينجلون ، أجل وإن السراء لا تبطرهم فتلهيهم عن الإنفاق، ولا الضراء تضجرهم فتنسيهم ، فلمهم ارواح شفيفة عفيفة متطلقة من كل القيود والأغلال التي تقيدهم وتحول بينهم وبين حق الإنفاق وصالحه .

وهنا يتقدم الإنفاق على سائر الست لأن له دوره العظيم العميم في عامة مسائل الإيمان ومنها الجهاد في سبيل الله الذي يتطلب الإنفاق من خالص النفس والنفيس .

٢ « والكاذمين الغيظ » : غيظهم انفسهم على الآخرين وغيظ الآخرين عليهم وعلى آخرين ، كظماً مثلثاً للغيظ ، الذي له دور عظيم في إخماد نيران الفتنة بين المؤمنين ، والكظم في الأصل هو شد القربة بعد امتلاءها ، فكضم الغيظ هو شده بعد الإمتلاء منه بحيث كان يتفجر منه لولا شده .

فـ « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً^(١) » و « ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظم عبد الله إلا ملأ الله جوفه إيماناً^(٢) » .

وان كظم الغيظ وهو صرعة النفس الطائشة ، هو أشد من كل صرعة ، فـ « ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب^(٣) » . . . ان يمتلي الرجل غيظاً ثم يغلبه^(٤) فقد « وجبت محبة الله على من أغضب فحلم^(٥) » . ألا إن الغضب جرة توقد في جوف ابن آدم ألم تروا إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فليزق بالأرض ، ألا إن خير

- (١) الدر المنثور ٢ : ٧٢ عن أبي هريرة في الآية ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . . . وفي النور الثقلين ١ : ٣٩٠ في اصول الكافي بسند متصل عن سيف بن عميرة قال : حدثني من سمع ابا عبدالله (عليه السلام) يقول : من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه امضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه .
- (٢) الدر المنثور ٢ : ٧٣ عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وفي نور الثقلين ١ : ٣٩٠ في كتاب الخصال عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : ما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها .
- (٣) المصدر عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ليس . . .
- (٤) المصدر اخرج البيهقي عن عامر بن سعد ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مر بناس يتحادون مهنساً فقال : المحبون الشدة في حمل الحجارة انما الشدة ان يمتلي . . . وفيه اخرج البيهقي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) ان جارية جعلت تسكب عليه الماء يتهيا للصلاة فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشججه فرفع رأسه اليها فقالت : ان الله يقول : والكاظمين الغيظ ، قال : قد كظمت غيظي ، قالت : والعاقين من الناس ، قال : قد عفا الله عنك ، قالت : والله يحب المحسنين ، قال : اذهبي فأنت حرة .
- (٥) المصدر اخرج الاصبهاني في الترغيب عن عائشة سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : . . .

الرجال من كان بطيء الغضب سريع الفيء وشر الرجال من كان بطيء الفيء سريع الغضب فاذا كان الرجل سريع الغضب سريع الفيء فانها بها واذا كان بطيء الغضب بطيء الفيء فانها بها . . . (١) .

فالقدره على الإنفاذ - كما في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - هي من شروط الإحسان في كظم الغيظ ، حيث العاجز على الإنفاذ ، الخائف منه ، هو مكظوم غيظه بطبيعة الحال شاء أم أبى ، اللهم إلا غيظاً دون خلفية له على صاحبه .

(١) المصدر اخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة الى مغير بن الشمس حفظها من حفظها ونسيها من نسيها واخبر ما هو كائن الى يوم القيامة ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : اما بعد فان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ألا ان الغضب . . . وان خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب فاذا كان الرجل حسن القضاء سيء الطلب فانها بها واذا كان الرجل سيء القضاء حسن الطلب فانها بها ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس ان يقول بالحق اذا علمه ألا ان لكل غادر لواء بقدر غدرته يوم القيامة ، ألا وان اكبر الغدر غدر امير العامة ألا وان افضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر ، فلما كان عند مغير بن الشمس قال : ألا إن ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى .

وفيه اخرج البيهقي عن الحسن قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الغضب جرة في قلب ابن آدم الم تروا الى انتفاخ او داجه وحرمة عينيه فمن حسن من ذلك شيئاً فان كان قائماً فليقعد وان كان قاعداً فليضطجع .

وفيه اخرج ابن أبي شيبة واحمد وابن حبان والطبراني عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان احبكم الي واقربكم مني في الآخرة أحاسنكم اخلاقاً وان ابغضكم الي وابعدكم مني في الآخرة أسوءكم اخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون .

ثم وليس كظم الغيظ بصورة طليقة إحساناً ، فقد يكظم الغيظ في حالة حاضرة ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الفائر الى إحنة غائرة ، والغضب الظاهر الى حقد دفين ، وحاضر الغيظ هي اقل محظوراً من غائره ، ولا يعني كظم الغيظ إلا هضمه عن بكرته ، عن ظاهره وغائره ، في مثلث القول والحال والفعال ، في الحاضر والإستقبال .

٣ « والعافين عن الناس » عفواً طليقاً عن مظالمهم التي تقبل العفو ، وأما العفو الذي يشجع على الظلم فليس ممنوحاً ولا مسموحاً ، إنما هو العفو الذي لا محذور فيه ، ولا سيما الذي يحول سيئاً إلى حسن وإلى إحسن ، وذلك واجب كل مسلم لأنه قضية واجب الإحسان في سبيل الدعوة إلى الله « والله يحب المحسنين » وهم هنا المنفقون الكاظمون العافون ، فقد يتحول الإنفاق والكظم والعفو إلى الاساءة كأن ينفق في سبيل الله بدلاً عن سبيل الله ، ويكظم الغيظ عمن يجب تأديبه وضربه أو قتله ، أو يعفى عمن يشجع بعفوه إلى تخلف أكثر وأكثر ، فانما هذه الثلاث ممدوحة إذا كانت في سبيل الله ، إحساناً إلى عباد الله الذين يستحقونه .

٤ - ٥ « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله . . » والفاحشة هي المعصية المتجاوزة حدّها في ذاتها ام الى غير فاعلها شخصياً أم جماعياً، ومن الثاني المعصية المتجاهر بها حيث تشجع الجماهير على اقترافها ، أو الجامعة بينهما فأشد وأنكى ، فذلك المثلث من المعصية فاحشة مهما اختلفت دركاتها .

ثم « أو ظلموا أنفسهم » عام بعد خاص ، فان العصيان أيأ كان ظلم بالنفس سواء أكان فاحشة ام سواها ، صغيرة ام كبيرة .

وهنا « ذكروا الله » دليل على أن العصيان هو من خلفيات النسيان ،

فالذاكر الله وهو يعرفه بالربوبية لا يعصى الله بفاحشة أم سواها ، فإنما يعصم الإنسان عن أي عصيان ذكر الله بعد معرفته .

ولأن النسيان هو من أسباب العصيان فلا يجبر العصيان إلا بذكر الله ، ثم « فاستغفروا لذنوبهم » طلب الغفر بقال وحال وأعمال ، فليس الاستغفار مجرد القول والقلب قال والعمل خالٍ عن الاستغفار ، فالاستغفار فعل أصله من القلب ثم يظهر في القول والفعال .

« ومن يغفر الذنوب إلا الله » سؤال إيقاظ للغافلين وإيعاظ للمتساهلين ، وتأنيب بمن يظن أن هناك من يغفر الذنوب إلا الله ، أو لا غافر للذنوب حتى الله .

ويا للسماحة الطليقة الربانية ، أن الله لا يدعونا إلى سماحة فيما بيننا حتى يُطلعنا على جانب عميم من سماحته ، أنه يعفو عن كل فاحشة وظلم بالنفس عند الذكر والاستغفار ، شرط أن :

« ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » الإصرار على ما كان نتيجة النسيان بعد ما ذكروا الله واستغفروه ، وعليها المعنيان بـ « وهم يعلمون » مهيا عنت معها الإصرار عن علم بمادة الإصرار حظراً ، دون جهل سائد أو تجاهل عامد ، و « الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار (١) فـ « لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار » (٢) بل

(١) نور الثقلين ١ : ٣٩٣ في أصول الكافي عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) في قول الله :

ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون قال : الإصرار .

(٢) المصدر عن الجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : ...

و « لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه »^(١) .

ذلك لأنه دليل على عدم الإيمان حين لا تسوءه سيئة ، فالخوف من العقاب يبعث العاصي على الاستغفار والندم^(٢) .

و « انه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار ، وما خرج عبد من ذنب إلا باقرار »^(٣) ولقد كان يدعو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا »^(٤) .

إنه ليس « ومن يغفر الذنوب إلا الله » مشيرة للإستهتار ، فإنما تُجفل العاصي وتطمعه في الغفران وتثير الاستغفار .

فلقد يعلم الله ماذا خلق ومن ذا خلق ، خلق هذا الإنسان بما يحيط به ،

(١) المصدر في اصول الكافي عن ابي بصير قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : لا والله ...

(٢) المصدر عن ابان بن تغلب قال : سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : ما من عبد اذنب ذنباً فندم عليه الا غفر الله له قبل ان يستغفر وما من عبد انعم الله عليه نعمة فعرف انها من عند الله الا غفر الله له قبل ان يحمده .

(٣) المصدر عن معاوية بن عمار قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : انه والله .

(٤) الدر المنثور ٢ : ٧٧ - اخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ...

وفيه اخرج البيهقي عن ابي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اربعة في حديقة قدس في الجنة ، المعتصم بلا إله إلا الله لا يشك فيها ومن اذا عمل حسنة سرته وحمد الله عليها ومن اذا عمل سيئة .

سأته واستغفر الله منها ومن اذا اصابته مصيبة قال انا لله وانا اليه راجعون .

وبالشهوة والحيونة أمام الفطرة والعقلية الإنسانية ، فقد تهبط به حماة الشهوة إلى دركات من الفاحشة فينزو نزوة الحيوان ، ويترك حظوة الإنسان .

إن الله يعلم منه كل ذلك لأنه هو الذي خلقه وقدره ، فلا يقسو عليه في تخلفاته ولا يبادر إلى طرده من رحماته ما دامت شعلة الإيمان في قلبه غير منطفئة ، ونداوته غير منتفية ، عارفاً ربه وما يتوجب عليه أمامه ، فيأمره بالذكر بعد النسيان ويغفر له حين يستغفره « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

فليس الله بذلك الغفر الواسع داعياً إلى الترخص (١) تمجيذاً للعائثر الهابط ، والعاهر الخابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع كما الواقعية البشعة تهتف له ، فانما هي إقالة عثرة واستجاشة الرجاء اليه في النفس الإنسانية كما يستجيش فيها الحياء ، فهو يريه بين كفتي ميزان الخوف والرجاء ، دونما رجاحة لإحداهما على الأخرى لكيلا يثار جف .

اولئك هم المؤمنون في الحق ، الموعوظون الموعودون بالغفران ، دون المستهترين المصيرين غير الذاكرين الله ولا المستغفرين ، فلأنهم خارج الأسوار ، مؤصدة في وجوههم تلك الأستار ، ولكنهم - على ما هم عليه - لا يعاجلون بالعقوبة ، فلهم كما لسواهم مفتوحة باب التوبة إن أنابوا إلى الله ، وعلينا أن نتخلق باخلاق الله فلا نعاجل من ظلمنا بالعقوبة ما فيه مجال للإصلاح ، أم لا يخاف منه الإفساد .

فهنا لك - لما تنزل هذه الآية - يصرخ ابليس بعفاريته قائلاً : « من لها حق قال الوسواس الخناس أنا لها ، قال : بماذا ؟ قال : أعدهم وأمنهم حتى يواقعوا »

(١) خلاف ما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو لم تذبوا لجاء الله بقوم يلذبون كي يغفر لهم (الدر المنثور ٣ : ٧٧) فانه من اختلافات المتخلفين عن شرعة الحق ، لانه تشجيع على الذنب ، امرأ بشيء ينهى عنه ! .

الخطيئة فاذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الإستغفار ، فقال : أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة » (١) .

فـ « رحم الله عبداً لم يرض من نفسه أن يكون إبليس نظيراً له في دينه وفي كتاب الله نجاة من الردى وبصيرة من العمى ودليل إلى الهدى وشفاء لما في الصدور فيما أمركم به من الإستغفار مع التوبة ... » (٢) .

فحين يهددنا إبليس « يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما كانت أرواحهم في أجسادهم ، يُتهدد بقول الله : وعزتي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني » (٣) فـ « استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور » (٤) وانت

(١) نور الثقلين ١ : ٣٩١ في أمالي الصدوق بإسناده إلى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : لما نزلت هذه الآية « وإذا فعلوا فاحشة ... » صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور فصرخ بأعلى صوته بعفارية فاجتمعوا إليه فقالوا : يا سيدنا لم دعوتنا ؟ قال : نزلت هذه الآية فمن لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا أو كذا ، قال : لست لها ، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال : لست لها فقال الوسواس الخناس ...

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٩٠ في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : رحم الله عبداً - إلى - مع التوبة ، قال الله « والذين إذا فعلوا فاحشة ... » وقال « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه بالتوبة والأقلاع عما حرم الله فانه يقول : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، فهذه الآية تدل على أن الاستغفار لا يرفعه إلى الله إلا العمل الصالح والتوبة .

(٣) الدر المنثور ٢ : ٧٧ - أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال قال إبليس وعزتك ... فقال الله وعزتي ...

(٤) المصدر أخرج البراز والبيهقي في الشعب عن أنس قال جاء رجل فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إني أذنبت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أذنبت فاستغفر ربك ، قال : فإني استغفر ثم أعود فأذنب فقال : إذا أذنبت فاستغفر ربك ثم عاد فقال في الرابعة استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور .

مأجور ، أو اعلم أنه « لا يمل الله حتى تمل »^(١) فليس الإصرار إعادة الذنب مع التوبة والاستغفار ، إنما هو ترك الندم بلا توبة واستغفار .

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾^{١٣٦} .

« أولئك » الأكارم « جزاءهم » عند ربهم في الدارين « مغفرة من ربهم » « وجنات » في البرزخ والقيامة « تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » - دون خروج عنها - عطاء غير مجذوذ « ونعم أجر العاملين » فليش أجر العاملين التاركين عمل الإيمان إلى قوله ام وعقيدته .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^{١٣٧} .

« قد خلت من قبلكم » في أمم خلت ، بقرون مضت « سنن » حسنة وسيئة « فسيروا في الأرض » سيرا تاريخيا جغرافيا في أرض التكوين والتدوين وأفضله القرآن فانه معرض عريض للأرضين « فانظروا » نظر العقلية النابهة ، نظر البصر الى البصيرة « كيف كان عاقبة المكذبين » في حياتهم الدنيا فضلا عن الأخرى... ذلك وإن القرآن يربط غابر الإنسان بحاضره وحاضره بغابره ، ثم ينتج من خلال الغابر والحاضر إلى مستقبل زاهر لو أن الناس اعتبروا فعبروا قناطر الحياة بسيارات العبر ، وشقوا امواج الفتن بسفن المعبر .

(١) المصدر اخرج لييهقي عن عقبه بن عامر الجهني ان رجلاً قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخطأنا بذنب ؟ قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ؟ قال : يغفر له ويتاب عليه ، قال : فيعود ويذنب ؟ قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ؟ قال : يغفر له ويتاب عليه ، قال : فيعود ويذنب ؟ قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر ويتوب ؟ قال : يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا .

أجل وان في الأمم الخالية معتبراً متبصراً ، فانظروا الى فراعنة التاريخ
ومباردته حيث لم ينفعهم جمعهم وسلطانهم شيئاً ، ولم يحمهم شواهد قصورهم
ولا ذخائر كنوزهم ، فهم بعد أحاديث لم تبق منهم باقية إلا باغية من معاصرتهم
ومآثرهم الظالمة الطاغية .

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ١٣٨ .

« هذا » القرآن ، وهنا « هذا » البيان « بيان للناس » دون خفاء ولا غطاء
« بيان » لهم كلهم ، ثم « وهدى » وموعظة للمتقين « فمهما كان هدى دلالية
للناس كلهم ، فليس هدى واقعية إلا للمتقين ، الذين إذا وقوا ببيان اتقوا وإذا
هدوا اهتدوا .

ومن الفارق بين البيان والهدى والموعظة ، ان البيان ليس إلا عن خفاء ،
خفاء الجهل بالحق ، او خفاء التجاهل عنه ، ام خفاء التصديق به ، فالبيان أياً
كان يفيد إزالة الشبهة ، والهدى بيان لطريق الرشيد ، والموعظة بيان لمحاظير
طريق الرشيد ، فالمتقي إنما يحتاج الى الهدى - حيث يتحرى عنها - فيتبعها ، ثم
إلى الموعظة فيتحرز عما يوعظ به ، وغير المتقي يحتاج الى بيان حتى يحتاج جهله او
تجاهله .

فلا اثر للبيان ما لم يكن التقوى ، إلا أن من البيان ما يبعث على
التقوى ، لأن غير المتقي جاهل بما يحرضه على التقوى .

فالقرآن بيان للناس ككل ، لمن تبين به : « ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل
شيء » (١٦ : ٨٩) و « موعظة وشفاء لما في الصدور » (١٠ : ٥٧) ف « هذا
بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » (٤٥ : ٢٠) ، وإذا كان « هذا بيان
للناس » فليكن تفهمه ميسوراً لهم كناس ، فالمعتذرون عن فهمه او تفهمه سواء
في كونهم من النسناس الخناس ، أكانوا من المؤمنين به المغالين تقصيراً في

تفهمه ، وانه خاص بالمعصومين (عليهم السلام) ، ام كانوا ممن « قالوا » قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم » .

فالقرآن « بيان للناس » ما تبينوا ، بيان في ظواهره ومظاهره ، ثم في إشاراتهِ ولطائفهِ ، مهما اختصت حقايقه بكل تأويل بالرسول وعترته المعصومين (عليهم السلام : ، فـ « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

ذلك - وإلى تعبئة وتقوية وتأسيس وتثبيت ، رجوعاً الى ما مضى من مآسي غزوه أحد ، وبإجابات جادة عن شطحات الأقاويل حول هزيمته العظيمة :



مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

الفهرس

الموضوع	الصفحة
(سورة آل عمران): التصوير في الإرحام في بحث علمي .	١٩-١٥
آية التقسيم إلى محكمات ومتشابهات في قول فصل- التعريف بها والاجابة عن اثني عشر سؤالاً	
حول مواضع الآية- نظرات ثلاث حول الآية .	٤٩-١٩
كيف «شهد الله انه لا اله الا هو» شهادة لنفسه؟ هي عشرة كاملة	
من مختلف الشهادات القاطمة .	٦٧-٦٢
«إن الذين عند الله الاسلام»؟ فان حاجوك ..	٧٠-٦٧
كيف «تؤتي الملك من تشاء و...»؟ إنه بين إيتاء تكويني وتشريعي .	٨٣-٧٥
آيات إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هي من ادلة كروية الأرض ! .	٨٦-٨٣
ولاية الكافرين؟ «إلا ان تتقوا منهم تقاة» .	٩٢-٨٦
حضور الاعمال يوم يقوم الاشهاد؟ .	٩٤-٩٢
هل «ان الله اصطفى آدم» تلمح لكونه وليداً من غيره؟ كلا! .	٩٩-٩٨
من هم آل ابراهيم وآل عمران؟ .	١٠٥-٩٩
ولادة مريم العجبية في دعاء امها وفي واقعها بقول فصل-: كيف نذرت ما في بطنها	
محرراً؟ كلام حول النذر .	١٢١-١٠٥
«هنالك دعا زكريا ربه...» هل ان «حصوراً» تعني الحصر عن الزواج	
وهو سنة ايمانية؟ ! .	١٢٥-١٢١
ليس «أنى يكون لي غلام» تشكك في وعد الله .	١٢٧-١٢٥
هل ان مريم (ع) اصطفت على كل نساء العالمين حتى الصديقة الطاهرة سلام الله عليها؟	
وهي في العصمة القمة؟	١٣١-١٢٧
كلام حول الكفالة والاقتراع .	١٣٣-١٣١
المسيح (ع) كلمة من الله؟ «ويكلم الناس في المهد» ليست دليلاً على	
رسالته الفعلية حينه .	١٤٤-١٣٧
كيف «... اني اخلق لكم...»؟ و«هل من خالق غير الله»!	١٤٨-١٤٥

- هل ان الإنجيل يحمل شرعة مستقلة؟ ١٤٨-١٥٠
- اعتراف المسيح حسب الأناجيل الموجوده بانه عبد الله. ١٥٠-١٥١
- «من انصاري الى الله» لا تعني «إلى» هنا وفي آيه «الى المرافق» و«الى اموالكم»
إلا ما تعنيه «إلى» في غيرها. ١٥١-١٥٤
- ما هو رفع المسيح (ع) الى الله- آية المباهلة في قول فصل. ١٥٦-١٨١
- «الى كلمة سواء...»؟ ١٨١-١٨٧
- محمد (ص) رسول الى الرسل على ضوء آية الميثاق في قول فصل. ٢١٥-٢٢٩
- «لن تنالوا البرحتى تنفقوا...» ٢٤٥-٢٤٩
- «اول بيت وضع للناس...»؟ آياته البيّنات... كيف «من دخله كان آمناً» ولا امن فيه
كلياً؟! ماهي استطاعة السبيل الى حج البيت في قول فصل. ٢٥٤-٢٨١
- ماهو «حق ثقاته»؟ قول فصل حول الاعتصام بحبل الله جميعاً- وحول- حديث الثقلين ... ٢٨٩-٣١٩
- فرض تكوين الأمة الآمرة الناهية على كاهل الأمة الاسلامية. ٣١٩-٣٢٢
- من هم «خيرامة اخرجت للناس»؟ ٣٢٧-٣٣٥
- كيف «لن يضروكم إلا اذى...»؟ وقد أضرونا كثيراً واستعمرونا! ٣٣٥-٣٣٧
- ماهما «حبل من الله وحبل من الناس»؟ ٣٣٧-٣٤١
- «ليسوا سواء...»؟ فهل ان صالحى اهل الكتاب بنجون! اجل إذا اكتملت
فيهم عشرة كاملة. ٣٤٤-٣٤٨
- حرب أحد وتفاصيل هزمتها العظيمة في قول فصل. ٣٥٦-٣٧١
- «ليس لك من الأمر شيء؟» ٣٧١-٣٧٥
- الربا اضعافاً مضاعفة. ٣٧٧-٣٧٩
- اين «جنة عرضها السماوات والأرض»؟ ٣٨١-٣٨٥
- «هذا بيان للناس» فن هم الناس؟ ٣٩٥-٣٩٦

